ويصبحون قادرين على مواجهتها تبذلون أرواحكم في سبيله وتصبحون يده التي يبطش بها في أيام الحرب كما كنتم خدامه الأوفياء في أيام السلم ومع ذلك لم يجد هذا المسيحي الأمريكي الأبيض عنده من الحياء وروح العدالة مما يجعله يعترف بكم ويقبلكم كبشر مماثلين له».

ويتوقف فترتفع التعاليق من جديد: «صدقت، صدقت!»... «قل لهم!»... «خذ كل وقتك أيها الحمل الصغير!»... «لله ما أصدقه!» حينذاك يبدأ غير المسلمين يشاركون في الهتاف. كنا نحن المسلمين أقل منهم إنعزالية فكان تجمعنا بعد ذلك يبدأ يبدو وكأنه معسكر من طراز قديم ويواصل السيد محمد كلامه فيقول:

«علينا إذن أن ننفصل عن هذا المستعبد الذي يحتقرنا إلى أقصى درجة». ويرد على من يستجدون منه ما يسمى بالإندماج بأنه لا يريد أن يندمج معهم لأنه يخشى على صفاء بياضه. «انظروا إلينا، إلتفتوا حولكم وأنظروا إلى بعضكم البعض واسألوا أنفسكم ألم يدمجنا بعد بما فيه الكفاية؟ ألم يدمجنا إلى درجة أننا أصبحنا لا نكاد نجد بيننا رجلاً أسود أصيل واحد؟» وترتفع التعاليق: «يا إلهي! إن الرجل على حق!... «لقن أيها الرسول!»... «اسمع! اسمع!» ويستمر فيقول:

«إن الرجل الأبيض يوشك أن يقضي على كل سواد فينا إلى حد أنه أصبح يشعر بالذنب ويحتقر نفسه من خلال احتقاره لنا ويقول لنا بنص قوانينه إن القطرة الواحدة من الدم الأسود تجعلنا سوداً وإذا كانت تلك القطرة هي كل ما تبقى لنا فإننا نتمسك بها!». وتخور قواه ولكنه يستمر فيقول:

«لننفصل عنه إذن بمقتضى حجته نفسها، حتى لا نفقد بالإندماج ما تبقى لنا من سواد. إنه يتشدق بطيبوبته وكرمه ويمول حتى أعداءه فلماذا والحالة هذه لا يعيننا على إقامة دولة منفصلة نحن الذين أسلفنا له عبودية وخدمة مقرونتين بالوفاء؟ لماذا لا يعطينا أرضاً تخرجنا من أحيائه الموبوءة وتغنينا عن برامجه الخيرية سيما وهو يشتكي مما تكلفه إياه؟ إننا قادرون على الفعل وإذا كنا لم نفعل حتى الآن فلأنه أقنعنا بأن علينا أن نقصده دائماً للحصول على ما نريده ونحتاجه.» وبعد حوالي تسعين دقيقة يبدأ القلق يتسرب إلى رجال الدين ويبدأ هو يتمسك بعمود المكرفون ولكنه يستمر قائلاً:

«إننا نحن السود لا نعرف قدراتنا، على أن أحداً لا يعرف إمكانياته حتى يتحرر ويصبح قادراً على التصرف الذاتي. إذا كان لك قط وكنت تدلله يجب أن تحرره

وتطلقه في الغابة لتعرف أنه كان مجبولاً على إيواء نفسه وإطعامها ولكننا نحن السود في أمريكا لم نعط هذه الفرصة أبداً. لقد خدمنا الأرض طول حياتنا وبإمكاننا أن نؤمن غذاءنا، بإمكاننا أن نتحرر من المعتقدات التي رسخها الرجل الأبيض فينا ومن عقدة كراهيتنا لأنفسنا ونعيش في إخاء. إننا نريد أرضاً خاصة بنا، نريد أن نترك المستعبد الأبيض».

وكان يتوقف دائماً على حين غرة عندما يفقد القدرة على الإستمرار فكان هتاف الجمهور يتعالى ويستمر مدة طويلة وكنت أتوجه إلى المكروفون وأشير إلى الجمهور بالهدوء في الوقت الذي كان فتيان ثمرة الإسلام يشرعون فيه في المرور بين الصفوف بدلاء من ورق يجمعون فيها العطايا المالية وأقول:

«لقد اتضح لكم الآن أن السيد محمد لا يتلقى أي دعم مالي أبيض من شأنه أن يكرهه على قبول أية مشورة أو احتواء لأنه غير «مندمج» ولأن برنامجه مثل منظمته أسود مائة في المائة.

إننا المنظمة السوداء الوحيدة التي لا يدعمها إلا السود على عكس غيرنا ممم يسمون أنفسهم بـ«التقدم الزنجي» وهم وصمة في جبين الزنوج، الذين يزعمون أنهن يناضلون من أجلكم لتخويلكم حقوقاً مساوية لحقوق البيض والحالة أن من يناضلون ضده ومن يرفض أن يمنحكم هذه الحقوق هو نفسه من يغدق عليهم الأموال. إن كل عضوية تفرض دفع اشتراك سنوي، دولارين أو ثلاث ولكن هذه الدولارات الإثنين والثلاثة والخمس مائة ألف يدفعها لهم الرجل الأبيض ليهيمن عليهم ويشير عليهم ويحتويهم. فكروا قليلاً. أليس بديهياً أن من يومل يحتوي؟ إن الرجل الأبيض يتمنى لو استطاع أن يدعم السيد محمد ليضمن تبعيته المادية ومن ثم بدل المشورة إليه.

إخواني وأخواتي السود، إذا كان السيد محمد قد استطاع أن ينظم مثل هذه التجمعات السوداء الضخمة ويبلغ بها الحقيقة إليكم فذلك بفضل أموالكم».

كان فتيان ثمرة الإسلام يملأون المكان والدلاء تفرغ وتمتلىء والجمهور كأن على رؤوسه الطير. وكانت تلك الأموال تغطي نفقات الجميع ويبقى منها فائض نضعه في صندوق أمة الإسلام.

وبعد حين قرر السيد محمد أن نفتح أبوابنا للصحافة البيضاء التي بدأت تخضع

لإجراءات أمن مشددة تسلم بمقتضاها كل ما معها للتفتيش من كراسات وكاميرات وعلب كاميرات. وبدأ البيض يتوافدون علينا حتى بدأت تمتلىء بهم منطقة خاصة. وكان أغلبهم طلاباً وأساتذة جامعيين فكنت أنظر إلى وجوههم المتجمدة الحمراء وهم يحملقون في السيد محمد إذ يقول: «إن الرجل الأبيض يعرف أن أعماله أعمال شيطان» وإلى السود ذوي المهن الحرة «المثقفين» الذين كانوا يتهجمون علينا والذين كان لهم من الخبرة التقنية والمهارة العلمية ما كان يمكنهم معه إنقاذ إخوانهم مما هم فيه من بؤس والذين عمدوا عوض ذلك إلى إذلال أنفسهم بالإستجداء والسعي وراء الإندماج مع ما يدعى بـ«الليبرالي» الأبيض الذي يقول لهم: «سنجد حلاً لكل مشاكلكم عندما يؤون الأوان... في يوم من الأيام... فقط انتظروا واصبروا» أولئك الذين لم يكونوا قادرين على استعمال ما لديهم من إمكانيات لصالح أبناء جنسهم لأنهم كانوا يعانون من التفرقة فيما بينهم ومن كونهم في وادٍ والجماهير السوداء في وادٍ، ولولا ذلك لأفادوا السود في العالم بأسره. وإذن فقد كنت أنظر إلى وجوههم وهي تتقلص وتتشرب بالخطورة.

وأصبحنا مراقبين وأصبحت تلفوناتنا تحت الإستماع وما يزال ذلك الشأن معي حتى الآن، فلو أنني قلت في تلفون بيتي مثلاً إنني سأقنبل بناية إمباير ستايت لأصبحت مطوقة بالبوليس في ظرف خمس دقائق، كما أنني كنت أتعرف في تجمعاتنا على وجوه المخبرين التابعين للبوليس الفدرالي وباقي الوكالات الأخرى. وكان البوليس المحلي والفدرالي يأتي إلينا ويستنطقنا فكان السيد محمد يعلق على ذلك قائلاً: «إنني لاأخشاهم لأن عندي كل ما أحتاجه، عندي الحقيقة».

وكنت أكثر الأحيان أذهب لأنام وأنا أتعجب مما لتلك الحقيقة من قدرة على إيلام وإرباك وإقلاق وإزعاج دولة بما لها من رجال مدربين أعلى تدريب في كل أنواع العلوم الحديثة وأشعر أن ذلك لم يكن ليكون لولا أن هذا الرجل الذي لا يتعدى مستواه الثقافي السنة الرابعة من التعليم الإبتدائي قد تلقى علمه من أعلم عليم.

وبدأوا يسربون إلينا المخبرين السود الذين لم تلبث أن غلبت على أكثرهم نزعتهم السوداء، أقول أكثرهم لأنه لم يكن من السهل معرفتهم جميعاً ولكن البعض منهم بعدما التحق بنا واستمع إلينا ورأى الحقيقة وأحس بها أطلعنا على سره ومنهم من استقال من الوكالات البيضاء وبدأ يعمل معنا ومنهم قلة احتفظت بأعمالها وبدأت تقوم

بالمخابرة المضادة وتطلعنا على أقوال البيض وخططهم فيما يخص منظمتنا. وبذلك علمنا أنهم بعدما كانوا مهتمين بمعرفة ما يجري داخل أمة الإسلام أصبحوا يريدون بإيعاز من إدارات السجون معرفة الأسباب التي تدفع بالسجناء السود إلى الإسلام بكثرة. وقد كان السجناء المسلمون يتلزمون بقوانيننا الأخلاقية كما حدث لي فكانوا أكثر استعداداً من سواهم ولم يكونوا يحتاجون بعد إطلاق سراحهم إلا إلى الإلتحاق بأحد معابدنا لتسجيل أنفسهم. ولم يكن الإنضمام إلينا بالشيء السهل على عكس الكنائس المسيحية لأنه لم يكن بإمكان المرء أن يعلن أنه يتبع السيد محمد ويُبقي على أسلوب حياته السابق المثقل بالمعاصي والفساد بل كان عليه أن يغير نفسه تغييراً جذرياً، مادياً وأخلاقياً ويلتزم بقوانيننا الصارمة ويلزمها إن أراد أن يبقى مسلماً. ولم يكن يعقد في معابدنا اجتماع واحد لا يحضره مسلمون جدد تدل عليهم رؤوسهم الحليقة بعدما ودعوا إلى الأبد تلك الشعور المعدنية المزورة، المطبوخة بماء الرماد والتي كانت طريقة تليينها قد أصبحت تعرف بـ«العملية».

ويؤلمني أنني حيثما ذهبت الآن أجد تلك التسريحة على الرؤوس بكل ما تنم عنه من جهل وكراهية للنفس. أنا أعرف أن ما سأقوله سيجرح بعض أصدقائي غير المسلمين الذين يستعملون تلك التسريحة. إننا عندما نتمعن في أي من الزنوج الذين يستعملونها نجد أنهم جهال. وهي بغض النظر عما تقترن به من تصنع وتظاهر تفضح خجل صاحبها من سواده ولو أنه استطاع أن يتخلص منها ويترك شعره كما خلقه الله ولا يشعر بالنقص لاكتشف أن نفسيته ستتحسن كثيراً كما حدث لي.

المسلم لا يدخن في عرفنا وهذا ما وجده البعض صعباً أكثر من حظر المخدرات ولكنهم كانوا يذعنون له بسهولة عندما نقنعهم بأن الدولة البيضاء لا تعنيها الصحة العمومية بقدر ما تعنيها ضرائب صناعة السجائر التي تقدر بالملايين. كنا نقول لهم: «هل تعرفون كم يدفع العامل لمصلحة الضرائب في صندوق سجائر واحد؟» وكنا نحسب فنجد أنه يدفع دولارين كاملين من ماله الذي كسبه بعرق جبينه.

ولعلك سمعت بما كتب عن علاج أمة الإسلام لمدمني المخدرات ومن بينه المقال الذي نشرته نيويورك تايمز حول استعانة بعض الوكالات ببرنامجنا في الموضوع. وهذا البرنامج يبدأ بإقرار وجود ارتباط بين اللون والإدمان بدليل أن هارليم هي أكثر التجمعات إقبالاً على المخدرات في النصف الغربي من الكرة الأرضية.

ويرتكز هذا البرنامج على العمل الشاق الذي يقوم به مدمنون سابقون عالجناهم فقاموا بالمقابل بجلب مدمنين يعرفونهم وتكفلوا بالإشراف على علاجهم بصبر كبير مدة تتراوح بين شهر وسنة في نطاق برنامج من ست نقط هي:

أولاً، الوصول بالمدمن إلى الإعتراف فيما بينه وبين نفسه بأنه مدمن.
ثانياً، إقناعه بأن علاجه ممكن.
رابعاً، إعادة ثقته في نفسه بحيث يصبح يعتقد أنه قادر على وضع حد لإدمانه.
خامساً، وصوله إلى اتخاذ قرار بذلك.
سادساً، شفاء المدمن وشروعه في البحث عن مدمنين يعرفهم وإشرافه على علاجهم.

وقد كان فشل برنامج الولاكات الإجتماعية يعود إلى أنه لم يكن يطبق المرحلة الأخيرة فيترك المدمن فريسة لعدائه للمجتمع وريبته فيه. أما في برنامجنا فإن المدمن الجديد يعرف أنه أمام رجل كان مثله تحت رحمة عادة تكلفه يومياً من عشرين إلى ثلاثين دولاراً لا سيما وأنه قد يكون زميلاً سابقاً له قاسمه المخدرات والسرقة والنوم على الأرصفة وتخطي عود ثقاب يبدو في حجم الكلب يكلمه بلغته، لغة غابة المخدرات.

وكما أن مدمن الخمر لا يمكن أن يعالج إلا إذا اعترف بحالته وتقبلها كذلك مدمن المخدرات. وعندما يتم اختيار المدمن يلزمه المسلم كظله فيقول له ويعيد: «أنت مدمن يا رجل!» ولكن اقتناعه بذلك قد يحتاج إلى شهور فإذا اقتنع بدأت مرحلة معرفة الأسباب التي دفعت به إلى التخدر.

والمسلم يقوم بعمله في درك ولا يمكن أن يتصوره العقل حيث تتجمع له دزينة من المخدرين الذين ساقهم إليه كونه كان واحداً منهم. وهناك يفسر لهم أن المخدرات مهرب وأن المخدَّر الأسود يريد أن يهرب من كونه أسود في أمريكا البيض وأن إقبالهم على المخدرات يؤكد ما يقوله البيض عن السود من أنهم لا شيء.

ويتكلم المسلم مباشرة وبسرية فيقول: «أنا أعرف حالتكم لأنني مررت منها، أعرف معنى أن يحك المرء جلده مثل قرد ومعنى النتن والجوع والتهور والسرقة والهرب من البيض» ثم يقول لهم إن من يشتري المخدرات يخدم هدفين اثنين وهما إغناء البيض وإهلاك نفسه. كل ذلك وهو يتحين الفرصة ليقول إن خلاصهم من المخدر في انضمامهم إلى أمة الإسلام حتى إذا ما فعل جاء بمدمن المخدرات إلى

أقرب مطعم مسلم ليرى بعينيه مسلمين معتزين بأنفسهم، نظيفين، يحترمون بعضهم البعض ويحبون بعضهم البعض على عكس الحال في الأحياء السوداء ويسمع لأول مرة من يناديه بـ «أخي» و«سيدي» و«السيد فلان» دون أن يهتم بماضيه فإذا ما حدث وأثير موضوع تخدره يكون ذلك في إطار حثه على التحدي. وفي ذلك المطعم يقول له كل من يراه إنه قادر على التغلب على المخدرات.

وتتغير نظرة المدمن إلى نفسه فيقتنع بأنه قادر فعلاً على أن يتغلب على المخدرات إذ يكتشف معنى العزة السوداء وهي نتيجة جبارة بالنسبة لمن كان يعيش في الوحل. والمتردي يتغير إذا وجد الحافز ولعل مثالي الخاص أكبر دليل على ذلك. وفي الأخير يقرر المدمن من ذات نفسه أنه يريد أن يبدأ العلاج مع علمه بما يترتب عن الترك المفاجىء للعادة من آلام حادة فيسهر عليه المسلمون بالتناوب ليساعدوه على تطهير نفسه استعداداً للدخول في الإسلام ومخاطبته عندما يشتد عليه الألم بلغته قائلين: «انفض ذلك القرد من ظهرك!». ويتلوى من الألم فتسيل عيناه وأنفه ويتصبب عرقاً من رأسه إلى قدميه ويحاول ضرب رأسه وذراعيه بالحائط ومصارعة مساعديه ثم يبدأ القيء والإسهال ويقول له المسلمون: «لا تبق فيك شيئاً، دع الرجل الأبيض يذهب عنك إلى غير رجعة وسترفع رأسك عالياً وتمشي في سرب فتيان ثمرة الإسلام».

وتمر الأزمة ويتكسر قيد المخدر فيقدم المسلمون تهانيهم إليه ثم تعطاه الشربة والمرق لتقويته وبعدها يستحيل أن ينسى أولائك الرجال الذين ساندوه وقت المحنة أو أن ينسى أن برنامج أمة الإسلام هو الذي أنقذه من جحيم المخدرات أو أن يعود إليها إلا في النادر بل إنه ما أن يقف على قدميه حتى يسارع إلى البحث عمن يساعده.

ولو كان رجل أبيض أو أسود مرضي عنه قد جاء بمثل ذلك البرنامج لهرعت إليه الحكومة بالدعم والثناء والدعاية ولكنهم عوض ذلك شنوا علينا الهجوم. أنا لا أعرف ما تكلفه الجرائم المرتكبة تحت تأثير المخدر على الصعيد الوطني ويقال إنه مليارات الدولارات سنوياً في نيويورك وحوالي اثني عشر مليون دولار من المسروقات في هارليم وحدها. إن المدمن لا يعمل فمن أين يصرف على عادته التي تكلفه من عشر إلى خمسة عشرة دولاراً في اليوم؟ إنه يسرق بالطبع ويُهرِّب وينصب على كل الناس كالصقر أو كالنسر كما كنت أفعل. وهو في غالب الأحوال ترك المدرسة ورده الجيش وليس له أي استعداد نفسي للعمل حتى وإن وجده كما حدث لي.

أما المدمنات فيسرقن المتاجر ويتعاطين الدعارة واللواتي يرغبن منهن في مصارعة المخدر استعداداً لإعتناق الإسلام يسلمن للأخوات المسلمات اللاتي يستعملن معهن لهجة شديدة فيقلن لهن: «إنكن تساعدن الرجل الأبيض على النظر إلى أجسادكن كما لو كانت أوعية زبالة».

لقد أشارت العروض التي قدمت عن أمة الإسلام إلى أن أتباع السيد محمد مدمنو مخدرات وسجناء سابقون وهذا صحيح بالنسبة للسنوات الأولى إذ كان عدد لا يستهان به في قاعدة أمة الإسلام من أدنى الطبقات الإجتماعية وكان السيد محمد يقول لنا دائماً: «ركزوا على الإنسان الأسود الذي يعيش في الوحل فإنه عندما يسلم يحسن إسلامه». ولكننا بدأنا نصل بالتدريج إلى نوع آخر من السود المسيحيين الجيدين الذين كنا نصطادهم في كنائسهم فارتفعت نسبة المتعلمين والمكونين بيننا وكان كل تجمع عام يأتينا بالمزيد مما يدعى بالطبقة المتوسطة من الزنوج الذين كانوا من قبل ينعتوننا بالديماغوجيين وملقني الكراهية والعنصرية السود وما إلى ذلك.

وجاءتنا الحقيقة الإسلامية بحصاد متنام من الشباب الأسود الذي صادف عندنا حاجتنا إلى خبرته ومواهبه. وكان من بينه من كان يخفي إسلامه خوفاً على منصبه فلا يعلم به إل المسلمون وأحياناً لا يعلم به إلا رجال الدين والسيد إلايجا محمد.

وبلغت الأمة أوج ازدهارها في ١٩٦١ فظهر على الصفحة الأخيرة من جريدتنا تصميم المركز الإسلامي المزمع بناؤه في شيكاغو بغلاف مالي قدره عشرون مليون دولار يجمع من اكتتاب المسلمين والذي يضم مسجداً جميلاً ومدرسة ومكتبة ومستشفى ومتحفاً لتاريخ السود المجيد. وكان السيد محمد قد زار البلاد الإسلامية وقرر بعد عودته أن نسمي معابدنا مساجد.

كانت أعمال المسلمين أيضاً في ازدهار، تلك الأعمال التي كنا نريد أن نثبت بها للسود أنهم يستطيعون الإعتماد على أنفسهم إن توحدوا وتعاونوا وقاموا بتشغيل بعضهم وإبقاء أموالهم بينهم كما تفعل باقي الأقليات. وكانت إذاعات صغيرة في مجموع التراب الأمريكي قد بدأت تذيع خطب السيد محمد كما كان الطلبة المسلمون قد بدأوا يلتحقون بجامعتينا في دترويت وشيكاغو قادمين إليهما من مدارسنا الثانوية في نفس المدينتين حيث لقنوا تاريخ السود المجيد وتعلموا ابتداء السنة الثالثة من التعليم الإبتدائي اللغة العربية، لغة الإنسان الأسود الأصلية.

وكان قد أثلج صدري أن أولاد السيد محمد الثمانية قد أصبحوا يشتغلون مع أمة الإسلام لأنني كنت قد قلت للسيد محمد عندما بدأت اشتغل معه إن من غير المعقول أن يبقى أولاده يعملون في مصانع البيض وأوراش بنائهم وسيارات أجرتهم. . .إلخ. وكنت أشعر أن علي أن أخدم أسرة السيد محمد بنفس الإخلاص الذي كنت أخدمه به فطلبت منه أن يأذن لي بجمع المال لإقامة مشاريع تسمح لنا بإغناء أبنائه عن العمل مع البيض. ونجح مسعاي فأصبح ابنه الأكبر إمانويال يدير وحدة لتنظيف الملابس وابنته إيثيل الشريف عقيلة رايموند الشريف الرئيس الأعلى لفتيان ثمرة الإسلام، كبيرة المعلمات وابنته لوتي عميدة الجامعتين الإسلاميتين وابنه نتانييل مساعداً لأخيه إمانويال وهربيرت مدير الجريدة وإلايجا الأصغر مساعداً للقائد الأعلى لفتيان ثمرة الإسلام وابنه ولاس، الذي أبعد وإياي من أمة الإسلام لأسباب سيأتي ذكرها، رجل دين مسجد فلادلفيا أما ابنه أكبر وهو أصغر أبنائه والوحيد الذي تلقى تعليماً جامعياً فهو طالب في جامعة الأزهر بالقاهرة وقد انفصل أيضاً عن والده.

وانتهى الإجهاد بالسيد محمد إلى تدهور صحي مفاجىء فاشتدت عليه نوبات السعال الحاد وألزمته الفراش واضطرنا ذلك إلى إلغاء خطبه المقررة منذ أمد بعيد وإرسال من يلقيها نيابة عنه مما كان بالطبع يخيب أمل الجماهير ويقلق بال المسؤولين في أمة الإسلام.

وأشار عليه الأطباء بالهواء الجاف فاشترت له أمة الإسلام بيتاً في فينيكس، أريزونا. وزرته مرة هناك فوجدت مصورين يوجهون آلاتهم وأضواءهم نحو سلم الطائرة فتلفت لأرى من ينزل خلفي ثم رأيت مسدساتهم فعرفت أنهم بوليس سري جاء ليصورني.

وشاع بين المسلمين أن جو أريزونا قد خفف من آلام الرسول فبقي هناك. ومع أن نشاطه قل وهو في طور النقاهة إلا أنه أصبح يتحمل عبء القرار والواجبات الإدارية أكثر من أي وقت. كانت أمة الإسلام قد اتسعت على كل الأصعدة داخلياً وخارجياً فلم يعد قادراً على النظر في كل شيء وسمح لي بإتخاذ القرار ونصحني بمراعاة الحكمة ومصلحة أمة الإسلام في ذلك وقال: «إنني أريدك أن تصبح مشهوراً يا أخ ملكوم لأن شهرتك من شأنها أن تعرف بي ولكن عليك أن تعلم أن ذلك سيجر عليك الأحقاد لأن الناس تغار عادة من الشخصيات المشهورة وقد أثبتت لي الأيام صدق كلامه.

الفصل الخامس عشر

إيكاروس

ومع ازدياد كلامي باسم السيد محمد في الإذاعات ومحطات التلفزيون والجامعات ازداد عدد الرسائل الموجهة إلي من البيض التي كان أقلها منها من ذلك النوع الذي يبتدىء بـ«عزيزي الزنجي إكس» أو يهدد بالموت. وكشفت لي تلك الرسائل خوف الرجل الأبيض من شيئين اثنين هما: اعتقاده الخاص بحلول غضب الله عليه وتدميره والخوف من تسرب الرجل الأسود إلى جسد المرأة البيضاء.

كان عدد لا يستهان به من تلك الرسائل يتفق مع السيد محمد في نظرته للمشاكل ويختلف معه في طريقة علاجه له ويفزع من عبارة «الشيطان الأبيض»، فعمدت إلى شرحها في خطبي التي بدأت أقول فيها:

«إننا عندما نقول الشيطان الأبيض لا نقصد رجلاً أبيض بعينه، وإنما نقصد السجل التاريخي الجماعي للبيض، قسوتهم وشرورهم وشرههم وهي الصفات التي جعلتهم يتصرفون مع غير البيض تصرف الشيطان. إن كل من له عقل وأمانة وموضوعية لا يمكن إلا أن يعترف بأن تجارة الرقيق وما ترتب عنها من أعمال شيطانية قد أدت ليس فقط إلى وجود السود في أمريكا ولكن أيضاً إلى الظروف التي يعيشون فيها وإلى ما تعرض له كل إنسان أسود على يد البيض ككل.

وكانت هناك دائماً ردود في الصحافة تنعتني بالديماغوجية، ولكن ذلك لم يكن يهمني بقدر ما كان يحز في نفسي سبها للسيد محمد. وقد حاول الإجتماعيون والمساعدون أن يتصدوا لي على حدة ولا سيما السود منهم الذين كانوا يتلقون أجورهم من البيض والذين كانوا يتهمونني بالإستقطاب والعنصرية والمغالاة في التعميم والتلاعب...

وذات يوم جاءني إخوان كانوا يهتمون بالمراهقين في إحدى جهات هارليم بتقرير

كتبه عنا أحد أولئك المساعدين الإجتماعيين السود وقرأته فردتني كل فقرة فيه إلى المعجم، ولذلك ربما ما زلت أحفظ ما قاله عني مثل: «إن ملكوم إكس يغالي في تبسيطه لزخم الثّلَم التي تعاني منها ثقافة هارليم وفي تحريفه لها خدمة لأغراضه الخاصة» وأنا أتساءل من منا يعرف ثقافة هارليم أكثر أنا الذي تقلبت في أعمال هارليم غير القانونية مدة سنوات طويلة أم ذلك الوصولي المتفيقه الأسود؟ على أن الخطير في المسألة هو أنه كان واحداً من قلة سوداء ساعدها الحظ فتعلمت ولكنها لم تفهم مغزى التعليم ولا هدفه ولا أوجه استعماله فأصبح تعلمها آسناً لا ينفع ولا يظهر إلا في استعمال الألفاظ الطنانة وهو سبب من الأسباب التي سهلت على الرجل الأبيض في أمريكا احتواء السود. ذلك أن القلة المتعلمة السوداء لا تستعمل تعليمها كما يستعمله البيض في البحث والتفكير الخلاق لتحسين أحوالها وأحوال بني جنسها في هذا العالم الأبيض الزاخر بالمنافسة والمادية والدوس على الآخرين لتحقيق المصلحة الخاصة.

لقد قاد ما يدعى بالمثقفين الزنوج إخوانهم خلال أجيال كاملة بمنطق أبيض خدم مصلحة البيض ونزعتهم الإستغلالية. لا أحد ينكر ما للرجل الأبيض من ذكاء خارق وحنكة تزخر حياته بالأدلة عليها حتى أنه ليس هناك شيء لا يقدر على صنعه أو مشكل علمي يستعصي عليه وها هو الآن يقتحم حتى أبعاد الفضاء ويرسل إليه رجالاً ثم يعيدهم إلى الأرض سالمين، ولكن ذكاءه هذا ينقص في تعامله مع الناس ويهجره نهائياً إذا كان هؤلاء الناس غير بيض فإذا به يحل العاطفة محل العقل ويتصرف بانفعال واندفاع تحت فعل عقدة الكمال المترسخة في أعماق نفسه.

أين ألقيت القنبلة الذرية للحفاظ المزعوم على الأرواح الأمريكية؟ هل يعقل أن الرجل الأمريكي الأبيض كان من السذاجة بحيث لم يعرف ما يترتب عن فعلته تلك على ثلثي سكان الأرض غير البيض؟ وقبل ذلك سيق مواطنون أمريكيون مخلصون لوطنهم إلى مخيمات محاطة بالأسلاك الشائكة لمجرد أنهم من أصل ياباني ولكن عندما دخلت أمريكا الحرب ضد ألمانيا لم يفعل شيء بالمواطنين ذوي الأصل الألماني لأنهم بيض ولأن الطبيعة الشيطانية الكامنة في الرجل الأبيض كما يثبت التاريخ، تتبلور عندما يتعلق الأمر بغير البيض. وهذه الطبيعة هي التي جعلت الرجل الأبيض يعمى عن أن يرى أن العبيد إذا تحرروا وحصلوا على قدر ولو محدود من التعليم سيثورون عليه في يوم من الأيام.

لقد كان أولى بهذا العقل الذي يستكشف اليوم الفضاء أن يقول للسيد إن العبد عندما يتعلم سوف يكف عن الخوف منه، وإن التاريخ يؤكد أن العبد عندما يتعلم يبدأ يسأل ثم يطالب بالمساواة مع سيده. وها قد جاء هذا اليوم وبدأ السود يرون البيض ككل أفضل مما يرى البيض أنفسهم ويدركون أكثر فأكثر أنهم قادرون جسمانياً وسياسياً وإقتصادياً بل وإجتماعياً إلى حد ما، على أن يزعزعوا مقومات البيض الحيوية وسمعتهم في الخارج.

قلت إنني كنت في ١٩٦٣ في صراع مع الإعلام الأبيض الذي كان قد آلى على نفسه أن يقضي على تعاليم السيد محمد. وكان المخبرون الصحافيون البيض قد بدأوا يظهرون لي في هيأة ابن مقرض، يتشممون في استجواباتهم ويتحفزون للتحايل علي ومحاصرتي. كان «زعماء» حركة الحقوق المدنية لا يكادون ينطقون بما يغضب السلطة البيضاء حتى يأتيني هؤلاء المخبرون لاستعمالي في الرد عليهم فيقولون لي: «لقد سبق لك يا سيد ملكوم إكس أن أعلنت عن استنكارك لعملية الإعتصام التي يقوم بها بعض الزنوج، فما رأيك الآن في المقاطعة التي يتزعمها الدكتور كينغ في مونتغومري؟». ولم أكن من الغباء بحيث أسمح لرجل أبيض بأن يستعملني في صراعه مع سود هم منا وإلينا حتى وإن كانوا هم يفعلون ذلك معنا نحن المسلمين فكنت أجيب عن السؤال بالتعرض للأسباب التي أدت إلى موقف الدكتور كينغ ذاك فأقول: «لقد كانت السيدة ليزا باركس تركب الأوتوبيس متوجهة إلى بيتها عندما جاءها ذلك السائق الأبيض المجنون وأمرها بأن تقوم من مقعدها ليجلس فيه رجل أبيض. تصوروا! هذه مسيحية كادحة سوداء دفعت أجرتها تؤمر بالقيام من مكانها لأنها سوداء! إنه يصعب علي أنا نفسي في بعض الأحيان أن أفهم غطرسة الرجل الأبيض». أو كنت أقول: «إن أحداً لا يعرف الدوافع العاطفية التي جعلت مثل هذه الحادثة البسيطة تشعل الفتيل. لقد تعرض السود في الجنوب خلال قرون لما هو أفظع، تعرضوا للإعدام من دون محاكمة، وللإغتصاب والجلد والرمي بالرصاص، ولكن الأحداث التي تبدو لنا بسيطة هي التي تحرك التاريخ. لقد منع مرة هندي ضئيل ومغمور اسمه المهاتما غاندي من ركوب القطار فأدى به ذلك إلى عقد عقدة في ذيل الأسد البريطاني». أو كنت أستعمل حيلة رأيت المحامين في الحياة وفي الأفلام يستعملونها. ألم أقل أنني ولدت لأكون محامياً لولا ذلك الأستاذ الذي أشار علي بأن أكون نجاراً؟ كنت أعمد إلى التملص من الرد على السؤال بطرح معضلة يحار المخبر فيها كأن أقول: «إنني أفهم منطق هؤلاء الذين

ينادون بالمقاطعة في مونتغومري، إذ كيف يعقل أن ننتظر من الزنجي أن يلتحق بالجيش البري أو البحري أو الجوي ويموت من أجل ديموقراطية مزعومة تعطي مهاجر اليوم الواحد الأبيض أكثر مما تعطيه للسود الذين استعبدوا في هذه البلاد وخدموها منذ أربعة قرون؟» فكانوا يفضلون خمسين مقاطعة على نشر مثل ذلك الكلام وحتى عندما كانوا ينشرونه كان يأتي مقلوباً رأساً على عقب ثم كفوا عن توجيه ذلك النوع من الأسئلة إلي.

كنت أقارعهم بالحجة وأشير في سياق الكلام إلى التحسن الذي حصل في ميدان الحقوق المدنية مثل توظيف عشرة زنوج في صناعة كبيرة وشروع إحدى شبكات المطاعم في استقبال الزنوج وتسجيل زنجي بإحدى جامعات الجنوب دون أن تضطر قوات الأمن للحضور، وما إلى ذلك. وكان صاحب البرنامج الإذاعي أو التلفزيوني يتلقف ذلك مني ليقول إنه تقدم ملموس لصالح الجنس الأسود لا يمكنني أن أنكره، فكان قوله يثيرني فأقول: «إنني لا أكاد أتحرك يمنة أو يسرة دون أن أجد من يكلمني عن التقدم الذي حصل في ميدان الحقوق المدنية ولعل البيض ينتظرون منا أن نشكرهم على ذلك. لقد أغمد الرجل الأبيض سكينه في ظهورنا مدة أربعة قرون، والآن وقد بدأ يحركها قليلاً يراد منا أن نكون ممتنين. إن الجرح سيبقى حتى وإن أخرج السكين». وكانوا كلما تبجح عمدة أو رئيس مجلس بلدي في جهة ما بأنه ليست له أية مشاكل مع الزنوج يأتون لي في استديوهات الإذاعات والتلفزيون بتصريحه ويضعونه أمام وجهي فكنت أقول لهم إن ذلك لا بد وأن يكون قد وقع في جهة يعد فيها الزنوج على رؤوس الأصابع وأن العنصرية موجودة في كل مكان ولنأخذ الديموقراطية البريطانية التي منعت الهجرة عندما جاء ١٠٠ ٠٠٠ أسود إلى بريطانيا من جزر الهند الغربية، وأن فنلاندا التي رحبت بسفر أمريكي أسود لم تكن لتبقي على ترحيبها لو أن عدداً كبيراً من الزنوج تبعوه إلى هناك، وأن روسيا نفسها هددت على لسان خروتشوف بعدم منح طلاب أفارقة تأشيرات الدخول إليها لأنهم شاركوا في مظاهرات نظمت لشجب موقفها العنصري من السود.

وكانت صحافة الجنوب البيضاء تقاطعني ولكنها كانت تنشر على صفحاتها الأولى ما أقوله عن ذهاب أنصار الحرية البيض والسود للمشاركة في المظاهرات المنظمة في الجنوب تضامناً مع السود. وقد كنت أصف تلك المشاركة بالسخافة وأقول إن الأولى بهؤلاء المتظاهرين الشماليين أن يلتفتوا إلى حالة الزنوج في الشمال وإلى

الأحياء الزنجية فيه التي تغزوها الفئران والصراصير وتمتلىء بأطفال صغار يتسكعون في الشوارع في منتصفات الليالي، ومفاتيح بيوتهم معلقة في أعناقهم لأن آباءهم وأمهاتهم منشغلون بالخمر والمخدرات والسرقة والدعارة. كنت أقول إن الأولى بهؤلاء المتظاهرين الشماليين أن يحملوا المجالس البلدية والنقابات والصناعات الكبرى في الشمال على تشغيل السود وإغنائهم عن مد أيديهم للبرامج الخيرية التي علمتهم الكسل وزادتهم تدهوراً على تدهورهم. وما كنت أنتهي من كلامي ذاك حتى ينتصب لي الليبراليون كالأفاعي خصوصاً وأنهم ليس من عادتهم أن يسمعوا من يميط اللثام عن نفاقهم، ولعل حياتي أكبر دليل على نفاق الليبراليين الشماليين. إنني لا أعرف الجنوب وإنما أنا صنيعة الشمال الأبيض ونفاقه. وقد كان السيد محمد يقول دائماً: إن الجنوبي الأبيض على الأقل لا ينافق. إنه يكشر عن أنيابه للسود ويقول لهم صراحة إنه لن يقبل أي «اندماج» صوري معهم وإنه سيحاربه، وإن ذلك نتج عنه أن الزنجي في الجنوب على الأقل يعرف عدوه على حقيقته.

إن هناك جنوبيين بيضاً ساعدوا بعض الزنوج بشكل فردي، أما الشماليون فهم يتسمون جماعة ويتشدقون بـ «مساواة» و«اندماج» لا يؤمنون بهما ويحاولون التملص من مسؤوليتهم فيما وقع ويقع للسود في حين أن أخطر سود في الوقت الراهن هم أولئك الذين وضعوا في الأحياء الزنجية بالشمال لئلا يراهم أحد في الوقت الذي كانت فيه سلطة الشمال تتبجح بالديموقراطية.

إن أول من استعمل كلمة «إندماج» بمدلولها العنصري الحالي ليبرالي شمالي، ذلك المدلول الذي يموه ويعتم على الحاجات الحقيقية للسود. هنا في هذه الولايات الخمسين حيث ترتع العنصرية الجديدة توقع هذه الكلمة ملايين البيض في البلبلة والغضب لأنها توهمهم بأن الجماهير السوداء تريد أن تختلط بهم. والحالة أن حفنة من مجانين الإندماج هي التي تريد ذلك وتهرب من إخوانها السود الفقراء وما تهرب إلا من نفسها. أنا هنا أتكلم على الزنوج الذين يتقربون من البيض، أي عن القلة الناجية التي تتبنى التفكير الأبيض وتعد أكثر معارضة للسود من البيض.

إن الأمريكي الأسود لا يريد إلا حقوقه الإنسانية، أن يكرم كبني آدم، ألا يفر منه البيض كما لو كان مصاباً بالطاعون، ألا يعزل في الأحياء الزنجية كالحيوان، ألا يعيش مخفياً وأن يمشي مرفوع الرأس كبني آدم.

إن معظم البيض يجهلون أن معظم السود يكرهون اليوم مخالطتهم
يتحملونها مرغمين عند الضرورة، ولكن مفهوم هذا «الإندماج» جعل ملا
يغترون ويتوهمون أن السود يريدون النوم معهم والحقيقة غير ذلك. لقد
أسود في المدة الأخيرة: «هل تعرف كيف تكون رائحتهم عندما يعرق
الجماهير السوداء تفضل صحبة السود وحتى البرجوازيون السود عندما ي
الحفلات المندمجة الأنيقة بمجرد ما يدخلون بيوتهم يتكلمون على الليبرال
الذين كانوا معهم وكأنهم يتكلمون على كلاب، ولعل الليبراليين البيض يفع
عينه. أنا لا أعرفهم، ولذلك لا يمكنني أن أكون متأكداً من ذلك، ولك
السود. هذه هي الحقيقة أطلقها كعادتي فجة وعارية لأنني أؤمن بأننا في
الحقيقة في علاقتنا مع البيض، خصوصاً وأن هذه العلاقة قد أثقلت منذ أ
بالعنصرية والأفكار الجاهزة والأكاذيب.

لقد تطوع البيض ولا سيما في التجمعات السكنية الصغيرة فصنعو
صورة تؤكد حسن نيتهم مع الزنوج، ولذلك عندما يقول لهم الزنجي إنه لم ي
أن يبقى في المؤخرة، مواطناً من الدرجة الثانية محروماً أبسط حقوقه، يقال
شديد إن موقفه يؤسف له لأنه يدفع حتى بأنصار السود إلى تغيير رأيهم. . .
حقاً لأنه يعوق التقدم الذي كان قد بدأ ويقفل باب الحوار بين الجنسين.

والحقيقة أنه لم يكن هناك أي حوار، وإلى ما بعد الحرب العالمية الثا
هناك تجمع سكني واحد في كل أمريكا سمع «زعيماً» زنجياً محلياً واحداً ي
ما يعانيه الزنوج، وأكبر دليل على ذلك الذهول الذي استقبلت به أمريكا تمر
هل رأيت في حياتك قائداً عسكرياً يجهل كل شيء عن جيشه؟ كانت الأمور
بالسود في أمريكا إلى حد الإنفجار، والبيض لا يعلمون لأن «الزعيم» المحـ
كان دائماً يطمئن الرجل الأبيض في المكان عينه ليضمن بقاءه في «الزعامة»
عند الضرورة: «إن بعض الناس يا سيدي يقولون إننا في حاجة إلى مدرسـ
فإذا كان الزنوج في تلك الجهة لا يشاغبون تفضل الرجل المحلي الأبيض
المدرسة أو الشغل. والبيض في الجهات الأمريكية يعرفون أن هذه هي الـ
هذا هو النسق الذي كان الحوار بين البيض والسود في الجهات سارياً ع
ابتكره البيض بدافع من أنانيتهم ونزعتهم إلى السيطرة ومكنهم من أن يلقوا ا

السود ويشعرون بأنهم يقومون بعمل جليل بدلاً من أن يشعروا بالذنب.

وهذا النسق أو النظام الذي أوجده الرجل الأبيض وعلم به الزنوج أن يخفوا عنه الحقيقة وراء جدار من الإبتسام والموافقة والوقوف في خضوع وحك الرأس، قد ألحق بالأمريكي الأبيض أذى لم يكن ليلحقه به جيش غازٍ، أقول ذلك لأنه من الأسباب التي جعلت الأمريكي الأبيض يعتقد في قرارة نفسه أنه «الأفضل» حتى أن هناك في جهات عدة رجال بيض لم يكملوا تعليمهم الثانوي، ينظرون بعجرفة إلى رجال سود تخرجوا في الجامعات وأصبحوا «زعماء» ومديري مدارس وأساتذة وأطباء وأصحاب مهن حرة.

لقد فرض البيض على غير البيض في كل مكان نظامهم بالقوة ولذلك تجد الحكومات البيضاء نفسها اليوم أمام مشاكل مع غير البيض لا أول لها ولا آخر، مشاكل يتوقف بقاؤهم على قدرتهم على مجابهتها.

وما إنتفاض الشعوب غير البيضاء التي كانت إلى حين تموت خوفاً إذا ما رفعت الأمم البيضاء حاجبها، إلا لأن هذه الشعوب السوداء والسمراء والحمراء والصفراء لم تعد تطيق هيمنة الأبيض واستغلاله واستصغاره لها وانتهاكه لحقوقها.

كيف تتصور الحكومة الأمريكية أنها تستطيع أن تُسَوّق «الديموقراطية» و«الأخوة» إلى شعوب العالم غير البيضاء، وهذه الشعوب تقرأ وتسمع كل يوم ما يجري فيها وترى صوراً توضح لها أفضل من ألف كلمة أن الأمريكيين غير البيض ممنوعون من هذه «الديموقراطية» وهذه «الأخوة»؟.

الشعوب البيضاء تعرف أن الزنجي أحب الرجل الأبيض وتفانى في خدمته ورعايته له وعنايته به عندما كان طفلاً، وأنه خاض حروبه ضد البيض وضد السود على السواء ومات من أجله وأن الرجل الأبيض قابل ذلك بقذفه بالعبوات الناسفة وإطلاق كلابه عليه وتوجيه خراطيم نيرانه إليه وسجنه بالألوف وجلده وتعريضه لكل أنواع الجرائم. وهذا هو ما يجعل السفارات والمفوضيات الأمريكية في الخارج تقذف بالعبوات الناسفة وتتعرض لإحراق السيارات الفخمة وللرجم والتطويق ونداء: «إرحل من هنا أيها الرجل الأبيض!» وإلى الإعتداء على المبشرين المسيحيين وتمزيق العلم الأمريكي. ألم أقل إن مُرَكَّبَ الكمال الأبيض قد ألحق بالأمريكيين البيض من الضرر ما لم يلحقه بهم جيش غازٍ؟

إن على الأمريكيين السود أن ينصرفوا إلى تقوية تجاراتهم وبناء مساكن لائقة

لأسرهم وتعلم حماية بني جنسهم وتشغيلهم كما تفعل باقي السلالات ليزيدوا في قدرة الجنس الأسود على الفعل، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي ستجعل الإنسان الأسود ينظر إلى نفسه باحترام، وتساعده على أن يكون مستقلاً ومعترفاً به كإنسان. وعلى الإنسان الأسود في الأحياء الزنجية أن يبدأ بإصلاح عيوبه ونقائصه المادية والمعنوية والروحية وأن يتخلص من السكر والتخدر والعهارة، عليه أن يرتفع بقيمه.

إن ما يدعى بالإندماج لا تشارك فيه إلا أقلية من الزنوج البرجوازيين الذين يهرعون لإنفاق القليل مما لديهم في فنادق البيض الفخمة ونواديهم الليلية الأنيقة ومطاعمهم الفاخرة التي هي من مستوى البيض لا من مستواهم. إنها مهزلة أن يرى الإنسان زنجياً يتلقى أجره بالتقسيط يتعشى في ذلك النوع من المطاعم ويبتسم في بلادة لرئيس نادلين يملك من المال أكثر مما يملكه هو. مهزلة أن ترى هذا النوع من الزنوج يفرشون المناديل الكبيرة على ركبهم ويطلبون لحم السُّمّان والحلزون المطبوخ على نار هادئة وكأن الزنوج يحبون الحلزون. هذا التصرف إن دل على شيء فهو يدل على أن هؤلاء الزنوج يريدون إثبات أنهم اندمجوا فعلاً إلى درجة أنهم أصبحوا مستعدين للزواج المختلط الذي يقول عنه بيض الجنوب إنه الطريق الوحيد نحو الإندماج. وأنا إن كنت أتفق معهم، إلا أنني أتساءل عن وجه الفائدة من الزواج المختلط في عالم يقوم على العداء المتبادل. إن مثل هذا الزواج لن يقابل إلا بالنفور من الأوساط السوداء قبل البيضاء وبالرفض، ولن يكون إلا نغمة نشازاً في كلا الوسطين. إن الإندماج بمعناه الإجتماعي لا يناسب أحداً لأنه سيقضي على الجنسين قضاء مبرماً.

لقد اندمج الرجل الأسود في أمريكا مع المرأة البيضاء فأفضى ذلك إلى تغير لونه وسماته. وقد قيل لي إن ما يتراوح بين مليونين وخمسة ملايين من البيض المتحدرين من أصل زنجي يعيشون في الوسط الأبيض على أنهم بيض. هل تتصور ما يعيشون فيه من قلق ورعب دائمين مخافة أن يفتضح أمرهم؟ هل تتصور حالة شخص يعيش يومياً في الكذب ويسمع يومياً ما يقوله زوجه الأبيض أو زوجته البيضاء أو أبناؤه عن الزنوج؟.

لا أظن أن أحداً سمع زنوجاً يتكلمون بالمرارة التي سمعتهم أنا يتكلمون بها على البيض، إلا أن أمرّ ما سمعته كان من الزنوج الذين يعيشون مع البيض على أساس أنهم بيض ويسمعون كل ما يقال في جلساتهم عن الزنوج والذين سيكونون أفضل حليف

ومخبر لنا إذا ما حدث وقامت مجابهة بيننا وبين البيض.

هل اندمج أطفال أوروبا السمر الذين أصبحوا الآن شباباً وبدأوا يتزوجون ويؤسسون الأسر؟ إن «الإندماج» عند البيض معناه الإذابة التي سيحاربها كل من يتشبثون بتراثهم بكل ما أوتوا من قوة. أرأيت كيف طرد الإرلانديون البريطانيين؟ ولو لم يفعلوا لابتلعوهم. والكنديون المتحدرون من أصل فرنسي ألا ترى كيف يتمسكون بهويتهم؟

التاريخ يثبت أن أفظع إدماج قام به البيض هو ذاك الذي مورس على يهود ألمانيا وأضعفت به الهوية اليهودية. لقد بذل اليهود لألمانيا أكثر مما بذله لها الألمان. جاؤوها بنصف جوائز نوبل التي نالتها وحملوا لواء ثقافتها فنشروا أكبر صحفها وظهر بينهم أكبر فنانيها وشعرائها ومؤلفيها ومخرجيها المسرحيين ولكن اليهود ارتكبوا غلطة فادحة عندما قبلوا فيما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وصعود هتلر أن يذوبوا في الكيان الألماني وبدأوا يتزوجون من ألمان غير يهود وبدأ الكثيرون منهم يغيرون أسماءهم بأسماء ألمانية ويتحولون عن دينهم، أجل تحولوا عن دينهم وتخلوا عن تراثهم اليهودي الغني وقطعوا جذورهم وعطلوها وبدأوا يعتبرون أنفسهم ألمانيين فلم يشعروا إلا وهتلر يطلع لهم من الكباريهات بنظرية «سيادة الجنس الآري» ليجعل منهم كبش الفداء.

والغريب أن هؤلاء اليهود على الرغم من كل ذكائهم وعلى الرغم مما كان لهم من نفوذ في مختلف القطاعات الألمانية، وقفوا ينظرون كالمشلولين إلى مخطط اغتيالهم الذي لم يظهر على كل حال بين يوم وليلة. كانت عملية غسل الدماغ التي تعرضوا لها تامة بحيث كانوا وهم داخل غرف الغاز يرددون أنهم لا يصدقون ما يحدث ولو تم لهتلر غزو العالم لما ترك على وجه الأرض يهودياً واحداً. لن ينسى اليهود هذا الدرس أو يتوانوا عن تتبع التنظيمات النازية التي تظهر للوجود.

وما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى أنهت لجنة هاكانا مفاوضاتها الطويلة مع البريطانيين الذين بدأت عصابة ستيرن تغتالهم، ثم أذعنت بريطانيا وقبلت أن تساعد اليهود على اغتصاب فلسطين من العرب فأقيمت إسرائيل لتكون أرضاً لليهود وهو الشيء الوحيد الذي تقبله اليوم كل أجناس الأرض وتنظر إليه باحترام. وكذلك فإن زنوج أمريكا مهددون بالتذويب والإضعاف باسم الإدماج كما تبلور ذلك في المسيرة

إلى واشنطن التي أسميها المهزلة إلى واشنطن.

كانت تلك المسيرة من تدبير جمعية عمال عربات النوم في قطارات فيليب راندولف بعدما راجت فكرتها بين الزنوج عشرين عاماً. وشارك فيها عندما انطلقت زنوج الجنوب بثياب العمل الزرقاء وزنوج المدن الصغرى وأحياء الشمال الزنجية وآلاف الزنوج من فصيلة العم طوم فتحقق بذلك الإلتحام الزنجي لأول مرة منذ عهد جو لويس.

كانوا عازمين على الذهاب إلى واشنطن بأية وسيلة، بالسيارات البالية والحافلات واستيقاف سيارات الطرق العامة بل وحتى على الأقدام إن دعا الأمر. كانت المسيرة في تصورهم عبارة عن تمدد في الشوارع ومدرجات المطارات وحشيش الدولة لمطالبة الكونغريس والبيت الأبيض بمنحهم بعض الحقوق المدنية الملموسة. كانت تعبيراً عن المرارة السوداء على الصعيد الوطني وعن الرغبة في النضال وكانت بلا زعامة أو تنظيم لأنها كانت مبادرة من شباب زنجي ملَّ من تسلط الرجل الأبيض. وفزع البيض منها لأن أبسط انفعال والحالة تلك كان من شأنه أن يشعل الفتيل ويحول المسيرة إلى انتفاضة سوداء. وكانت السلطة تعرف أن تجمعاً أسود من ذلك القبيل في واشنطن من شأنه أن يفضي إلى الإضطراب إن لم نقل الإنفجار.

وهكذا سارع البيت الأبيض إلى دعوة أهم زعماء حركة الحقوق المدنية وطلب منهم إيقاف المسيرة فقالوا له إنهم لم يبدأوها وأن ليست لهم أية سلطة عليها، وهي الحقيقة لأنها كانت قد نبعت كما سبق القول من فكرة وطنية عفوية سوداء ولأنها كانت من دون زعامة ولا تنظيم.

وأعطت تلك المسيرة للسود درساً جوهرياً في كيف يفضي الإدماج إلى الإضعاف. بدأت أبواق الإعلام الدولي تردد أن البيت الأبيض «يبارك» المسيرة و«يعضدها» و«يرحب» بها وبدأ زعماء حركة الحقوق المدنية يتعاركون على التبرعات فاكتشفت ذلك جريدة نيويورك تايمز ونشرته. وكانت الجمعية الوطنية لتقدم الملونين تشتكي من حصول وكالات سوداء أخرى على أكبر قدر من التبرعات بسبب إعطاء مظاهراتها أكبر قدر من التغطية الإعلامية.

كانت الأحداث تمر كشريط سينمائي. وتلا ذلك لقاء «زعماء» حركة الحقوق المدنية المعروفين بـ«الستة الكبار» في نيويورك مع رئيس وكالة خيرية كبرى بعدما قيل

لهم إن نزاعهم على التبرعات يضر بسمعتهم. وتكون على الفور مجلس موحد ضم زعماء الحقوق المدنية الستة وأعطته مساعدة مالية قدرها ٨٠٠ ٠٠٠ دولار فقامت بذلك الوحدة السوداء على المال الأبيض المعلق بالمشورة. وليس هذا وحسب بل وعد المجلس بـ ٨٠٠ ٠٠٠ دولار أخرى تسلم له بعد المسيرة أي بشرط أن تنتهي في هدوء.

وهكذا تغيرت روح المسيرة ونصّب الإعلام العالمي الضخم «الستة الكبار» زعماء لها فكان ذلك مفاجأة للقاعدة السوداء التي كانت ما تزال تبث فيها الحماس ولعلها توسمت أن هؤلاء «الزعماء» ينوون الإنضمام إليها. ثم طلب من أربع شخصيات بيضاء المشاركة في الهيأة المُسَيِّرَة وهم كاثوليكي ويهودي وبروتستانتي ومنتدب منظمة عمالية وبدأ الإعلام الضخم يوعز بأن «العشرة» يمسكون بزمام المسيرة.

وبدأ «الأربعة» الجدد يهزون رؤوسهم بالموافقة على كل ما يملى عليهم ودفع انضمامهم إلى «الزعماء» بأتباعهم إلى المشاركة في المسيرة بعدما أصبح ذلك سلوكاً ديموقراطياً. وعندما رأى مجانين الإندماج من الزنوج البرجوازيون بطبقتيهم «المتوسطة» و«العليا» أن البيض يشاركون في المسيرة انتبهوا بغتة كأنما تحت فعل تيار كهربائي وبدأوا يتعثرون في بعضهم ويكادون يدوسون بؤساء الزنوج في طريقهم إلى مراكز التسجيل للمشاركة في المسيرة التي كانوا قد شجبوها. وهكذا تحولت المسيرة الغاضبة إلى حدث اجتماعي راقٍ من قبيل سباق خيل كانتاكي وما زال هؤلاء البرجوازيون السود إلى يومنا هذا يسألون بعضهم البعض: «هل شاركت فيها؟».

كانت المسيرة قد أصبحت نزهة، تناول طعام في الهواء الطلق ولم تعد سيارات زنوج المدن الصغرى الغاضبين، المغبرين والمبتلين بالعرق تظهر أمام الطائرات النفاثة المستأجرة والقاطرات والحافلات المكيفة التي حولت المسيرة الغاضبة إلى ما أسمته جريدة إنجليزية بحق بـ«الطوفان اللطيف».

كان إندماجاً من قبيل إندماج الملح والفلفل الأسود وكان كل شيء قد أصبح منظماً ومبرمجاً من توزيع الطعام إلى توزيع الشعارات التي قيل للناس ألا يحضروها إلى النشيد الذي قيل لهم أن ينشدوه إلى وسائل النقل إلى مواعيد الإنطلاق والوصول إلى الطريق الذي يجب سلوكه حتى أوشك التنظيم أن يحدد الأماكن التي يجب أن يغمى على الناس فيها.

أجل كنت هناك وشاهدت المهزلة. من سمع بثوار غاضبين يشبكون أذرعهم في أذرع العدو ويدبون وهم ينشدون ويتمايلون: «سنتغلب... في يوم من الأيام»؟.

من سمع قبل اليوم بثوار يجلسون جنباً لجنب مع أعدائهم على حافة أحواض النباتات المائية وهم يضربون صفحتها بأقدامهم الحافية على عزف القيثارات وتلاوة الأناجيل وخطب «عندي حلم»؟ وها هي الجماهير السوداء في أمريكا ما تزال تعيش في الكابوس.

وطبق «الثوار الغاضبون» بالحرف التعليمات الصادرة إليهم فرحلوا مبكراً ولم يبق منهم إلا عدد قليل حتى أن جمعية الفنادق بواشنطن أعلنت في اليوم التالي أنها تكبدت خسائر فادحة.

كانت التمثيلية محبوكة. وفي استطلاع للرأي تلا ذلك لم يقل أحد من أعضاء الكونغريس المعارضين للحقوق المدنية إنه غير رأيه. وهل كان أحد ينتظر غير ذلك أو يتصور أن فسحة إدماج ليوم واحد ستحمل أعضاء الكونغريس على تغيير أفكارهم المسبقة المتجذرة في أعماق نفوسهم البيضاء منذ ٤٠٠ عام؟

إن تصديق ملايين البيض والسود لهذه المهزلة الكبرى مثال آخر على ميل هذه البلاد إلى التلميع الخارجي والخدع وعلاج ظواهر الأمراض دون جذورها. وهكذا لم تنجح تلك المسيرة إلى واشنطن إلا في هدهدة الزنوج لبعض الوقت ثم أدركوا أنهم ذهبوا مرة أخرى ضحية خداع الرجل الأبيض فعاد الغضب أقوى مما كان وظهر في أزمات صيف ١٩٦٠ الطويل والحار والتي لم يسبق لها مثيل.

وقبل المهزلة إلى واشنطن بحوالي شهر أجرت جريدة نيويورك تايمز استطلاعاً للرأي في الجامعات تبين منه أنني ثاني شخصية مطلوبة لمخاطبة الجماهير الجامعية بعد السيناتور باري غولد ووتر. وأعتقد أن كتاب الدكتور لينكولن «المسلمون السود في أمريكا» كان له دور في ذلك لأنه كان قد أصبح مقرراً في العديد من الدروس الجامعية وكذلك استجواب كانت مجلة بلاي بوي التي تعد أكثر المجلات انتشاراً في الجامعات قد أجرته معي فكان الطلبة يريدون أن يسمعوا شخصياً هذا المسلم الأسود الشرس.

وكنت حتى ذلك الوقت قد خطبت في ما لا يقل عن خمسين جامعة مثل براون

و ـارفارد وييل وكولومبيا وراتغارز وفي مجموعة جامعات الشمال الشرقي وغيرها. وما
ز ـت هناك استدعاءات من جهات أخرى تنتظر أن يتم التنسيق بين ظروفي وبرامجها.
و ي ما يخص الجامعات الزنجية خطبت في جامعة أطلانطا وكلية كلارك بأطلانطا
و جامعة هووارد بواشنطن وغيرها من الجامعات الصغرى. وكان الجمهور الجامعي
أ ـب جمهور إلى نفسي باستثناء الجمهور الأسود. كانت الجلسة تستغرق من ساعتين
إ ـ أربع ساعات وتعدى الوقت المحدد لها أحياناً وكانت التحديات فيها والأسئلة
و لإنتقادات تأتيني من عقول منطقية، موضوعية في الجملة وحية دائماً عقول طلاب
ا ـلك الثاني والثالث وأساتذتهم. وكنت أتعلم في تلك الجلسات وأكتشف
ا ـتراتيجيات جديدة لتقديم تعاليم السيد محمد والدفاع عنها. كنت أجابه خمسة وستة
ـلبة وعلماء هم رؤساء شعب علم الإجتماع وعلم النفس والفلسفة والتاريخ والدين
ـكان كل واحد منهم يخاطبني في نطاق تخصصه أمام جمهور غفير.

وكنت أفتتح كلامي بقولي: «أيها السادة، لقد أنهيت السنة الثالثة من التعليم
ـانوي في مايسون، ميشيغان وتعليمي الثانوي في حي روكسبوري الزنجي
ـاساشوسيت وتعليمي الجامعي في شوارع هارليم وحصلت على الماجيستير في
ـسجن. لقد علمني السيد محمد ألا أخشى أي عقل يحاول أن يدافع عن سجلات
ـجل الأبيض الإجرامية في حق غير البيض أو أن يبررها وأخص منها بالذكر جرائم
ـمريكيين البيض على الأمريكيين السود». كنت كأنني أخوض حرباً برصاص فكري
ـلسفي وكنت أتجاوب مع الجمهور إلى حد أنني كنت أدرك مزاجه وأجس نبضه. لقد
ـرت ذلك مع خطباء آخرين ووجدتهم يتفقون معي في كون كسب الجماهير موهبة
ـطرية تجعل الخطيب ينفذ إلى النفوس كالرادار وأعتقد أنني كنت قادراً على معرفة لون
ـجمهور في خمس دقائق وأنا معصوب العينين. ذلك أن هناك فرقاً بين الجماهير
ـسوداء والبيضاء فالأولى أكثر دفئاً وتجاوباً، يشعر المرء حتى في صمتها بإيقاع يكاد
ـكون موسيقياً. كما أنني كنت أعرف من السؤال انتساب السائل العرقي لا سيما إذا
ـان يهودياً أو زنجياً برجوازياً «مندمجاً» ذلك أن سؤال اليهودي ذاتي دائماً. اليهودي
ـفرط في الحساسية حتى أنك لا تستطيع أن تنطق بمجرد كلمة «يهودي» دون أن
ـهمك بمعاداة السامية. وسواء كان طبيباً أو تاجراً أو ربة بيت أو طالباً أو أي شيء
ـنه يفكر أولاً وقبل كل شيء من موقعه كيهودي.

أنا أفهم أنه تعرض منذ ألفي سنة للضيم بسبب شخصه ودينه، ضيم يعادل ما

تعرض له غير البيض على يد البيض، ولكنني أعرف أيضاً أن يهود أمريكا البالغ عددهم خمسة ملايين ونصف المليون والذين يعيش مليونان منهم في نيويورك، يلائمهم ما يلاقيه السود الأمريكيون من تعصب وكراهية لأنه يحول النار عنهم. إن لليهود تجارات كبرى في الأحياء الزنجية يعودون منها كل ليلة إلى بيوتهم الواقعة خارج الحي الزنجي بأموال تستنزف الحي الزنجي وتبقيه في الفقر.

وكنت كلما نطقت بهذه الحقيقة أجد اليهود ينتصبون ليتهموني بمعاداة السامية، ولعلني قلت لهم خمس مائة مرة على الأقل إن اليهود لم يكونوا ليقفوا ويتفرجوا لو أن أقلية أخرى عمدت إلى استنزاف مصادر طائفتهم بتواتر وإن قول الحقيقة لا يعني أنني معادٍ للسامية، ولكنه يعني أنني معادٍ للإستغلال.

إنني، وهذا أمر قد لا يصدقه الليبراليون البيض، لم أسمع أبداً في الجماهير السوداء من يدافع عن البيض حتى ظهرت البرجوازية السوداء نصيرة «الإندماج» وإن كان كل الزنوج يعترفون إلى الآن فيما بينهم بالتاريخ الإجرامي الأبيض. قد لا يعرفونه كما أعرفه بالتفصيل ولكنهم يعرفون خطوطه العريضة. على أن البرجوازي الأسود يغير سلوكه في التجمعات المختلطة لأنه يعرف أن مستر شارلي يسمعه. ليتك سمعت ذلك النوع من الزنوج وهم يهاجمونني ويحاولون تبرير أعمال البيض والصفح عنها. كانوا يدفعون بي إلى الإخلال بالتزام قطعته على نفسي بعدم الإهتياج والشعور بالرغبة في الإنقضاض عليهم من مكاني في المنصة. مغسولو الأدمغة هؤلاء! ألعوبة الرجل الأبيض وبيغاواته ودماه! ومع الأيام أعددت لهم جوابهم وبدأت أقول: «لعلك طالب في الحقوق؟» فيقولون نعم أو لا وأقول: «عرفت ذلك» أو «حسبت ذلك» لأنك تدافع عن الرجل الأبيض أكثر مما يدافع هو عن نفسه المجرمة.

ولن أنسى أحد هؤلاء وهو أستاذ جامعي يحمل شهادة الدكتوراه. بدلاً من أن يستعمل عقله في ما ينفع أبناء جنسه، كان ساقطاً بين زملائه البيض في تلك القاعة كذبابة في اللبن، وبدأ ينهشني ويلغط بقول إنني «ديماغوجي مفرق» و«عنصري مضاد» فأعملت فكري جيداً ورفعت يدي فتوقف وقلت له: «هل تعرف كيف يسمي البيض أمثالك من الدكاترة السود؟» وقال شيئاً أحسبه: «أظن أنني لا أعرف» بطريق بعض الزنوج في انتقاء كلامهم فرميتها في وجهه: «ا ل ز ن ج ي!».

كنت أقدم للسيد محمد تقارير عن خطبي في الجامعات التي كان لها مردود كبير

على أمة الإسلام لا سيما وأنها المدرسة التي تكونت فيها الأدمغة الشيطانية، ولكنه لم يكن يريدني أن أخطب هناك لسبب فهمته فيما بعد عندما قال لي أحد أبنائه إنه يغبطني لأنه يشعر بأنه غير مؤهل لأن يفعل ذلك بنفسه.

كنت أجد الجماهير الجامعية جادة وذكية ومتفتحة على الحقائق الفجة والعارية إلى حد مذهل فكنت أقول لها: «لقد أيقنت الأجناس السوداء والسمراء والحمراء والصفراء أنها عانت من كون الرجل الأبيض غير قادر على فهم خلجات الروح، ولعله أصم عن كل لحن تعزفه الإنسانية. إنه لا يستطيع أن يرى إلا العالم الذي أنشأه ولا يزيد إلا إغراقاً في الموبقات والظلمات، إن غضب الله لن يلبث أن يحل به وإنه لم يبق هناك من الدول البيضاء العظمى إلا الإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة اللذان يملكان صواريخ رهيبة. إن أمريكا تعمد الآن إلى دعم ما تبقى من دول بيضاء، على أن فرنسا وبلجيكا وهولاندا والبرتغال وإسبانيا وغيرها آلت إلى الضعف بعدما استرجعت البلاد غير البيضاء استقلالها.

وها هي أمريكا تجمع ما تبقى من اعتبار بريطانيا ذات البأس البائد بعدما غربت عنها الشمس إلى الأبد، وعن صورة الإستعماري البريطاني بالخوذة ونظارة العين الواحدة وهو جالس يحتسي الشاي مع زوجته الناعمة في مستعمرات غير بيضاء تبتز بلاده كل ما لديها من موارد. نعم ما يزال هناك في بريطانيا ملكية ونبلاء يعيشان مما يدفعه السياح للتفرج على قصور البارونات ومن بيع المذكرات والعطور والأتوغرافات والألقاب وأنفسهم.

الرجل الأبيض غير قادر على خوض حرب أخرى، وهذا شيء يعرفه الجميع ولو أن أحد العظميين ضغط على الزر لأصبحت الحضارة البيضاء في خبر كان. إننا ندرك مرة أخرى أن ما يجمع الناس هو العرق واللون وليس الإديولوجيات، وليس من باب الصدفة أن تتقرب أمريكا من روسيا كلما زار صينيون بلاداً إفريقية وآسيوية، وإن كان التاريخ الجماعي الأبيض يلزم الشعوب غير البيضاء بالتقارب. إن الشيطان الأبيض يريد اليوم أن يشتري أصدقاء من بين غير البيض للتغطية على ماضيه، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من عجرفته أو أن يتواضع فيعترف بآثامه ويكفر عنها بعدما حرف رسالة النبي عيسى القائمة على الحب على بساطتها.

كانت الجماهير تدهش عندما تجدني أتكلم على عيسى، فكنت أشرح أننا نحن

المسلمين نؤمن بالنبي عيسى ونعتبره أحد أهم ثلاثة أنبياء إلى جانب محمد وموسى. إنه يوجد في القدس مقدسات إسلامية رفعت تكريماً للنبي عيسى، ولكننا نؤمن من جهة أخرى أن المسيحية لم تلتزم برسالته. وكنت أستشهد بقول بيلي غراهام في إفريقيا عندما حوصر بالحجة فقال إنه يؤمن بالمسيح لا بالمسيحية.

ولن أنسى طالبة شقراء صغيرة لحقت بي إلى نيويورك مباشرة بعدما خطبت في كلية نيوإنغلاند. جاءتني إلى المطعم الإسلامي بهارليم ووجدتني فيه بالصدفة. كان كل ما فيها ينطق بأنها من أقصى الجنوب ويفضح أمواله وطابعه، لباسها وشكلها ولهجتها.

وكنت قد شرحت في كليتها أن السيد قبل الحرب الأهلية كان يحتال حتى على زوجته البيضاء فيقنعها بأنها أطهر من أن تنحط معه في غرائزه الحيوانية فيبعدها «بنبل» ليختلي بالمرأة «الحيوانية» السوداء ما جعل المرأة الناعمة البيضاء تنظر إلى أبيها وزوجها وإخوتها وأبنائها وهم يعمرون المزرعة بالسلالة المختلطة. وقلت إن ذنب الأمريكيين البيض يشمل معرفتهم بكونهم عندما يكرهون الزنوج يكرهون ويرفضون وينكرون لحمهم ودمهم.

المهم أن تلك الطالبة كانت متأثرة جداً وأنها قالت لي بمجرد ما رأتني: «ألا تعتقد أن هناك بيضا طيبين؟» ولم أشأ أن أجرح شعورها فقلت لها: «إنني يا آنستي أحكم على الناس من أفعالهم لا من أقوالهم» وقالت: «ماذا يمكنني أن أفعل؟» قلت: «لا شيء» فانفجرت باكية وهرولت خارجاً إلى شارع لينوكس حيث أوقفت سيارة أجرة.

كان السيد محمد كلما زرته في شيكاغو أو فينيكس يعبر لي عن رضاه وثقته، وعندما قام بالعمرة تركني على رأس أمة الإسلام، كنت أؤمن به إلى حد أنني كنت مستعداً لأن أضع نفسي بينه وبين الموت ولكن حادثة غير مرتقبة جاءت لتزعزع ذلك التبجيل وتقنعني بأن هناك ما هو أهم وتكشف لي فظاعة موقفي من السيد محمد.

كنت في كلية الحقوق بجامعة هارفارد حيث كنت مدعواً لإلقاء محاضرة ونظرت بالصدفة من النافذة وإذا بي أطل على الناحية التي تقع فيها العمارة التي توجد بها الشقة التي كنت أخفي فيها مسروقات عصابتي. واعترتني هزة عنيفة وشعور مصطخب وعادت صور الأيام التي كنت أعيش وأفكر فيها كالحيوان، وقلت في نفسي: ما أعمق ما امتدت إليّ يد الإسلام لترفعني! ولولاها لكنت الآن وأنا في السابعة والثلاثين من

عمري ميتاً أو سجيناً ممتلئاً قسوة ومرارة أو مجنوناً في أحد مستشفيات الأمراض العقلية أو في أفضل الأحوال «أحمر دترويت» ذابل، يهرب ويسرق ما يكفي لأكله ومخدراته تحت رحمة مهربين قساة أصغر سناً من نوع ما كنته عندما كنت أعرف بأحمر دترويت، ولكن الله منَّ عليَّ فهداني إلى الإسلام وساعدني الإسلام على الإرتفاع بنفسي من أوساخ هذا العالم المتعفن وأوحاله لأقف في هارفارد خطيباً! وذكرت قصة قرأتها في السجن عندما كنت مغرقاً في قراءة الأساطير الإغريقية، قصة الصبي إيكاروس. هل تذكرها؟ لقد صنع له أبوه جناحين ألصق ريشهما بالشمع الخام وقال له: «إياك أن تحلق بهما عالياً». وبدأ إيكاروس يطير وتمادى به الطيران فحسب أنه مسيطر على الوضع وارتفع في الفضاء وظل يرتفع حتى ذاب الشمع في حرارة الشمس فهوى.

وهناك، أمام تلك النافذة عاهدت الله على ألا أنسى أن الإسلام هو الذي أعطاني الأجنحة التي أحلق بها ولم أنس ذلك أبداً. . . لم أنسه لحظة واحدة.

الفصل السادس عشر

الطرد

في ١٩٦١ تدهورت حالة السيد محمد الصحية فجأة وبدأت تصيبه نوبات سعال كلما تكلم وتشتد عليه حتى يرتعد جسده الخرب في ألم فظيع ثم لزم الفراش.

وأبقينا الأمر سراً بيننا وبين أعضاء أسرته إلى أن علم به بعض الإخوة ثم بدأت التجمعات الكبرى المقررة منذ مدة طويلة تلغى في آخر لحظة فشعر المسلمون بالخطر وأصبحنا ملزمين بالرد على الأسئلة فانكشف الخبر وشاع في أمة الإسلام بسرعة.

كنا نقدر الخسارة التي سيسببها غياب السيد محمد الذي كان يجسد لنا أمة الإسلام التي جمعتنا تحت لوائها في أحسن تنظيم عرفه السود في أمريكا بدافع تفانينا في شخصه ونظرتنا إليه كمصلح خلقي وفكري وروحي في أمريكا السوداء. أقول أمريكا السوداء لأننا كنا نعتبر أنفسنا إذ نسير على نهج السيد محمد قدوة خلقية وفكرية وروحية لكل السود في أمريكا الذين كانوا يتكلمون باحترام على إبعاد المسلمين من أمة الإسلام، إذا ثبت أنهم كذبوا أو قامروا أو غشوا أو دخنوا السجائر، لأن السيد محمد كان يحكم على مرتكبي الموبقات كالزنى بالعزل مدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات وأحياناً بالطرد البات، وكان أكثر صرامة مع أعوانه، لأن ذنب الرسميين كما كان يقول ذنب مُركَّب لأنهم يضرون بأنفسهم وبمسؤوليتهم كزعماء يقتدى بهم، وكان يضرب لنا المثل بحسن سلوكه، فكان لنا منارة هدى نشعر أننا بدونها سنتيه في الظلام. وكان الأطباء قد أشاروا عليه بالمناخ الجاف وكنا قد عثرنا في فينيكس كما سبق القول على بيت عازف السكسوفون لويس جوردن فاشتريناه له.

كنت أخدم أمة الإسلام بجهد مضاعف وكانت تعطاني كل الإمتيازات التي أطلبها. وكنت قد ساهمت في تقدم أمة الإسلام وتشييد سمعتها على الصعيد الوطني، حتى لم يعد بإمكان أحد أن يتهمنا بالكذب إذا ما قلنا إن السيد محمد هو الرجل

الأسود الأكثر نفوذاً في أمريكا. وكنت قد ساعدت السيد محمد وباقي رجال الدين العاملين معه في إحداث ثورة في تفكير الأمريكيين السود وفتح أعينهم بصفة جذرية يستحيل أو ينظروا بعدها إلى الرجل الأبيض بتبجيل ورهبة، وساهمت في نشر حقائق ساعدت الإنسان الأسود على التخلص من أسطورة الجنس الأبيض المتكون من رجال فوق العادة وفي تثبيت شيء ما في الروح السوداء.

وإذا كان لي من خيبة أمل مكتومة فهي اقتناعي بأننا كنا نستطيع أن نتحرك أكثر ونجعل أمة إسلامنا أقوى وأكمل في نطاق صراع الإنسان الأسود في أمريكا، أي أنني كنت أعتقد في سري أنه كان علينا أن نعدل أو أن نخفف سياسة عدم الإلتزام التي كنا ننهجها. كنت أعتقد أنه كان على المسلمين المناضلين والمُؤَطِّرين أن يهرعوا إلى كل مكان يظهر فيه تحرك أسود لصالح القضية، من نوع ما حدث في ليتل روكس وبرمنغهام وغيرهما، حتى يرى العالم ويسمع.

وكان قد بدأ يقال في الأحياء الزنجية: «إن هؤلاء المسلمين لا تسمع أصواتهم إلا إذا تعلق الأمر بإخوانهم في الإسلام» وكنت على اتصال بغير المسلمين أكثر من غيري في أمة الإسلام، فشعرت أن ذلك الكلام، باعتبار المزاج الأسود المتقلب، سينتهي بنا في يوم من الأيام إلى فقدان مكانتنا في جبهة الصراع الأمامية، وفيما عدا ذلك كان الله يبارك جهودي إذ كانت نيويورك المدينة التي يضرب فيها انتشار الإسلام الرقم القياسي، وكان المسجد الصغير الذي كان السيد محمد قد بعثني إليه قد أصبح ثلاثة من أقوى مساجد أمة الإسلام وأكثرها جرأة:

١) مسجد هارليم ٧ ـ أ في منهاتن.
٢) مسجد كورونا ٧ ـ ب في كوينز.
٣) مسجد ٧ ـ ج في بروكلين.

وكنت قد أنشأت أو ساهمت في إنشاء أكثر مساجد أمة الإسلام المائة المنتشرة في التراب الأمريكي وعبرت أمريكا أربع مرات في الأسبوع أحياناً ونمت في الطائرات النفاثة وعشت في مراطونات مع الصحافة والإذاعات وشبكات التلفزيون والجماهير، ولم أكن لأفعل ذلك كله لولا الأجنحة التي كان السيد محمد قد ركبها لي.

وفي ١٩٦١ عندما ساءت أحوال السيد محمد الصحية بدأ يصلني ما يشاع عني، وبدأت أسمع إيماءات مغلفة وأرى ما يثبت الحسد والغيرة اللذين تنبأ لي بهما السيد

محمد مثل: «إن ملكون يريد أن يستحوذ على أمة الإسلام»، «إنه يستغل تعليمات السيد محمد لصنع مجده الخاص»، «إنه يحب النجومية». ولم يغضبني ذلك بقدر ما جعلني أحرص على ألا أجعل شيئاً منه ينطبق علي. كنت أعرف أن السيد محمد نفسه تنبأ لي بالحسد والغيرة وأنه سيفهم إذا ما بلغه ذلك فلم أهتم به.

وكان غير المسلمين من جهة أخرى يتهمونني ببناء ثروة كبيرة، ولكن المسلمين كانوا يعرفون الحقيقة. أنا أبني ثروة كبيرة؟ لم يكن البوليس الفدرالي ووكالة المخابرات الأمريكية ومصلحة الضرائب مجتمعة بقادرة على إيجاد شيء في اسمي باستثناء السيارة التي أتنقل فيها والبيت الذي أسكنه والذي تحاول أمة الإسلام الآن بكل ما يحركها من غيرة وبخل أن تخرجني منه.

نعم كنت أتصرف في المال وكان إلايجا محمد يأذن لي بأخذ ما أطلبه، ولكنه كان يعرف كأي مسؤول مسلم آخر أنني لم أكن أستعمل أي فلس آخذه إلا فيما يساعد أمة الإسلام على التقدم.

وكان موقفي من المال سبب الشجار الوحيد الذي نشب بيني وبين زوجتي المحبوبة بيتي التي كانت مع ازدياد عدد بناتنا، قد ازدادت تلميحاً إلى ضرورة توفير بعض المال، وكنت أرفض فانتهى بنا الأمر إلى الشجار أوشك أن ينتهي بنا إلى الفراق، ولكنني لم أتزعزع عن موقفي. كنت أعرف أنها مستعدة لفدائي بنفسها فقلت لها إن أكثر من منظمة قد خربت لأن زعماءها حاولوا تحت تأثير زوجاتهم أغلب الأحيان أن يستغلوها لمصلحتهم الخاصة، ثم أقنعتها بأن أمة الإسلام ستتكفل بها حتى تموت وبالبنات حتى يكبرن إذا حدث لي مكروه، وكنت أكبر مغفل إذ اعتقدت ذلك.

كنت لا أنفك أوضح في كل استجواباتي الصحافية أنني أمثل السيد محمد وأقول على رأس كل دقيقة تقريباً: «يقول السيد محمد المحترم...» وأرفض الإجابة عن كل من يسخر من ذكري المستمر لاسمه، وأستشيط غضباً كلما قرأت أو سمعت من يسميني بالرجل الثاني في جماعة المسلمين السود وأهتف لصحافيين في مدن بعيدة طالباً منهم ألا يعودوا إلى استعمال تلك العبارة أبداً موضحاً لهم أن كل المسلمين رجل ثانٍ بعد السيد محمد».

كنت أُبقي حقيبتي مكتظة بصور السيد محمد لأوزعها على الصحافيين الذين يأخذون صوري، ثم أطلب رؤساءهم وأقول لهم: «أرجوك استعمل صورة السيد محمد

عوض صورتي». وعندما وافق السيد محمد على أن يستقبل الصحافيين البيض لم أعد أدلي بشيء لا للصحافة السوداء ولا للصحافة البيضاء قبل أن أحثها على زيارة السيد محمد شخصياً في شيكاغو قائلاً: «خذ الحقيقة من فم السيد محمد نفسه» فكانت في الغالب تفعل ذلك.

كان البيض والزنوج حتى المسلمين منهم يحرجونني بنسب تقدم أمة الإسلام إليَّ فكنت أقول لهم: «إن الفضل لله وللسيد محمد». وأعتقد أنه لم يكن بإمكان أي رجل في أمة الإسلام أن يصل إلى السمعة العالمية التي وصلت إليها بفضل الأجنحة التي ركبها له السيد محمد ويبقى على إخلاصه وإيثاره له كما بقيت.

وفي ١٩٦٢ بدأت ألاحظ قلة أخباري في جريدة أمتنا «محمد يتكلم». أظن أن ذلك كان في ١٩٦٢ ثم علمت أن ابن السيد محمد هيربرت الذي يشرف الآن على جريدة، أصدر الأمر بعدم نشر إلا ما قل عني. وبذلك أصبحت أخبار الزعماء الإندماجيين الزنوج في جريدتنا تفوق أخباري، وأصبحت أقرأ عني في الصحف الأوروبية والآسيوية والإفريقية أكثر مما أقرأه في تلك الجريدة.

أنا لا ألهث وراء الدعاية الشخصية، فلقد نلت منها ما لم تنله شخصيات دولية، ولكن ضايقني أن تخفي جريدة المسلمين أخباراً هامة تمسهم من قريب لمجرد أنها ترتبط باسمي. ودفع بي ذلك مع ما ينم عنه من غيرة وقصر نظر، إلى إيقاف تجمعات كبرى خاصة وأن الأمر كان قد صدر للجريدة بمقاطعتي نهائياً. وكنت قد خطبت في ١٨٠٠٠ طالب في جامعة كاليفورنيا فغطت صحافة تلك الولاية ما قلته عن برنامج السيد محمد وقوته، ولكنني عندما وصلت إلى شيكاغو وأنا أترقب أن أقابل بالشكر وبعض التغطية قوبلت ببرودة تامة. وكررت تنظيم تجمع في هارليم حضره ٧٠٠٠ شخص فتكرر سلوك قيادة شيكاغو وكانت تثنيني عن تنظيم مثل تلك التجمعات، ولكنني عمدت بعد أسبوع إلى تنظيم تجمع آخر في هارليم أكبر من سابقه وأنجح فازدادت القيادة حسداً على حسد.

سأقول كل شيء كما حدث بقدر ما تسمح لي به قدرتي البشرية. أنا لا أحاول أن أفرغ على نفسي صفتي الحق والنبل، وإنما أحاول أن أقول الحقيقة. لقد كنت أحب أمة الإسلام والسيد محمد وأعيش لهما فأثار ذلك أحقاد باقي المسؤولين علي، لأنه كان يؤدي إلى ظهور صورتي باستمرار في الصحافة اليومية. ولم يكونوا ليدركوا

أن ذلك إنما جاء نتيجة حماستي للسيد محمد أو يستطيعون أن يفهموا أننا في غنى عن تضييع وقتنا في تكذيب الإشاعات. لم يكونوا ليدركوا أن السيد محمد لا يمكنه أن يعبر البلاد من أقصاها إلى أقصاها كناطق رسمي باسم نفسه وأن الشخص الذي كلفه بتلك المهمة لم يكن بمقدوره أن يرد عنه الأضواء.

كنت أخجل من نفسي كلما وجدت فيها شعوراً بالإمتعاض وكنت أعتبره مؤشر ضعف لأنني كنت أعرف أن السيد محمد يعرف أنني وقفت حياتي على تمثيله، ولكنني في ١٩٦٣ لم أستطع أن أمنع نفسي من الحساسية المفرطة عندما وصلتني انتقادات مسؤولين كبار في أمة الإسلام لي، فتوقفت عن تزويد بعض الإخوة بالمال وإرسالهم في مهمات تأسيس مساجد جديدة في مدن أخرى. وكانت تلك الإنتقادات تأتي ضمنياً في تسمية أولئك الإخوة استخفافاً بـ«رجال دين ملكوم».

وفي الوقت الذي كنا فيه في أمس الحاجة إلى إيصال صوتنا إلى الجماهير الواسعة، رفضتُ طلب مقابلات شخصية تقدمت لي بها مجلة لايف ونيوزويك وبرنامج «قابل الصحافة» التلفزيوني الشهير، مع ما في ذلك من خسارة للإنسان الأسود عامة ولأمة الإسلام خاصة، كل ذلك بسبب موقف قيادة شيكاغو التي زاد في غيرتها أنني طلبت شخصياً لهذه المقابلات.

وعندما اغتيل مدغر إيفرز الكاتب العام للجمعية الوطنية لتقدم الملونين في ولاية مسيسيبي سكتُّ عن الحقائق التي كان يجب أن تقال. وعندما تفجرت قنبلة في كنيسة زنجية ببرمنغهام، ألباما وأُطفئت حياة أولئك الفتيات السوداوات الجميلات الأربع، لم أتكلم بالصراحة المطلوبة على جو الكراهية التي يشيعها ويغذيها الرجل الأمريكي الأبيض. لم أقل إن السماح للكراهية بالظهور حينما تكون هناك طرق لكبحها يجعلها تعبر عن نفسها بجرأة متزايدة إلى أن تصل إلى الجنس الأبيض نفسه بما فيه زعماؤه (وكان نائب رئيس الولايات المتحدة ليندن جونسون قد سُب سباً دنيئاً في دلاس، تكساس وكانت شرطية بيضاء قد بصقت على ألداي ستيفنس السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة وضربته على رأسه).

كان السيد محمد عندما عينني في ١٩٦٣ أول رجل دين في أمة الإسلام بفلادلفيا قد قال وهو يعانقني: «هذا أخلص وأنشط رجل دين تابع لي وسيبقى مخلصاً لي حتى آخر يوم في حياته». ولم يكن قد أثنى على مسلم آخر بمثل ذلك، فاعتززت به كما لم

أعتز بشيء في حياتي، ولكنها كانت آخر مرة وقفنا فيها أمام الجمهور معاً.

وكنت قبلها في برنامج جيري ويليامز الإذاعي ببوسطن عندما جاءني شخص ببرقية وصلت لتوها على خط اليونايتد بريس تقول إن فرع لجنة المواطنين في لويزيانا يهب ١٠٠٠٠ دولار لمن يقتلني فقرأتها وأنا لا أدري أن خطر القتل في بوسطن كان أقرب إلي منه في لويزيانا. إن ما أقوله هو الحقيقة. لقد اكتشفت بذهول شديد أن هناك جهة أخرى تريد قتلي.

خلال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها كرجل دين، كنت صارماً في كل ما يتعلق بالأخلاق حتى اتهمني كثير من المسلمين بمعاداة المرأة. كنت أؤمن إيماناً راسخاً بأن إلايجا محمد يمثل للسود، في كل جوانب حياته، رمز الإصلاح الخلقي والفكري والروحي، وكنت أركز على ذلك في خطبي، وأعلن أن ما طرأ على حياتي من تغيير مثال حي في قدرة السيد محمد على إصلاح السود. لم أكن قد مسست امرأة خلال إثنتي عشرة سنة أي منذ دخولي السجن إلى يوم زفافي، بسبب تأثير السيد محمد عليَّ، ولكن في مشارف ١٩٦٣ بدأت أتحاشى الكلام على الدين. كنت أدرس للمسلمين المبادىء الإجتماعية والأحداث الراهنة والسياسة لأبقى بعيداً عن الأخلاق، لأن إيماني كان قد اهتز بشكل لا يمكنني شرحه بعدما اكتشفت أن إلايجا محمد قد خدع المسلمين. لن أقول هنا إلا ما يساعد على فهم موقفي وردود فعلي سيما وأن ذلك قد أصبح الآن معروفاً. ورغبة في الإختصار سأورد نص الخبر الذي أصدرته إحدى وكالات الأخبار كما نشرته وأذاعته وسائل الإعلام في طول البلاد وعرضها:

«لوس أنجلس ٣ يوليو، يونايتد بريس إنترناشنل. جابه اليوم إلايجا محمد البالغ من العمر ٦٧ سنة دعوتين رفعتهما عليه امرأتان كانتا تعملان سكرتيرتين عنده تتهمانه فيهما بأنه أب أولادهما الأربعة من الزنى. المرأتان اسمهما الآنسة روزاري والآنسة وليامز وكلاهما دون الثلاثين أكدتا أنهما كانتا على علاقة حميمة بإلايجا محمد من ١٩٥٧ إلى العام الحالي. وقالت الآنسة روزاري إنها حامل بطفل ثالث منه بينما أكدت المدعية الثانية أنه أب ابنتها...».

كنت قد بدأت أسمع منذ ١٩٥٥ بعض التلميحات، ولكن مجرد التفكير في أخذ أي شيء يتعلق بفساد السيد محمد بعين الإعتبار كان يملأني بالفزع، ولذلك رفضت بكل بساطة أن أسمع لفظ زنى مقروناً باسم السيد محمد، وهو الجريمة التي كنا نطرد

من يرتكبها طرداً شنيعاً. كانت مجموعة متواترة من سكرتيرات السيد محمد قد ظهرت عليهن أعراض الحمل، وكنا قد أبقينا أمرهن سراً بيننا وشكلنا محكمة حكمت عليهن بعدما اعترفن بارتكابهن الزنى بالمقاطعة مدداً تتراوح بين سنة وخمس سنوات.

هل يمكن أن يكون هناك دليل على عمق إيماني بالسيد محمد أكبر من رفضي استعمال عقلي في اتهامه بالزنى ولجوئي بكل بساطة إلى عدم تصديقه؟ كنت أخشى أن يذهب الله بعقلي كما ذهب بعقل أخي ريجينالد إن أنا أسأت الظن بالسيد محمد. وكان آخر عهدي بريجينالد يوم رأيته قادماً إلى المسجد السابع فذهبت إليه وأوقفته وحدقت إليه النظر وأنا أقول له إنه شخص غير مرغوب فيه بين المسلمين فاستدار وذهب ولم أره بعد ذلك. فعلت ذلك مع أخي لأن السيد محمد كان قد أمر المسلمين بمقاطعته منذ سنوات، وكنت أعتبر أنني مسلم قبل أن أكون أخ ريجينالد. ولم يكن بمستطاع أي كان أن يقنعني بأن السيد محمد سيخون ثقة أولئك البؤساء وتبجيلهم الذين كانوا يعطون ملاليمهم لأمة الإسلام وهم عاجزون عن دفع إيجار مساكنهم.

وفي ١٩٦٢ علمت أن عدداً كبيراً من المسلمين قد هجر مسجد شيكاغو الثاني. وكانت الفضيحة الشنيعة قد بدأت تنتشر حتى بين الزنوج غير المسلمين، فخفت أن تصل إلى الصحافيين السود أو البيض علماً مني بأنهم بالمرصاد للنيل من أمة الإسلام، حتى بدأت أعيش في كوابيس وأرى الفضيحة في عناوين الأخبار. وكنت والحالة هذه أشعر بعبء ثقيل وأنا أواصل إلقاء خطبي في كل أرجاء البلاد. لم يكن هناك صحافي واحد يقترب مني ولا يقول: «هل ما سمعناه صحيح يا سيد ملكوم؟ أن. . .» وماذا كان بإمكاني أن أقول؟

لم أكن في وقت من الأوقات قد سمحت لعقلي بمعالجة الورطة بشكل طبيعي. حتى عندما بدأت أنظر فيها كنت أفعل ذلك منطلقاً من مبدأ الرفض. وبدأ غير المسلمين في كل من نيويورك وشيكاغو يقولون لي إنهم سمعوا أو يسألونني إن كنت قد سمعت، فكنت أتظاهر بأنني أسمع الخبر لأول مرة وأرجوهم ألا يذكروه لأحد. كنت أعرف أنهم ينظرون إلي كأكبر مغفل وأشعر أنني كذلك فعلاً وأنا أواصل إلقاء خطبي في الوقت الذي كنت لا أعرف فيه على ما يبدو ما يجري أمام عيني، داخل منظمتي في شأن الرجل الذي كنت أغدق عليه الثناء. وأيقظ ذلك في نفسي أحاسيس لم أشعر بها منذ كنت خارجاً على القانون في شوارع هارليم حيث يعتبر الخداع أدهى وصمة يصاب بها الإنسان.

وذات يوم قال لي الممثل ديك غريغوري في كواليس مسرح أبولو بهارليم متعجباً: «إن محمد مجرد. . .» لا أستطيع أن أذكر اللفظ الذي استعمله والذي أثار فيَّ حميتي الإسلامية وآلمني ألماً لا يوصف. وأردت أن أضربه ولكنني شعرت بضعف وخواء، ولعله رأى ذلك على وجهي فتركني أحيد به عن الموضوع. كنت أعرف أن ديك وأصله من شيكاغو رزين رزانة أولاد الشوارع وفج العبارة وأردت أن أرجوه ألا يقول ما قاله لي لأحد، ولكنني لم أستطع لأنني لو فعلت لأكدت الإشاعة بطريقة غير مباشرة.

كنت فيما مضى كلما وجدتني أمام مشكل عويص أركب أول طائرة إلى السيد محمد. وكان السيد محمد قد رد إلي الروح وأعطاني أحسن ما أملك وجعل مني الرجل الذي أصبحته فشعرت أنه لا يمكنني أن أتخلى عنه مهما حدث. ولم يكن عندي من ألجأ إليه في مثل تلك الحالة سواه، فقر قراري آخر الأمر على أن أذهب إليه، ولكنني ذهبت بدلاً من ذلك إلى شيكاغو، وبدأت برؤية ابنه ما قبل الأخير ولاس. كنت أشعر أنه أكثر أبنائه إيماناً وموضوعية، وكانت تجمعني به معزة وثقة متبادلتان. ورآني فعرف على التو ما جاء بي وقال: «أعرف» وقلت إنني أعتقد أن علينا أن نكتل جهودنا لمساعدة والده، فقال إنه لا يشعر أن والده سيقبل أن يساعده أحد فقلت في نفسي إنه (ولاس) مجنون ولا شك.

وبعد ذلك خرقت القانون واتصلت بثلاث من سكرتيرات السيد محمد السابقات المحكوم عليهن بالمقاطعة وسمعت منهن مباشرة حكاية أبوة السيد محمد لأبنائهن، وإلى جانبها ما كان يقوله عني من أنني أعظم رجال الدين التابعين له ولكنني خطر كبير عليه لأنني سأتخلى عنه وأنقلب ضده في يوم من الأيام فآلمني بشدة أنه كان يمدحني في وجهي ويمزقني في ظهري.

وبقيت أستقبل وسائل الإعلام وأفي بالتزاماتي وأتعامل مع المسلمين في مسجدنا السابع ورأسي يدور من الإشكال حتى كدت أجن ثم توضحت لي الأمور. قلت إنني إخل بولائي للسيد محمد ولا أساعده وأنا قابع لا أفعل شيئاً وأن شخصاً ما عليه أن يتحرك، فكتبت له ذات ليلة رسالة ذكرت له فيها ما يشاع عنه فطلبني بالتلفون وقال إنه سيناقش الموضوع معي عندما يراني.

كنت أريد أن أجد مخرجاً، معبراً تقطع عليه أمة الإسلام هذه المحنة التي تهددنا

بتخريبها من الداخل، فقد كنت أؤمن بها ولم نكن جماعة زنوج مسيحيين نقفز ونصيح وكلنا آثام، ثم وجدت المعبر. فكرت أن نقول للمسلمين المخلصين إن منجزات المر، تغطي على ضعفه البشري المرتبط بحياته الشخصية. وكنت قد راجعت بمساعدة السيد محمد كلاً من القرآن والإنجيل للإستدلال بهما عند الحاجة فعدت إلى النصوص التي تظهر أن زنى النبي داوود بباتشيبا سقط من ذاكرة التاريخ لحساب قتله غولياث وأن لوطاً يرتبط في أذهاننا بإنقاذه أهله من دمار سادوم وعامورة وليس بزناه ببناته، وأن الصورة التي كوناها عن نوح هي صورة بنائه سفينته وتلقينه قومه طرق النجاة من الطوفان وليس صورة سكره ذات مرة، وأننا عندما نفكر في موسى نراه وهو يقود اليهود من العبودية وليس وهو يزني بالحبشيات... وهي أمثلة تغلب فيها الحسنات على السيئات. وبدأت أقول في خطبي بمسجد نيويورك السابع إن منجزات الإنسان تغلب على ضعفه وحسناته على سيئاته دون أن أشير إلى الزنى أو الإنحلال الخلقي.

والغريب أن الفضيحة لم يعلم بها إلا عدد قليل من المسلمين في بوسطن ودترويت ونيويورك، بينما لم يعلم بها أحد في مساجد المدن الأخرى. وعلمت أن عدد الخارجين من مسجد شيكاغو يزداد وأن المتعاطفين مع الأمة قد قلبوا لها ظهر المجن. وفي فبراير ١٩٦٣ عندما ترأست حفل التخرج في الجامعة الإسلامية وقدمت أعضاء أسرة السيد محمد شعرت ببرودة المسلمين في الجمهور.

وفي أبريل ١٩٦٣ طلبني السيد محمد من فينكس فذهبت إليه. وتعانقنا كعادتنا فأخذني إلى الحديقة رأسا وبدأ يتكلم بجانب مسبحه. كان رسول الله وكان قد أنقذني وأنا سجين على درجة من الدناءة والخسة جعلت باقي السجناء يلقبونني بالشيطان. وكان هو من علمني وعاملني معاملة الرجل لابن صلبه وزودني بإمكانات الذهاب إلى أماكن وفعل أشياء لم أكن لأحلم بها. وتمشينا وأنا في دوامة من الإنفعالات ثم قال: «ما الذي يشغل بالك يا بني؟» فرددت عليه ما يقال عنه بوضوح وصراحة ودون أن أحاول تخفيف كلامي، وقبل أن يجيبني قلت له إنني وابنه ولاس قد وجدنا في القرآن والإنجيل ما يمكننا به تبرير عمله للمسلمين إذا دعا الأمر وتقديمه لهم كشرط مكمل للنبوة فقال: «إنك لا تدهشني يا ولدي. إنك تفهم النبوة والروحانيات فهماً كاملاً. أنت تعترف أن ما حدث علامة من علامات النبوة. إنك تملك فهم الشيوخ». وزاد قائلاً: «أنا داوود

عندما أخذ داوود زوجة رجل آخر. ونوح الذي قرأت أنه سكر ذات مرة أنا، وأنا لوط الذي قرأت أنه ضاجع بناته. إنني ملزم بإنجاز كل هذه الأشياء.»

وتذكرت أن الوباء يجابه بلقاح يحمل الجراثيم التي تنقله لمساعدة الجسم على مقاومتها فاخترت ستة من المسؤولين من مساجد الساحل الشرقي وأطلعتهم على ما دار بيني وبين السيد محمد وشرحت لهم السبب الذي جعلني أفعل ذلك وهو أنني لا أريدهم أن يفاجأوا أو يصدموا إذا ما طلب منهم أن يفسروا حكاية «إكمال النبوة» في مساجدهم. كان بعضهم قد علم بالفضيحة منذ ستة أشهر مثل رجل الدين لويس إكس من بوسطن وكانوا كلهم يعانون في سرهم.

ولم يخطر ببالي أن المسؤولين في شيكاغو سيستعملون عملي ذاك ضدي ويتهمونني بمحاولة إطفاء النار بالبترول وليس بالماء كما كانت نيتي. لم يخطر ببالي أنهم سيجعلون عملي ذاك يبدو وكأنه محاولة لنشر الوباء لا للتلقيح ضده كما كانت نيتي. وهكذا هُيئت المسرحية في شيكاغو لتحويل إنتباه المسلمين إلي وجمع شمل من كان إيمانهم قد تضعضع على كراهيتي.

وبدأ زنوج غير مسلمين أعرفهم جيداً بل وحتى صحافيون بيض كنت على اتصال بهم يقولون لي كلما رأوني تقريباً: «إن التعب بادٍ عليك يا ملكوم إكس. أنت في حاجة إلى الراحة».

كانت المرة الأولى منذ إسلامي التي يكلمني فيها بيض في موضوع شخصي، وكنت أشعر أن بعضهم يفعل ذلك بنية صافية. وقال لي واحد منهم لن أسميه حتى لا أتسبب في طرده من عمله: «إن البيض يا ملكوم يحتاجون إلى صوتك أكثر مما يحتاج إليه الزنوج». أذكر ذلك لأنها كانت المرة الأولى التي تكلمت فيها منذ أسلمت مع أي رجل أبيض خلال مدة ما من الزمن في موضوع لا يتعلق بأمة الإسلام وصراع الأمريكيين السود الراهن.

لا أعرف كيف أو لماذا أورد ذلك الصحافي الكتابات المكتشفة في حفريات البحر الميت فقلت له: «إنها ستخرج المسيح من الزجاج الملون والرسوم الحائطية التي ظل بها ولمدة قرون بلونه الأبيض الناصع وتعيده إلى لونه الحقيقي». ودهش صحافي وواصلت كلامي قائلاً: «إن كتابات البحر الأحمر هذه ستثبت أن المسيح كان ينتمي إلى جماعة دينية مصرية وهي حقيقة كانت معروفة من أيام المؤرخ المصري فيلو

الذي عاصر المسيح. وأخذني الحديث مع ذلك الصحافي في متاهات الحفريات والتاريخ والدين ساعتين كدت أن أنسى همومي خلالهما، واتفقنا على أن كل طفل سيتعلم في المدرسة في حدود ٢٠٠٠ اللون الحقيقي لرجالات القرون الوسطى.

سبق لي أن قلت إنني كنت بين الفينة والأخرى أنتظر أن تتكلم الصحف عليّ ولكن ليس كما فعلت. الكل يعرف من قتل في دلاس، تكساس في نوفمبر ١٩٦٣. وبعد الحادثة بساعتين، وأنا أقول الحقيقة، كان كل رجل دين مسلم قد توصل بأمر السيد محمد الذي كان في الواقع أمرين: عدم الإدلاء بأية ملاحظة في موضوع الإغتيال والإكتفاء بقول: «ليس عندي أي تعليق» إذا ألح السائل.

وخلال الأيام الثلاثة التي كانت الأخبار فيها لا تدور إلا عن اغتيال الرئيس، قرر السيد محمد عدم إلقاء خطاب كان من المقرر أن يلقيه في مركز منهاتن بنيويورك ولم نتمكن من استرجاع تكاليف استئجار المركز فقد أمرني أن أخطب نيابة عنه.

لقد رجعت أكثر من مرة إلى نقط ذلك الخطاب الذي كان بعنوان «حكم الله على أمريكا البيضاء» والذي كان موضوعه أن المرء لا يحصد إلا ما زرعته يداه وهو من أحب المواضيع إلي. وفتح باب المناقشة فطرح علي سؤال يفرض نفسه: «ما رأيك في اغتيال الرئيس كيندي؟» ودون أن أفكر قلت للسائل رأيي بصدق. قلت له إن البيض قد نالوا جزاءهم وإن الكراهية البيضاء لا يمكن حصرها في قتل سود عزل، إنها عندما يسمح لها بالإنتشار دون رادع ترد في نحر مروجيها وتضرب رئيس الدولة بذات نفسه. قلت إن ذلك ما وقع مع مدغر إيفرز وباتريس لومومبا وزوج السيدة نهو.

وتلقفت الصحف قولي: «ملكوم إكس الناطق باسم المسلمين السود يقول إن البيض قد نالوا جزاءهم». إن استرجاع ذلك كله الآن ينهكني. كانت بعض الشخصيات البارزة في أمريكا والعالم تقول الشيء نفسه بكل الطرق وبلهجة أكثر حدة، إن الكراهية في أمريكا هي التي قتلت الرئيس، ولكنه أصبح في فمي نذير سوء.

وكان اليوم التالي هو موعد لقائي الشهري مع السيد محمد. وشعرت بالتوتر وأنا في الطائرة فأقلقني ذلك لأن حدسي لا يخيب. وعانقني السيد محمد فوجدت ترحابه بارداً، وفجأة شعرت بالتوتر من جديد وهو مؤشر له كما قلت دلالته. كنت أعتز بكوني من القرب من السيد محمد بحيث أعرف شعوره من شعوري. إذا كان متوتراً كنت أشعر بالتوتر وإذا كنت هادئاً كنت أعرف أنه هادىء وقد كنت ذلك اليوم في غاية التوتر.

وتكلمنا على أشياء كثيرة في غرفة الإستقبال ثم سألني: «هل قرأت الصحف هذا الصباح؟» فقلت له: «نعم يا سيدي قرأتها» فقال: «لقد أخطأت خطأً كبيراً عندما نطقت بذلك الكلام. إن البلاد تحب ذلك الرجل. البلاد كلها تبكيه. لم يكن من الصواب أن تقول مثل ذلك الكلام في مثل هذا الوقت. إنه في غير صالح المسلمين». وواصل بصوت خيل إلي أنه يأتي من مكان بعيد: «إني أراني مضطراً لإسكاتك مدة تسعين يوماً حتى أبرىء ذمة المسلمين من كلامك المتهور».

وشعرت بتنمل في جسدي ولكنني كنت من أتباع السيد محمد وكنت أقول مراراً لمساعدي: إن من يصدر الأوامر يجب أن يكون مستعداً لتطبيقها على نفسه فقلت للسيد محمد: «أنا متفق معك ومستسلم لأمرك مائة في المائة».

وفي الطائرة استعددت نفسانياً لإطلاع مساعدي على توقيفي أو «إسكاتي» ولكنني لدهشتي وجدتهم يعرفون، وأكثر من ذلك كانت كل جريدة وكل محطة إذاعية وتلفزيونية في نيويورك قد توصلت ببرقية تنهي إليها الخبر فكان ذلك أسرع وأشمل عمل إعلامي رأيت المسؤولين في شيكاغو يقومون به بمبادرة منهم.

وبدأت التلفونات ترن في كل مكان أتردد عليه وكان من بينها مكالمات من لندن وباريس ومن الأسوشييتد بريس واليونايتد برس إنترناشينل ومن كل شبكات التلفزيون والإذاعة وكل الصحف في البلاد فقلت لهم «إنني خالفت أمر السيد محمد وإنني مستسلم لحكمته وإنني أترقب رفع المنع عني بعد تسعين يوماً» فظهرت الصحف وعليها هذا العنوان: «إسكات ملكوم إكس». كان أكثر ما يقلق بالي أنني وأنا أكثر المسلمين خبرة في التعامل مع الإعلام لن أتمكن من الكلام إذا ما ظهرت فضيحة تمس أمة الإسلام وأن هذه الفضيحة إذا ما ظهرت ستستغل إلى أقصى حد.

واكتشفت بعد ذلك أنني لم أكن ممنوعاً من مخاطبة الصحافة وحسب، ولكنني كنت ممنوعاً أيضاً من إلقاء خطبتي في مسجدي. بعد ذلك أعلنوا لأمة الإسلام أنني سأرجع إلى ممارسة عملي إذا «استسلمت» فبدأ الشك يراودني. كنت قد استسلمت كلية ولكنهم كانوا يوعزون للمسلمين بأنني متمرد، ولما كنت قد عشت مع الخارجين على القانون فقد كنت أستطيع أن أميز بين الترقية والتجريد من الرتبة.

وبلغني بعد أيام أن أحد أعواني المباشرين يقول لبعض الإخوان في المسجد السابع: «لو عرفتم ما فعله لخرجتم وقتلتموه بأنفسكم» ففهمت أن ذلك لم يكن ليقال

لولا أن المصادقة على قتلي إن لم تكن المبادرة لم تصدر من أعلى مستوى.

شعرت كأن برأسي نزيف، كأن عطباً قد أصاب مخي فذهبت إلى طبيبة الأسرة الدكتورة ليونا تورنر في شرق إلمهورست بلونغ آيلاند وسألتها أن تجري لي فحصاً على مخي ففعلت ثم قالت إنني تحت تأثير ضغط شديد وأنني في حاجة إلى الراحة.

إنني لم أعد أرى كاسيوس كلاي ولكنني مدين له بأنه دعاني وزوجتي وبناتي دعوة كانت هدية منه بمناسبة عيد زواجي السادس في ذلك الوقت بالذات إلى ميامي التي كان يتمرن به لمقابلة سوني لستون.

وكنت قد تعرفت إليه في دترويت في ١٩٦٢ حيث كان قد حضر مع أخيه رادولف إلى مطعم الطلبة المجاور لمسجد دترويت حيث كان السيد محمد سيخطب في تجمع كبير. وأعجب المسلمون ببساطة وتلقائية الأخوين البطلين الأخاذين. وجاء كاسيوس وربت على يدي وقدم لي نفسه كما قدمها فيما بعد للعالم قائلاً: «أنا كاسيوس كلاي» بلهجة من يفترض أنني أعرف من هو، فتصرفت كما لو كنت أعرف ثم ذهب كل منا إلى حال سبيله، إذ إننا كنا من عالمين مختلفين للغاية زيادة على أن السيد محمد كان قد أمرنا بعدم ممارسة أي نوع من أنواع الرياضة.

وبدأ السيد محمد يتكلم فبدأ الأخوان يقودان التصفيق وزاد ذلك من إعجاب الناس بصدقهما سيما وأن تجمعا إسلامياً كان آخر مكان يمكن أن يبحث فيه المصارع لنفسه عن أنصار. بعد ذلك بدأت أسمع من حين لحين أن كاسيوس قد زار مسجداً أو مطعماً إسلامياً في هذه المدينة أو تلك. وكنت كلما خطبت في مكان يوجد هو على مقربة منه وجدته في الجمهور. وأحببته ولعل ميزة ما فيه جعلتني أدعوه إلى بيتي مع أنني لم أكن أدعو إليه في العادة أحداً. وأحبته بيتي وجنت به البنات. كان في الواقع شخصاً يحب، كان ودياً وأنيقاً وواقعياً. ولاحظت أنه ينتبه إلى أدق التفاصيل وشككت في أن تكون الدعاية الشائعة عن فظاظته إشاعة مرسومة فقلت له ذلك وقال إنه يستعمل كل الوسائل لهز ثقة سوني لستون في نفسه وتعقيده وجعله يدخل الحلبة غاضباً، غير مدرب وواثقاً في نفسه أكثر من اللازم ومطمئناً إلى أنه سيحقق ضربة قاضية أخرى من ضرباته المتبجحة.

ولم يكن كاسيوس يتقبل النصح وحسب، ولكنه كان يسعى إليه فقلت له إن نجاح الأبطال متوقف على مدى انتباههم ومعرفتهم بحقيقة طبائع ودوافع من يحيطون

بهم، وحذرته من «الثعالب» وهو الإسم الذي كان يطلقه على البنات اللاتي كن يحطن به وقلت له إنهن في الحقيقة ذئاب لا ثعالب.

كانت تلك أول إجازة لبيتي منذ زواجنا. ومرحت بناتنا الثلاث ولعبن مع المرشح لبطولة العالم في الوزن الثقيل. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو بقيت في ذلك الوقت الحرج في نيويورك محاصراً بتلفونات ترن وبالصحافة وكل من كانوا يتحرقون على التمحيص والتأويل والشفقة. وكنت كمن عاش زواجاً منسجماً وجميلاً مدة إثنتي عشرة سنة ثم وجد رفيقه ذات صباح وهو يتناول فطوره يرمي إليه عبر المائدة بورقة الطلاق. أصبت بما يشبه الصدمة العاطفية وشعرت كأن شيئاً في الطبيعة قد تعطل، الشمس مثلاً أو النجوم. كانت الواقعة على ذلك القدر من الإستحالة والهول بحيث يستحيل قبولها. كنت وأنا مع مساعدي كاسيوس أو في فندق هامبتون هاوس حيث كنا نقيم أكلم زوجتي والناس ولا أعي مما أقوله شيئاً. كانت الكلمات تخرج من زاوية صغيرة من عقلي بينما بقية عقلي تعج بألف صورة وصورة من السنوات الإثنتي عشرة الماضية. صور من المساجد. . . . ومع السيد محمد. . . ومع أهل السيد محمد. . . ومع المسلمين كجمهور وكأفراد في جلسات خاصة. . . وصور مع البيض كجمهور وكصحافة. كانت الصور تدور في رأسي وأنا أمشي وأتكلم وأتحرك.

وفي يوم المقابلة قلت للصحافيين الرياضيين وكررت لهم أنني مقتنع في قرارة نفسي بأن عودتي إلى عملي بعد انقضاء فترة التسعين يوماً هراء. كنت أعرف أنني انفصلت عن أمة الإسلام انفصالاً جسدياً وليس نفسانياً. هل تفهم ما أقوله؟ قد يوقع القاضي على ورقة الطلاق ولكن الطلاق بالنسبة لأحد الطرفين أو لكليهما لا يستقر في نفسيهما إلا بعد سنوات.

وهكذا كانت شيكاغو قد دبرت مكيدتها لإبعادي من أمة الإسلام إن لم أقل من الحياة ولم يكن هناك ما أستطيع فعله لمنعها من ذلك ولم يكن قولي: «إن البيض قد نالوا جزاءهم» إلا فرصة انتهزتها وعللت بها إبعادي. ولما كانت المرحلة الأولى من الخطة قد تمت وأوهم المسلمون بأنني تمردت فقد بدأت أنتظر أن تبدأ المرحلة الثانية التي تقضي بإيقافي موقتاً في انتظار مقاطعتي لفترة غير محددة. وكنت أعتقد أنهم في المرحلة الثالثة سوف يقنعون أحد المسلمين الجاهلين للحقيقة. بالتطوع لقتلي كواجب ديني أو الإكتفاء بإبعادي حتى أختفي نهائياً من مسرح الأحداث.

كانت زوجتي هي الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة ولم يكن يخطر ببالي أبداً أنني سأصبح متكلاً على امرأة كما أصبحت متكلاً عليها في استمداد قواي المعنوية. لم نكن نتكلم في الموضوع وكانت هي تلوذ بالصمت بما عهد فيها من تفهم، ولكنني كنت أشعر بمؤازرتها. كنت أعرف أنها تؤمن بالله قدر إيماني به، فكنت أعرف أنها ستبقى إلى جانبي مهما حدث. ولم أكن أخشى الموت لأنني كنت طوال السنوات الإثنتي عشرة الماضية مستعداً لفداء السيد محمد بحياتي، ولكن الخيانة كانت أشد علي من الموت. كنت أستطيع أن أتقبل الموت ولكنني لم أكن أستطيع أن أتقبل خيانة كل ما أسلفته من ولاء لأمة الإسلام وللسيد محمد. ولو أن السيد محمد كان خلال السنوات الإثنتي عشرة الماضية قد ارتكب جريمة مدنية يستحق عليها الموت لحاولت أن أثبت أنني أنا الذي ارتكبتها ولذهبت إلى المشنقة عوضاً عنه.

وفي ميامي وأنا ضيف على كاسيوس كلاي كنت أبذل جهداً خارقاً لتحويل تفكيري من همومي إلى هموم أمة الإسلام وأحاول إقناع نفسي بأن المعاصي التي ارتكبها السيد محمد كان القصد منها إكمال شروط النبوة ذلك أنني كنت أؤمن بأنه يأتي بعد الله مباشرة.

ومع ذلك فشلت في مواراة أو تجاهل كونه لم يعترف بمسؤوليته أمام أتباعه كضعف بشري أو تكميل للنبوة، وهو ما كان المسلمون سيفهمونه أو يتقبلونه على الأقل، وأنه كان فوق كل ذلك يختفي ويخفي فعلته فصدمني ذلك بعنف. وانتبهت إلى أنني آمنت به أكثر مما آمن هو بنفسه فبدأت أسيطر على أعصابي وأستجمع قواي لمواجهة الواقع والتفكير في نفسي لأول مرة بعد إثنتي عشرة سنة.

ورجعنا إلى بيتنا في لونغ آيلاند وهناك علمت أن استياء مسلمي شيكاغو مني قد زاد بسبب وقوفي في صف كاسيوس كلاي الذي عكسته الصحافة. كانوا يعتقدون أن كاسيوس لن يفوز وأنني أحرج الأمة بربطه به ولا أعرف إن كان كاسيوس يأبه اليوم لكون «محمد يتكلم» هي الجريدة الوحيدة في أمريكا التي كانت تعتقد أن مقابلته تلك لا تستحق التغطية مع أنه مسلم.

وشعرت أن إرادة الله هي التي دبرت لي أن أساعده على إثبات تفوق الإسلام أمام العالم بإثبات تفوق العقل على العضلات، في الوقت الذي كانت الناس فيه تتكلم على إمكانية فوز كاسيوس على لستون باستهزاء، فقفلت راجعاً إلى فلوريدا ومعي صور

فوتوغرافية لفلويد باترسون وصوني لستون وإلى جانبهما كهان مسيحيون يعملون معهما كـ«مستشارين روحيين». ولم أكن في حاجة لأن أذكر كاسيوس بما فعلته المسيحية البيضاء بالسود فاكتفيت بقولي له: «إن هذه المقابلة فاصل بين الحق والباطل، إنها صراع أول بين الصليب والهلال يجابه فيه مسلم مسيحياً لأول مرة وتنقله عدسات الكاميرات إلى العالم بأسره». قلت له: «هل تعتقد أن الله دبر هذا كله لو لم يكن قد كتب لك النصر؟». ولذلك كان يقول يوم إقرار الوزن ولعلك تذكر ذلك أنه قد تنبّأ له بالنصر وأنه لا يمكن أن يهزم.

كان مدربو لستون ومستشاروه يمرنونه على الإندماج لا على مصارعة كاسيوس، وكان قد استأجر بيتاً فخماً في منطقة بيضاء غنية كان جاره فيه هو دان توينغ صاحب نادي نيويورك الأبيض للبايسبول. ولعل هذا يعطيك فكرة عن مدى غنى تلك المنطقة، في حين كنتُ أرافق كاسيوس في الأماسي إلى الأحياء السوداء فكان يُذهل الزنوج أنه يأتي إليهم ولا يذهب مثل معظم الأبطال السود إلى البيض. وكان يزيد في دهشتهم قول كاسيوس لهم: «أنتم أهلي وأنا أستمد قواي منكم». وبذلك كان صوني على وشك أن يقابل مصارعاً مدمراً يعبد الله ويجهل الخوف.

ويوم المقابلة وجدت أن مقعدي في قصر المؤتمرات يحمل رقم سبعة، الرقم الذي أتفاءل به فاستبشرت. كان أخو كاسيوس رادولف يجري مقابلته الإقصائية الأولى وكان كاسيوس قلقاً عليه، ولكن في الوقت الذي كان رادولف يفوز فيه على زنجي من فلوريدا يدعى «شيب» جونسون كان كاسيوس يتابع المباراة من الخلف بمنتهى الهدوء في سترة سوداء. وكان ذلك إلى جانب تهكمه، وما قاله يوم الوزن كفيلاً بتنوير بعض الصحافيين الرياضيين الذين كانوا يتكهنون بهلاكه.

وذهب كاسيوس لتغيير ملابسه استعداداً لدخول الحلبة فدعوت له كما وعدته. وجاء الخصمان أخيراً ووقف كل منهما في ركن من أركان الحلبة فشبكت ذراعيَّ على صدري محاولاً أن أبدو هادئاً لا سيما والكاميرات في مثل ذلك الموقف كفيلة بأن تظهر المرء في أطوار قريبة من الجنون.

ومرت المقابلة حسب ما كان كاسيوس يبتغي في كل أطوارها باستثناء الجولتين الرابعة والخامسة اللتين فقد فيهما الرؤيا موقتاً. وكان يتحاشى لكمات خصمه القوية الذي كان العياء قد بدأ يظهر عليه ابتداء من الجولة الثالثة نظراً لتقدمه في السن ولصبه

جميع قواه في الجولتين الأوليين ثم لم يلبث أن استسلم وانهزم.

كان تحولاً كبيراً في تاريخ الملاكمة يرجع السر فيه إلى أن كلاي درس قبل المباراة بعدة أشهر إمكانات خصمه دراسة مستفيضة. وكان احتفال كلاي بفوزه بلقب بطل العالم في الوزن الثقيل احتفالاً غريباً. جاء إلى الفندق الذي أقيم فيه وأكل الآيس كريم وشرب الحليب تكلم مع جيمي براون بطل الكرة المستطيلة ومع أصدقاء آخرين ومع الصحافيين ثم نام قليلاً في غرفتي قبل أن يلتحق بمقر إقامته.

وفي اليوم التالي تناولت الفطور معه قبل أن يعقد ندوته الصحافية التي أعلن فيها للعالم أنه مسلم. ولكن دعني أوضح هنا شيئاً. إنه لم يقل أبداً أنه ينتمي إلى أي «مسلمين سود» ولكن الصحافة هي التي استنتجت ذلك من كلامه الذي جاء فيه: «إنني أؤمن بالدين الإسلامي أي أنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله شأن ما ينيف على سبع مائة مليون مسلم داكن اللون في إفريقيا وآسيا.

وكان أسخف رد في فورة الغضب التي تلت ذلك هو الذي جاء على لسان فلويد باترسون الذي قال إنه يعلن ككاثوليكي منازلته كاسيوس كلاي ليستخلص تاج بطولة الوزن الثقيل من يد مسلم، فكان بذلك مثالاً حياً على مأساة المسيحيين مغسولي الدماغ السود المستعدين لخوض معارك الرجل الأبيض وهو لا يأبه بهم. ولم تمر ثلاثة أسابيع على تصريحه ذاك حتى نشرت الصحف خبراً مفاده أن باترسون هذا يعرض بيته في يوكرز بنيويورك الذي يساوي ١٤٠٠٠٠ دولار للبيع بخسارة لا تقل عن ٢٠٠٠٠ دولار. كان قد «اندمج» في حي أبيض حوّل حياته إلى جحيم، لم يجد فيه شخصاً واحداً يبادله المودة وسمى فيه الأطفال أولاده بـ«الزنوج» ودرب أحد جيرانه كلبه على تخريب بيته وأقام آخر حاجزاً بينه وبينه ليخفي عنه منظر الزنوج فقال للصحافة وهو يترك ذلك الحي: «لقد حاولت وفشلت».

جاءني أول تهديد بالقتل من شخص كان من أقرب من عملوا إلى جانبي في المسجد السابع بنيويورك ثم كلّف أحد مساعدي الآخرين نظراً لخبرته في أعمال التخريب بوضع قنبلة في سيارتي بحيث تنفجر بمجرد ما أشغل المحرك. وكان ما قد رآه من تفانيّ في أمة الإسلام ما دفع به إلى إطلاعي على الأمر فشكرته وأخبرته بحقيقة ما يجري في شيكاغو.

وتعهد هذا الأخ بتنبيه بقية الإخوة في المسجد السابع حتى لا يقعوا في الفخ.

وكانت حادثة محاولة قتلي هذه الحد الفاصل الذي تم به الطلاق السيكولوجي بيني وبين أمة الإسلام، وبدأت بعد ذلك أرى في الشوارع والمتاجر والمصاعد ونواصي الطرقات والسيارات وغيرها من مسلمين أعرفهم وأقول لعل بينهم من قد كلف بقتلي.

لم أعرف ماذا أفعل بعدما كنت قد وقفت حياتي على صراع الإنسان الأسود وأصبحت في نظر معظم الناس زعيماً. وكنت فيما مضى أتهم معظم من يدعون بالزعماء السود بالتقصير، وإذا بي في موقف لا أعرف فيه ما أفعله أو أدرك معنى لأن تكون لي إمكانات فطرية أساعد بها السود على كسب حقوقهم الإنسانية.

وكان لدي من الخبرة ما يكفي لإدراك أن أي عمل تنظيمي يجب أن يبدأ بمعرفة المؤهلات الثابتة عند من يعتزم القيام به. وقد كانت لي شهرتي العالمية التي لا تُقيَّم بالمال، فكنت أعرف أن الناس وربما حتى في الخارج سيسمعون ما أقوله لهم إن كان يستحق أن يسمع، وكنت في نيويورك حيث يتوافر لي عدد لا يستهان به من الأتباع غير المسلمين الذين كسبتهم يوم قدت تلك المظاهرة الزنجية إلى مقر الشرطة احتجاجاً على ضرب أخينا هينتن، والتي أثبتت لمئات الآلاف من زنوج هارليم أن السود يستطيعون أن يحققوا أهدافهم إن هم جابهوا البيض بلا خوف. كانت، هارليم برمتها قد رأت كيف أن البوليس أصبح بعد ذلك يعامل المسلمين باحترام. وكان ذلك هو الوقت الذي قال فيه عميد شرطة الدائرة الثامنة والعشرين: «يجب ألا يتجمع لرجل واحد كل هذا القدر من السلطة».

بعد ذلك ثبت لي أن نسبة عالية من سود نيويورك يستجيبون لما أقوله لهم بمن فيهم عدد ممن لم يكونوا ليعترفوا بذلك علانية. كانت تجمعاتي مثلاً تستقطب أضعاف ما تستقطبه تجمعات من يسمون بـ«الزعماء الزنوج» وكنت أعرف أن الزعيم الحقيقي يكسب ثقة أتباعه ويستحقها، وأن الأتباع المخلصين ينضمون إليه طواعية وعن اقتناع وميل. وكنت أعرف أن ما يعوز مشاهير «الزعماء الزنوج» هو ذلك الرباط الحقيقي مع سكان الأحياء الزنجية، وأنهم لا يستطيعون أن يحققوه لأن الإندماج يأخذ كل وقتهم. وكنت أعرف أن الزنوج يعرفون أن علاقتي بالأحياء الزنجية علاقة فكرية وجسدية لم تنقطع أبداً. كنت أعرف إيقاع الحي الزنجي وأشعر بارتفاع التوتر في جمهوره فوق العادة وأتكلم لغته وأفهمها. وهنا تحضرني حادثة أذكرها كلما سمعت بعض «مشاهير الزنوج» يعلنون أنهم يتكلمون باسم سكان الأحياء الزنجية.

كنا قد أنهينا تجمعاً في الهواء الطلق وكنت أتكلم مع أحد هؤلاء «الزعماء» الذين يسكنون المركز فاقترب منا مهرب لا أظنني رأيته من قبل وكلمني بعامية الحي الزنجي وانصرف واستدرت فوجدت «الزعيم الزنجي» ساكن المركز يتابعه بنظراته بحيرة من لم يفهم مما قاله شيئاً وكأنه تكلم بالسنسكريتية ثم سألني: «ماذا قال لك؟» فقلت له إنه قال إن المسلمين ينظمون في قصر روكلاند المخصص للحفلات الراقصة بيع العديد من الأشياء لجمع بعض المال وإنه سيرهن بدلته بعشرة دولارات ليساهم في العملية وأنه لا يملك شيئاً ولكنه يحاول أن يحسن حالته المادية وأنه ذاهب الآن ليأكل ثم ينام.

الغاية من هذا أنني كزعيم كنت أستطيع أن أتكلم أمام مكروفونات شبكات التلفزيون الوطنية الثلاث وفي هارفارد وتاسكري ومع ما يدعى بـ«الطبقة الزنجية المتوسطة» وسكان الأحياء الزنجية الذين كان بقية الزعماء يكتفون بالكلام عليهم.

وكمهرب سابق كنت أعرف أكثر من كل البيض ومن كل «الزعماء السود» تقريباً أن المهرب في الأحياء الزنجية أخطر رجل أسود في أمريكا، لأنه يزدري جهاز الحكم الأبيض أكثر من أي أسود آخر، لأنه ليس له أي رادع داخلي لا دين ولا مفهوم أخلاقي ولا مسؤولية مدنية ولا خوف ولا شيء. ولذلك تراه يعيش من نصب شباكه على الناس ويمضي وقته في الترقب كالحيوان. المهرب في الحي الزنجي يعاني على الدوام الإحباط والقلق والتعطش إلى العنف، وكيفما كان العمل الذي اعتزمَ القيام به فإنه يقوم به حتى النهاية وبتفانٍ.

ومما يزيد في خطورة المهرب في الحي الزنجي أنه يحرص على بقاء بريق سمعته في أعين مراهقي الحي الذين تركوا المدرسة والذين يرون أن كدح آبائهم لم يسفر عن شيء في هذا العالم الأبيض المليء بالعنصرية والأحقاد وعدم التسامح، فيقررون أنهم سيصبحون مثل المهربين الذين يخطرون في أجمل الملابس ويلعبون بالأوراق المالية ولا يعيرون بالا لشيء أو أحد. وهكذا يتم إنجذاب مراهقي الأحياء الزنجية إلى عالم المهربين الحافل بالمخدرات والسرقة والدعارة والجريمة العمومية والإنحلال، وهي حقيقة راعتني عندما اكتشفتها.

وفي مساء يوم حار من أيام الصيف ذهبت إلى تجمع كان يعقد في شوارع هارليم ضم عديداً من أولئك المراهقين. ذهبت بدعوة من زعيم زنجي «مسؤول» لم يكن قد كلمني من قبل. وكنت أقول لنفسي وأنا في الطريق إنهم يريدون استغلال

اسمي لجلب الجمهور، فكنت كلما فكرت في ذلك ازددت شعوراً بالحرارة. وصعدت المنصة فقلت للجمهور إنهم لم يستدعوني حباً فيَّ ولكن رغبة في استغلال اسمي ونزلت. وثار المراهقون وبدأوا يدورون ويصرخون فأغضبوا الزنوج الأكبر سناً. وتوقفت حركة المرور في الشوارع المجاورة وارتفع الغضب بشكل أقلقني فاعتليت سيارة ولوحت بذراعي وطلبت منهم أن يهدأوا فهدأوا، ثم طلبت منهم أن ينصرفوا فانصرفوا. وكان ذلك هو الوقت الذي بدأ يقال فيه إنني الزنجي الوحيد في أمريكا الذي يستطيع أن يبدأ أو أن يوقف حركة تمرد. لا أعرف إن كان بإمكاني أن أفعل ذلك، ولكنني أعرف أنني تعلمت من تلك الحادثة في دقائق أن أقدِّر قوة الإشتعال الكامنة في المهربين والشباب المعجب بهم الذي يعيش في أحياء زنجية أقفلها الرجل الشمالي الأبيض على الزنوج ليبعدهم مدة قرون.

وجاءت أحداث صيف ١٩٦٩ في هارليم وروشستر ومدن أخرى لتعطي فكرة على ما يمكن أن يحدث. لقد حوصر الشغب في الأماكن التي يعيش فيها الزنوج، ولكن الأحياء الزنجية في كل مكان من أمريكا تظل بما يعتريها من مرارة وغيظ، قابلة للإنفجار والتدفق على أحياء البيض. في نيويورك مثلاً لو حدث وعبر السود الغاضبون المتنزه المركزي وتدفقوا على شوارع مادسون والخامس ولكسنغتون وبارك لهدموا سراديبها. ولو أن حي المنطقة الجنوبية في شيكاغو وهو أسوأ من هارليم زحف على شارع بنسيلفانيا المركزي، ماذا تظن أن يحدث؟ وباعتبار أن دترويت عرفت مظاهرة سلمية شارك فيها مائة ألف من السود فإن الأمر يدعو للتأمل. وبإمكاني أن أستمر وأن أثبت أن خطر الإنفجار الأسود موجود في كل مدينة أمريكية. في كليفلاند وفلادلفيا وسان فرانسيسكو ولوس أنجلس يختمر الغضب الأسود.

لقد بقيت بعيداً عن حوادث ومواقف تعلمت منها كما قلت تقدير الخطر الكامن في الأحياء الزنجية كما حاولت تقييم المؤهلات التي تخول لي التكلم باسم السود «كزعيم» حر، فوجدت أن القرار اتخذ نيابة عني وأن جماهير الأحياء الزنجية أفرغت علي صفة الزعامة. كنت أعرف أن الحي الزنجي لا يمنح ثقته إلا لمن أثبت له أنه لن يبيعه للبيض، ولم أكن لأفكر في ذلك وما كان بيع ثقة أبناء جنسي من شيمي. وشعرت بالرغبة في التخطيط لإنشاء منظمة تساعد الإنسان الأسود في أمريكا الشمالية على الشفاء من المرض الذي يبقيه تحت كعب الرجل الأبيض.

نعم كان الإنسان الأسود في أمريكا مصاباً بمرض نفساني جعله يقبل تراث الرجل

الأبيض ويتقبله بوداعة الخرفان. وكان مصاباً بمرض روحي جعله يقبل مسيحية الرجل الأبيض مدة قرون، وهي تثبت له انعدام أية أخوة حقيقية وترضخه للقسوة التي يمارسها عليه من يسمون بالمسيحيين. المسيحية عتمت على تفكير الإنسان الأسود وأوقعته في الإشكال والغموض وقالت له إنه إن لم يكن له حذاء في هذه الدار وكان جائعاً فيها. فإنه سيحصل على الحذاء وعلى الحليب والعسل والسمك المقلي في الجنة. وقد كان الإنسان الأسود في أمريكا يعاني فوق ذلك من مرض إقتصادي، بدليل أنه يجمع بين قلة الإنتاج وقلة الإستهلاك. الإنسان الأسود اليوم أكبر عالة ولكنه يحسب واهماً، أنه يتقدم لأنه يوجد على ضرع بقرة حلوب هي أمريكا البيضاء.

السود ينفقون سنوياً في شراء السيارات ثلاثة مليارات من الدولارات، ولكن يوشك ألا يكون في أمريكا كلها بائع سيارات أسود واحد. أربعون في المائة من الويسكي المستهلك في أمريكا يصب في بطون السود المرضى بالمظاهر، ولكن معامل الخمور التي توجد في حوزة السود توجد إما في أحواض الإستحمام بالبيوت أو في جهة ما في الغابات. في نيويورك مثلاً، وهو عار مزر، حيث يعيش أكثر من مليون من السود، ليست هناك شركة واحدة تشغل أكثر من عشرة سود، وحيث إن السود لا يملكون في أحيائهم مؤسسات للبيع بالتقسيط فإنهم لا يستطيعون إحداث التوازن فيها.

لقد كان الإنسان الأسود في أمريكا أكثر من عانى من المرض السياسي بعدما سَمَحَ للرجل الأبيض بتوزيعه على أحزابه، في الوقت الذي كانت فيه عشرة ملايين من الأصوات السوداء كافية لتعديل ميزان السلطة في السياسة الأمريكية، لأن الأصوات البيضاء توشك أن تكون مقسمة بالتساوي. إن صناديق الإقتراع هي المكان الذي يمكن فيه للإنسان الأسود أن يناضل بكرامة مستعملاً السلطة والآليات التي يفهمها ويخشاها ويتعامل معها الرجل الأبيض. دعني أقل لك شيئاً. لو أن لجنة سوداء مكتلة قالت لأكبر العنصريين في واشنطن إننا نمثل عشرة ملايين من الأصوات لهرعوا إليها ولقالوا لها: «كيف الحال؟ أهلاً وسهلاً ومرحباً». لو أن سود ولاية المسيسيبي كانوا يصوتون جماعة لاضطر إستلاند إلى أن يصبح ليبرالياً أكثر من جاكوب وجافيت أو لما بقي في مكتبه لحظة واحدة. هذه هي الحقيقة وإلا لما بذل السياسيون العنصريون كل ذلك الجهد لإبعاد السود عن صناديق الإقتراع.

وعندما تكون جماعة من الناس قادرة على التصويت الجماعي والتأثير في

الإنتخابات وتفشل في ذلك، فإنها لا بد أن تكون مصابة بمرض سياسي. لقد كانت جماعة قاعة تاماري أكثر الجماعات تأثيراً في السياسة الأمريكية. في ١٨٨٠ انتخب أول إرلندي عمدة على نيويورك، وفي ١٩٦٠ حصلت أمريكا على أول رئيس جمهورية إرلندي. ولو أن السود الأمريكيين صوتوا جماعةً لأصبحوا أكثر قوة من الايرلنديين. ذلك أن السياسة الأمريكية تسيرها التكتلات ذات المصالح الخاصة واللوبيات. وهل هناك جماعة لها مصلحة خاصة وعاجلة وتحتاج إلى تكتل ولوبي أكثر من السود؟

إن العمال يملكون إحدى أكبر البنايات غير الحكومية في واشنطن في مكان يطل على البيت الأبيض مباشرة، وليس هناك من يتحرك تحركاً سياسياً واحداً قبل أن يعرف رأي العمال فيه. لقد ساعد أحد اللوبيات بيغ أويل على الحصول على مساعدة مالية كبيرة، ويحصل المزارعون بفضل لوبيهم على أهم المساعدات التي تقدمها الحكومة إلى أية جماعة في أمريكا، لأن المزارعين يصوتون كمزارعين لا كديموقراطيين أو جمهوريين أو ليبراليين أو محافظين.

ويتوافر للأطباء أفضل لوبي في واشنطن، وهو اللوبي الذي أفشل البرنامج الفدرالي الذي كان منتظراً أن يؤمن علاج المرضى الذين هم فوق الخامسة والستين رغم حاجة ملايين المواطنين إلى هذا البرنامج ورغبتهم فيه. وهناك لوبي منتجي الشمندر ولوبي منتجي القمح ولوبي مربي الماشية ولوبي الصين ولوبيات بلاد صغيرة لم يسمع بها أحد تدافع لها عن مصالحها في واشنطن.

والحكومة لها وزارات للتعامل مع الجماعات ذات المصلحة الخاصة التي تعرف كيف تُسمع صوتها وتُثبت ذاتها، فوزارة الزراعة تهتم بحاجيات المزارعين، وهناك وزارة للصحة والتربية ومساعدة المعوزين ووزارة الداخلية التي يدخل الهنود الحمر في إختصاصها، فهل إن المزارع والطبيب والهندي يشكلون أكبر هموم أمريكا الآن؟ طبعاً لا. السود هم أكبر هموم أمريكا في الوقت الراهن، وقد كان يجب والحالة هذه أن تكون هناك وزارة بحجم البانتغون لتعتني بكل جانب من جوانب مشاكلهم.

لقد قدم اثنان وعشرون مليوناً من السود لأمريكا قروناً من الكدح وماتوا من أجلها منذ الثورة وكانوا فيها قبل جماعة الطهريين وقبل الهجرة الموسعة وما يزالون إلى اليوم هم الأسفلون في كل شيء.

ولو أن كل واحد من هؤلاء الإثنين وعشرين مليوناً أعطى دولاراً واحداً، لبنوا

ناطحة سحاب للوبي يمثلهم في واشنطن. كان يجب أن يتوصل كل من يعمل في الجهاز التشريعي كل صباح بمكالمة حول ما يترقبه السود في أمريكا وما يريدونه وما يحتاجون إليه. كان يجب أن يسمع اللوبي الأسود كل من يدلي بصوته في أي شيء في الكونغريس.

إن حجر الزاوية في تسيير هذه البلاد هو القوة والسلطة الإقتصادية والسياسية وإذا كان الإنسان الأسود لا يملك القوة الإقتصادية ويحتاج إلى الوقت لاكتسابها، فإنه يمتلك على القوة والسلطة السياسيتين وهما كفيلتان بتغيير مصيره بين عشية وضحاها.

كنت أفكر في إنشاء هيأة ضخمة تساعد على إيقاظ همة الإنسان الأسود حتى يهب لكسب حقوقه الإنسانية وعلاج أمراضه، وهو عمل ضخم يحتاج إلى تخطيط ضخم. كنت أرى أن هذه الهيأة يجب أن تختلف عن أمة الإسلام فتضم كل السود، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية، وأن تطبق كل ما كانت أمة الإسلام تكتفي بترديده. وانتشر الخبر في الساحل الشرقي بالخصوص فأخذت الأهبة لبدء العمل. كان علي أولاً أن أستقطب أدمغة وأيدي تساعدني. وكان المزيد من الإخوة المناضلين في المسجد السابع يعلنون انفصالهم عن أمة الإسلام وينضمون إلي، كما كان الزنوج غير المسلمين يساندونني ومن بينهم، وهو شيء غريب أفراد من الطبقتين الوسطى والعليا الذين يعرفون بالبرجوازيين السود والذين كانوا قد سئموا من خرافة المركز، وبدأ كل هؤلاء يلحون علي بالسؤال: «متى تعقد الإجتماع التنظيمي؟» متى تظهر منظمتك؟» فاستأجرت لذلك الغرض قاعة الرقص بفندق تيريزا الواقع في ملتقى الشارع السابع والنهج الخامس والعشرين الذي يعد أسخن نقطة في هارليم.

ونشرت جريدة أمستردام نيوز الخبر، فاستنتج كثير من الناس أننا ننوي إقامة مسجدنا في فندق تيريزا. وهناك تدفقت علي البرقيات والرسائل والمكالمات من كل أنحاء البلاد، وكانت تجمع على أن الناس كانت تنتظر ذلك وعبر أشخاص لا أعرفهم بشكل مؤثر عن ثقتهم فيَّ، وقال الكثيرون إن تشدد أمة الإسلام في الأمور الأخلاقية هو الذي أبعدهم عنها وأنهم يريدون الإنضمام إلي. وكلمني طبيب يملك مستشفى صغيراً في جهة بعيدة، وقال إنه يريد أن ينضم إلي بينما تقاطرت علينا المساعدات المالية ونحن لم نعلن بعد عن سياستنا. وكتب لي مسلمون من مدن أخرى يقولون إنهم يريدون أن ينضموا إلي، وكانت رسائلهم تجمع على أن «الإسلام لا يتحرك بما فيه الكفاية». . . وأن «الأمة تتحرك ببطء شديد».

وجاءتني مكالمات ورسائل من البيض بأعداد مذهلة، عرضوا علي فيها مساعداتهم المالية، وسألوا إن كانوا يستطيعون الإنضمام إلينا، ولكنني قلت لهم إن ذلك غير ممكن لأن المنظمة سوداء وإن بإمكانهم أن يساعدونا مادياً لحل المشكل العنصري في أمريكا، إن كان هذا هو ما يمليه عليهم ضميرهم.

وجاءتني طلبات من أشخاص يريدون أن يخطبوا في مسجدنا من بينها ٢٢ طلباً توصلنا بها في صبيحة يوم اثنين واحد وأدهشني أن أغلبها من مجموعات من القسيسين المسيحيين.

وعقدت ندوة صحافية وقفت فيها أمام المكروفونات وأضواء الكاميرات والصحافيين الذين جلسوا ينظرون إلي وهم يحملون أقلامهم وكراساتهم مفتوحة بين أيديهم، رجال ونساء، بيض وسود يمثلون مختلف وسائل الإعلام العالمية، فقلت لهم إنني أنوي تنظيم مسجد في نيويورك وترؤسه، يحمل اسم المسجد الإسلامي الموحد ويكون لنا بمثابة قاعدة دينية نستمد منها القوة الروحية التي نحتاج إليها لإنتشال قومنا من الرذائل التي تنخر أجسامهم. وأعلنت أن المسجد سيكون مقره في فندق تيريزا في هارليم وأننا سنطبق فيه برنامج عمل يهدف إلى ما يتعرض له اثنان وعشرون مليوناً من الأفرو أمريكيين من تعسف سياسي واستغلال إقتصادي وتَرَدٍّ إجتماعي، ثم انهالت علي الأسئلة.

لم تكن المسألة بسيطة كما قد يتبادر إلى الذهن. كنت أتنقل من مكان إلى مكان دون أن يعلم أحد من إخواني السابقين في أمة الإسلام أنه كان من المحتمل أن يُعَيَّن لتصفيتي. وكنت أَعْرَفُ الناس بعقلية أتباع إلايجا محمد سيما وأنهم تعلموا التفكير مني، وكنت أعرف أنه ليس هناك من يبادر إلى القتل أسرع من مسلم مقتنع بأنه يرضي الله بذلك.

وكان هناك عمل لم أنجزه بعد، كنت كمسلم أفكر فيه منذ زمن بعيد ولا أجد له المال الكافي فركبت طائرة إلى بوسطن وقصدت أختي إيلا مرة أخرى. كنت قد أغضبتها أكثر من مرة ولكنها أبداً لم تدر لي ظهرها منذ جئتها من ميشيغن في ذلك المظهر القروي. قلت لها: «إنني أريد أن أحج يا إيلا» فقالت: «كم تريد؟».

الفصل السابع عشر

مكة

الحج ركن من أركان الإسلام واجب على من يستطيعه مرة في العمر. يقول الله في كتابه: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾، ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات﴾.

عندما كنت أحاضر في الجامعات كان يأتيني أشخاص بيض ويقولون لي إنهم عرب من الشرق الأوسط أو شمال إفريقيا يزورون الولايات المتحدة أو يدرسون بجامعاتها أو يقيمون فيها. وكانوا يقولون لي إن إدانتي للون الأبيض تتنافى وحسن إسلامي، وأنهم على يقين أنه لو تسنت لي معرفة الإسلام الحقيقي لفهمته واقتنعت به، ولكنني كنت أنفر من كلامهم ذاك بوصفي من أتباع إلايجا محمد. وعندما وجدته يتكرر بدأت أراجع نفسي وأقول: «إذا كان إيمان المرء بدينه صادقاً حقاً فلمَ لا يوسع معرفته بهذا الدين؟». وكنت قد أثرت ذلك مع ولاس محمد ابن إلايجا محمد الذي أحترم آراءه فأكد لي أن من واجب المسلم فعلاً أن يتعلم كل ما يستطيع تعلمه عن الإسلام.

وكان كل واحد من هؤلاء المسلمين العرب قد حثني على مقابلة رجل يدعى الدكتور محمود يوسف شواربي، وقال بعضهم إنه عالم مسلم تخرج في جامعة القاهرة وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن وأنه يحاضر عن الإسلام وأنه مستشار في الأمم المتحدة وأستاذ مبرز بجامعة القاهرة وصاحب مؤلفات، وأنه يشغل الآن في نيويورك منصب مدير جامعة الجمعيات الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا. وكنت كلما مررت بمكتبه الواقع في ١ ريفر سايد درايف، أفكر في زيارته حتى كان يوم وقدّمه لي أحد الصحافيين.

كان ودياً وقال إنه يتابع أخباري في الصحافة، فقلت له إنني سمعت به ثم تكلمنا

مدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة وانصرف كل منا إلى التزاماته بعدما كان قد قال لي شيئاً لم يبرح منطقه ذهني. قال إن المؤمن لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وهكذا وجدتني مع أختي إيلا التي لا تنفك تبهرني. سبق لي أن قلت إنها جورجية سوداء من القوة والضخامة بمكان وذات طابع مستبد أدى إلى إقصائها من مسجد بوسطن الحادي عشر ثم أرجعت إليه ولكنها تركته طوعاً وبدأت تتعلم الإسلام السني ثم فتحت مدرسة لتعليم العربية جاءتها بأساتذة مختصين. وكانت فوق ذلك تتاجر في العقار وتدخر لتحج.

وتكلمنا في غرفة الإستقبال طول الليل فقالت إنها مقتنعة بأن حجي أهم من حجها. وفي طريق العودة إلى نيويورك بقيت لا أفكر إلا في إيلا. ما أقواها! أجهزت على ثلاثة أزواج كانت تفوق ثلاثتهم حيوية وعنفواناً. كانت المرأة التي لعبت دوراً أساسياً في حياتي واستطاعت أن توجهني وأنا من تعود توجيه النساء. كنت قد جئت بها إلى الإسلام وإذا بها تساعدني على أداء الحج.

إذا كان الإنسان مع الله كان الله معه وأرسل له عند الحاجة علامات على ذلك. ذهبت إلى السفارة السعودية لطلب التأشيرة، فقال لي السفير إن من يسلمون في أمريكا في حاجة إلى تزكية الدكتور محمود شواربي، فكانت تلك بداية العلامة على أن الله معي. وطلبت الدكتور شواربي هاتفياً فدهش وقال: «لقد كنت على وشك أن أطلبك. تعال فوراً، أرجوك». وذهبت فناولني رسالة التزكية وكتاباً بالإنجليزية من تأليف عبد الرحمان عزام تحت عنوان رسالة محمد الخالدة وقال: إن المؤلف قد أرسله إليه وكلفه بتسليمه لي وأنه (المؤلف) مواطن سعودي من أصل مصري وشخصية سياسية مرموقة على الصعيد الدولي وأنه من مستشاري الملك فيصل المقربين وزاد: «إنه يتتبع أخبارك في الصحافة عن قرب» فأذهلني أن يحدث ذلك في ذلك الوقت.

وأعطاني الدكتور شواربي رقم مهتف ابنه محمد الذي يتابع دراسته الجامعية في القاهرة ورقم مهتف ابن المؤلف عمر عزام في جدة وقال: «إن جدة هي آخر محطة لك قبل مكة. اتصل بهما أرجوك».

وتركت نيويورك دون ضجة وأنا لا أدري أن رجوعي إليها سيقيم الدنيا ويقعدها. كنت قد كتمت خبر سفري خوفاً من أن تخلق لي وزارة الخارجية العراقيل في آخر لحظة، فلم يرافقني إلى مطار كيندي الدولي إلا زوجتي بيتي وبناتي الثلاث وبعض

مساعدي الأقربين. وأقلعت طائرة لوفتهانزا فظهرت لي العلامة الثانية على أن الله معي. كلمت جاريَّ وإذا بهما مسلمان أحدهما متوجه مثلي إلى القاهرة والآخر إلى جدة محطتي التالية. وبقيت أكلمهما أو أقرأ كتاب عمر عزام حتى وصلنا فرانكفورت، وهناك ودعنا الأخ المتوجه إلى جدة وبقينا أنا والأخ الآخر ننتظر الطائرة المتوجهة إلى القاهرة. ولما كان ما يزال على موعدها عدة ساعات أرتأينا أن نزور فرانكفورت. وقبل ذلك قابلت في دورة المياه بالمطار أول أمريكي في الخارج، طالب أبيض من رودس آيلاند يدرس في فرنسا. وتفحصني ثم مشى نحوي وقال: «هل أنت إكس؟» ولم أكن قد سمعت أحداً يناديني بتلك الصيغة فضحكت وقلت له نعم فقال: «مستحيل. يا إلهي! لن يصدقني أحد.»

وأدهشتني أنا والأخ المسلم دماثة الناس في فرانكفورت. كنا ندخل الدكاكين والمتاجر للفرجة وحسب، فكانوا يستقبلوننا بالترحيب على الرغم من أنهم لم يرونا من قبل وعلى الرغم من أنهم يعرفون أننا أجانب، ولم تكن مودتهم تتغير حتى عندما كنا نخرج دون أن نشتري شيئاً. في أمريكا تدخل المتجر وتشتري وتخرج منه وتبقى أجنبياً. في أمريكا يتصرف البائع والمشتري وكأن كليهما يتفضل على الآخر، أما الأوروبيون فإنهم أكثر إنسانية أو أكثر رحمة إن شئت.

كان الأخ المسلم يعرف الألمانية بعض الشيء وكان يقول لهم إننا مسلمون فكنت أجد شيئاً كنت أجده حتى في أمريكا عندما كان الناس ينظرون إلي كمسلم لا كزنجي. عندما ينظر الناس إليك كمسلم فإنهم ينظرون إليك كإنسان فتتغير نظرتهم وطريقة كلامهم وكل شيء.

وفي دكان صغير بفرانكفورت انحنى البائع فوق الحاجز وقال بالإنجليزية مشيراً إلى الألمان المارين في الطريق: «اليوم هكذا وغداً هكذا» فقال لي الأخ المسلم إنه يقصد أن الألمانيين سيثورون مرة أخرى.

وفي مطار فرانكفورت وجدنا جماعات من المسلمين من كل جنس ولون. كانوا يتعانقون وكان الجو حولهم مشبعاً بالحرارة والمودة، وفجأة انتبهت إلى أن اللون عندهم ليس مشكلة. كنت أشعر كأنني خرجت لتوي من السجن.

كنت قد قلت للأخ المسلم إنني أريد أن أبقى يومين في القاهرة لزيارتها فأعطاني رقم مهتفه وطلب مني أن أتصل به، وقال إنه يعرف أشخاصاً يتكلمون الإنجليزية

سيحجون هذا العام، وأنه يريد أن يعرفني إليهم. وقضيت يومين في القاهرة وقفت فيهما بإعجاب على ما بنته مصر من مدارس عصرية ومساكن شعبية وطرق سيارة ومصانع. وكنت قد سمعت أن حكومة جمال عبد الناصر قد جعلت من مصر إحدى أكثر البلاد تصنيعاً في إفريقيا وأظن أن أكثر ما لفت إنتباهي بها هو صناعة السيارات والحافلات.

كان ابن الدكتور شواربي البالغ من العمر تسع عشرة سنة والذي كان يدرس الإقتصاد والعلوم السياسية قد جال بي القاهرة وقال لي إن والده يحلم بإنشاء جامعة إسلامية في الولايات المتحدة.

كان الناس في القاهرة وديين وكانوا يدهشون عندما كانوا يعرفون أنني مسلم من أمريكا؛ ومن بين من قابلتهم هناك أستاذ يدرس العلوم الطبيعية وزوجته كانا أيضاً ينويان أداء الحج ذلك العام. ودعياني للعشاء في مطعم بهيليوبوليس وهي إحدى ضواحي القاهرة فوجدتهما ذكيين وواسعي الإطلاع. ومما قاله الزوج لي إن عداء الدول الغربية الكبرى لمصر يعود إلى أنها تعطي المثال في النمو لباقي البلاد الإفريقية وسألتني الزوجة: «كيف يموت الناس جوعاً في العالم وأمريكا بها كل هذا الفائض من الطعام؟» ماذا تفعل به؟ هل تلقيه قي البحر؟» فقلت لها: «نعم، تلقي ببعضه في البحر وتضع الباقي في بواخر شاغرة ومخازن وثلاجات تجعلها في رعاية جيش صغير من العمال إلى أن تفسد فيتولاها جيش آخر من عمال تصريف القمامة ليوضع مكانها طعام جديد، فنظرت إلي نظرة من لا يصدق وكأنها تحسبني أمزح، ولكن الأمريكيين يعرفون أنها الحقيقة. ولم أشأ أن أقول لها إن أمريكا نفسها يوجد فيها ناس يموتون جوعاً حتى لا تحسب أنني أغالي في المزاح.

ووجدت الحجاج الذين يعرفهم رفيق سفري المسلم في انتظاري، فانضممت إليهم وأصبحت ثامنهم ثم انضم إلينا قاضٍ وموظف سامٍ من وزارة التعليم. كانوا يتكلمون الإنجليزية بطلاقة واحتضنوني وكأنني واحد منهم، فاعتبرت ذلك علامة ثالثة بأن الله معي وكنت حيثما توجهت أجد من يساعدني.

الحج في اللغة العربية معناه قصد مكان معين وفي الشرع زيارة الكعبة أي البيت الحرام لأداء فريضة الحج. في مطار القاهرة كان العشرات يُحرِمون أي يدخلون في الحج، وكان بعض الإخوة قد نصحني بترك متاعي في القاهرة بما فيه ثلاث آلات

تصوير وكاميرا ففعلت. واشتريت حقيبة صغيرة وضعت فيها بدلة وقميصاً وزوجاً من الملابس الداخلية وحذاء وحملتها معي. وفي الطريق إلى المطار بدأت أشعر بالقلق لأنني بدأت أدرك أنني على وشك أن أدخل مرحلة من المناسك سيكون علي أن أفعلها بالنظر إلى الآخرين والتقليد.

وكذلك كان. خلعنا ملابسنا في المطار وارتدينا فوطتين إحداهما وتسمى الإزار لففناها حول خواصرنا وشددناها بحزام جلدي يشتمل على محفظة النقود، والأخرى وتسمى الرضى وضعناها على كتفنا الأيسر تاركين الكتف والذراع الأيمنين عاريين، وانتعلنا صندلاً يسمى النعل يبقي الكعبين عاريين أيضاً ووضعنا حول رقابنا محفظة فيها الجواز والأوراق الهامة الأخرى مثل رسالة الدكتور شواربي.

كانت ألوف الحجاج تغادر مطار القاهرة وهي على تلك الهيأة التي لا يمكن أن يميز فيها بين الغني والفقير، وقد كان بيننا بعض ذوي النفوذ فعلاً ولكنهم كانوا يلبسون ما نلبسه. بعد ذلك شرعنا نقول: «لبيك اللهم لبيك!» ومعناها: «ها أنذا يا ربي!» حتى اهتز المطار بها.

كانت الطائرات تقلع على رأس كل بضع دقائق وهي محملة بالحجاج، ولكن المزيد منهم كان لا ينفك يتوافد على المطار ومعهم أهلهم وذووهم الذين جاؤوا مودّعين والذين كانوا يطلبون منهم أن يدعوا لهم في ذلك المقام. وركبنا طائرة الخطوط العربية المتحدة، ولم أعلم إلا بعدما أقلعت بنا أنهم أنزلوا حاجاً آخر لأركب أنا فشعرت بمزيج من الأسف والتواضع والإمتنان.

كانت الطائرة مكتظة بحجاج بيض وسود وسمر وحمر وصفر وشقر بعيون زرق، وأنا بينهم بشعري الأكرت الأحمر وكلنا سواء يجمع بيننا الإسلام. وسرى خبري في الطائرة من مقعد إلى مقعد، أنني مسلم من أمريكا فالتفتت إليّ الوجوه باسمة، وعندما قدم لنا الطعام كان الخبر قد وصل إلى غرفة القيادة، فجاء قائد الطائرة وهو مصري ليسلم علي وإذا به أشد مني سواداً، بحيث كان يمكن أن يعبر هارليم ولا يتلفت إليه أحد. كان سعيداً بمقابلة أمريكي مسلم ودعاني لزيارة غرفة القيادة فلبيت دعوته على الفور.

ودخلت غرفة القيادة وإذا بمساعده أشد منه سواداً. لم أكن في حياتي قد رأيت رجلاً أسود يقود طائرة. ونظرت إلى سبورة القيادة بكل ما عليها من أزرار وإلى الربانين اللذين ينظران إلي ويبتسمان ويغدقان علي مزيداً من ذلك التكريم الذي كنت

ألقاه منذ تركت التراب الأمريكي، فبقيت أنظر إلى السماء من خلال الزجاج وأفكر في ذلك. كنت قد ركبت من الطائرات في أمريكا ما قد لا يكون أي زنجي آخر قد ركبه، ولكن أحداً لم يدعني أبداً لزيارة غرفة القيادة. وكان بجانبي الحاجان اللذان يجلسان إلى جواري في الطائرة وأحدهما مصري والآخر سعودي، ونحن وقوف في تلك الغرفة في طريقنا إلى الحج، ومرة أخرى عرفت أن الله معي كما أن «الليلة قبل الغد».

ورجعت إلى مقعدي وبقيت أردد مع الركاب: «لبيك اللهم لبيك!» حتى وصلنا جدة، وهي مدينة على البحر الأحمر يوجد بها المطار الذي تنزل فيه طائرات الحجاج وتقع على بعد حوالي أربعين ميلاً غرب مكة. كان مطار جدة أكثر اكتظاظاً من مطار القاهرة فشققنا حشوداً من كل جنس ووقفنا في صف طويل لإجتياز الجمارك. كانوا قد عينوا لنا المطوف الذي سيتولى نقلنا إلى مكة، وكان بعض الحجاج يكتفي بقول: «لبيك اللهم لبيك!» بينما يزيد عليها البعض الآخر: «لبيك لا شريك لك لبيك! إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك». وهو دعاء يؤكد وحدانية الله.

لم يكن هناك من رجل في ذلك المطار إلا كان يرتدي لباس الإحرام ما عدا الموظفين والمطوفين وأعوانهم الذين كانوا يلبسون أقمصة طويلة وقلانس بيضاء وينتعلون النعال.

وكلمة مطوف مشتقة من الطواف ومعناه في اللغة العربية الدوران (حول الكعبة). كنت أشعر بالقلق والرهبة وأقول في نفسي وأنا في الصف: «أنظر ماذا ستبرز لهم!» كنت في قلب العالم الإسلامي، في النبع وكنت على وشك أن أبرز لهم الجواز الأمريكي الذي يرمز إلى نقيض كل ما ينادي به الإسلام. وشعر القاضي المصري بما يعتريني فربت على كتفي. وكنت حيثما وليت وجهي أجد حباً وتواضعاً وأخوة صادقة توشك أن تتجسد.

ووصلنا إلى موظفي الجمارك الذين ينظرون في الجوازات ويفتشون الحقائب ثم يومئون للحجاج بالمرور، وحاولت فتح حقيبتي فلم تنفتح وخشيت أن يعتقدوا أن بها ممنوعات فكسرتها ثم فتح الموظف جوازي ووجده أمريكياً فقال شيئاً وبدأ أصدقائي يتكلمون من حولي بسرعة ويحركون أيديهم ويشيرون محاولين التوسط لي عنده، ثم طلب مني القاضي رسالة الدكتور شواربي فأعطيتها له وألقاها إلى الموظف فقرأها وأرجعها له وكأنه لم يقتنع، فدخل القاضي معه في نقاش. كنت كالغبي بينهما لا

أستطيع أن أقول كلمة واحدة ولا أستطيع حتى أن أفهم ما يقال. وأخيراً التفت القاضي إلي وقال بحزن إن علي أن أمثل أمام القاضي الشرعي ليعطيني الإذن بدخول مكة. كان أصدقائي واجمين فقلت لهم: «لا تقلقوا علي. لن يحدث لي شيء. إن الله سيرشدني» فقالوا إنهم سيدعون لي وجاء المطوف في قميصه الطويل يحثهم على الذهاب فذهبوا وأنا أرد على تلويحهم وأتبعهم بنظراتي. لم أكن في حياتي قد وجدتني بين مثل هذه الحشود، ومع ذلك شعرت بوحشة لم أشعر بها منذ كنت طفلاً.

كانت الساعة حوالي الثالثة من صباح يوم الجمعة وهو اليوم الذي يقابل يوم الأحد في الغرب الذي يجتمع الناس فيه للصلاة جماعة ومن ثم تسميته بالجمعة. ومعنى ذلك أنه يوم عطلة وأن المحكمة لا تفتح والقاضي لا يشتغل وأن علي أن أنتظر حتى يوم السبت على الأقل.

ونادى موظف أحد مساعدي المطوفين وقال له شيئاً ثم شرح لي بإنجليزية ركيكة أنه سيذهب بي إلى مكان أقيم فيه موقتاً يوجد في المطار نفسه. وأردت أن أقول إن القانون ينص على ألا ينفصل المسافر عن جوازه، ولكنني عدلت عن ذلك وسرت مع مساعد المطوف. هو بطاقيته وقميصه الطويل وشبشبه وأنا في الفوطتين والنعل والناس من حولنا تتكلم كل اللغات ما عدا الإنجليزية فوجدتني في حالة يرثى لها.

كان في خارج المطار مباشرة مسجد وبناية من أربع طبقات وكان الفجر يقترب والطائرات تقلع وتنزل وأضواؤها تمسح المدرجات أو تلمع في الفضاء، وحجاج من كل مكان، من غانا وأندونيسيا واليابان وروسيا يخرجون من البناية التي نقصدها أو يدخلونها في منظر بشري زاهٍ لا أظن أن أية كاميرا قد التقطت نظيره. ودخلنا البناية وصعدنا سلماً إلى الطبقة الرابعة ونحن نمر بأشخاص من الصين وأندونيسيا وأفغانستان ومن بينهم من ما يزال في لباسه الوطني. كانوا كأنهم صور على صفحات مجلة ناشينل جيوغرافيك.

وفي الطبقة الرابعة أدخلني دليلي غرفة بها حوالي خمسة عشر شخصاً معظمهم ينام مكوراً على السجادات، ومن بينهم نساء عرفتهن من رؤوسهن وأقدامهن المغطاة، وأومأ لي أن هذا هو المكان الذي سأبقى فيه. وكان روسي عجوز وزوجته صاحيين فحدقا فيّ. واستيقظ مصريان وفارسي وأخذوا ينظرون إلى الدليل وهو ينتحي بي ركنا ويفهمني بالإشارة أنه سيريني كيفية أداء الصلاة. تصورا! كنت رجل دين مسلم وزعيماً

في أمة إسلام إلايجا محمد ولم أكن أعرف كيف أصلي.

وحاولت أن أقلده وأنا أشعر بالعيون موجهة إلي وأشعر أنني لا أصلي على الوجه الأكمل، إذ لم يكن من السهل على رُكَبٍ غربية تعودت الجلوس على الكراسي أن تنطوي بليونة ركب المسلمين. وركع الدليل فحاولت أن أركع ولكنني بقيت متصلباً. وبقي يعلمني ساعة من الزمن ثم ذهب بعدما أومأ لي بأنه سيعود. لم أكن أشعر بالنوم فبقيت أتمرن والمسلمون ينظرون إليّ وأنا لا أبالي، حتى أصبحت أتقن السجود، ولكن ما مر يوم أو ثلاثة حتى تورم كوعاي.

وأذن الفجر فاستيقظ النائمون وشعروا بي فبقينا نتبادل النظرات، ثم بدأت أدرك أهمية السجاد عند المسلمين. كان لكل شخص سجادة صلاة ولكل زوجين أو جماعة من الناس سجاد كبير. وصلى المسلمون في تلك الغرفة كل على سجادته ثم فرشوا فوق سجاد كبير منديلاً وأكلوا عليه فأصبح السجاد غرفة طعام، ثم حملوا الصحون والمنديل وجلسوا على السجاد فأصبح السجاد غرفة جلوس، وكانوا من قبل يفترشونه فكان غرفة نوم. حينذاك أدركت لماذا كان تاجر المسروقات في بوسطن يدفع لنا كل تلك المبالغ في السجاد الشرقي، أدركت أن غلاءه يعود إلى إتقانه الذي يعود إلى أهميته في بلاد له فيها كل هذه الوجوه من الإستعمال. فيما بعد رأيت في مكة إستعمالاً آخر للسجاد. عندما كان ينشب نزاع بين شخصين كان رجل محترم ومحايد يأتي فيجلس على السجاد ويجلس الخصمان بين يديه فيصبح السجاد محكمة، وفي حالات أخرى يصبح فصلاً دراسياً.

كان أحد المصريين ينظر إليَّ باستمرار من طرف خفي فابتسمت له فقام وجاء إلي وقال بالإنجليزية: «أهلاً» فأوسعت ابتسامتي وسألته عن اسمه فلم يفهم فقلت: «إسم إسم؟» ففكر ملياً ولم يفهم فجربنا بضع كلمات أخرى. كانت مفرداته الإنجليزية لا تتعدى العشرين أي أنها بالعدد الكافي لإصابتي بالإحباط، وبدأت أعلمه مفردات جديدة وأقول: «سماء» وأشير إلى السماء فيضحك وأعيد: «سماء» مشيراً إليه بأن يكرر بعدي فكان يفعل وأقول: «طائرة... سجاد... قدم... صندل... عيون...» وهكذا ثم حدث شيء غريب. أسعدني أنني وجدت أخيراً إنساناً أتفاهم معه فبدأت أقول أي شيء يخطر ببالي إلى أن قلت: «محمد علي كلاي» فاستنار المسلمون كشجرة الميلاد وقال صديقي وهو يشير إلي: «أنت؟ أنت؟» فحركت رأسي بالنفي

وقلت: لا، لا. محمد علي كلاي صديقي... صديقي!» وفهم البعض بعض الشيء ولم يفهم الآخرون، فشاع في البناية أنني محمد علي كلاي بطل العالم في الوزن الثقيل. فيما بعد علمت أنه ليس هناك في العالم الإسلامي رجل أو امرأة أو طفل لا يعرف أن صوني ليستون الذي يتصورونه غولاً قد هزم على يد كاسيوس كلاي الذي أعلن للعالم أن اسمه قد أصبح محمد علي ودينه الإسلام وأن النصر جاءه من عند الله. وكان ذلك النوع من التواصل أهم ما حدث في تلك القاعة فغير موقف سكانها مني بعدما عرفوا أنني أمريكي. أصبحت نظراتهم إلي مشفوعة بالمراقبة وبدأوا يكثرون من الإبتسام والإقتراب مني والتفرس فيّ وكأنني رجل من المريخ.

ورجع مساعد المطوف فأومأ لي بأن أتبعه، ثم أشار من الشرفة إلى المسجد ففهمت أنه جاء ليأخذني لصلاة الفجر، فتبعته واختلطنا بآلاف الحجاج الذين كانوا يتكلمون كل الألسن ما عدا اللسان الإنجليزي. وسرت معه وأنا حانق على نفسي لكوني لم أتعلم الصلاة قبل أن أغادر أمريكا. كنا في أمة إسلام إلايجا محمد لا نتلو الأدعية بالعربية، وكان أحد مسلمي بوسطن السنيين واسمه عبد الحميد قد زارني في السجن منذ إثنتي عشرة سنة وبعث لي أدعية بالعربية فتعلمت كيف أنطقها ولكنني لم أستعملها. وارتأيت أن أراقب الدليل أولاً ثم أفعل ما يفعله ولم أجد صعوبة في إقناعه لأنه كان يفكر في الشيء نفسه على كل حال.

كان بجانب المسجد دورة مياه بها حوض يعتليه صف من الحنفيات للوضوء الذي يسبق الصلاة. كنت أعرف ذلك. وراقبت مساعد المطوف ولكنني عندما أردت أن أفعل كل شيء وحدي أخطأت، سيما وأن من سنن الوضوء ترتيب الفرائض.

بعد ذلك تبعته إلى المسجد ووقفت خلفه مباشرة وبدأت أقرأ معه: «باسم الله الرحمان الرحيم» ثم بدأت أهمهم مردداً ما يقوله من غير معرفة دون أن يبدو ذلك علي. أنا لا أريد أن يحمل قولي هذا محمل الطرافة لأنه لم يكن بالنسبة لي طريفاً. وأرجعني دليلي إلى الطبقة الرابعة في تلك البناية، ثم تركني بعدما أفهمني أنه سيعود بعد ثلاث ساعات.

وخرجت إلى الشرفة وجعلت أطل على المطار. كانت الطائرات تحط وتقلع في انتظام والحجاج يتدفقون من باب المطار بالألوف وبعضهم في ملابس زاهية ثم يغادرون إلى مكة على متن الحافلات والشاحنات والسيارات، بل وحتى على الأقدام

أحياناً، فتمنيت لو كنت مع المشاة سيما وقد كان بوسعي أن أفعل ذلك على الأقل دون أن يعلمني إياه أحد.

كنت خائفاً ألاّ يسمحوا لي بزيارة مكة وأداء الحج، وكنت أتساءل عن نوع الأسئلة التي سيطرحها علي القاضي وعن موعدي معه حين جاءني الفارسي وقال في تردد: «أمر... أمريكي؟» ثم أومأ لي بأنه يريدني أن أقاسمه وزوجته فطورهما على سجادهما. وكنت أعرف أن دعوة رجل مسلم لك لشرب الشاي مع زوجته تفضّل كبير منه، ولم أشأ أن أفرض نفسي عليه فحركت رأسي في ما معناه: «لا، شكراً» ولا أدري إن كان قد فهم دوافعي، ومع ذلك جاءني بكوب من الشاي وحلوى، فتذكرت أنني لم أفكر في الأكل حتى ذلك الحين. وبدأ الآخرون يكلمونني بالإشارة. كانوا يأتونني ويبتسمون ويحركون رؤوسهم بعدما كان الرجل الذي يتكلم قليلاً من الإنجليزية قد نشر خبري في البناية ورحل.

كانت حركة السيارات قد كثرت والمسلمون يدبون باسمين في لباس الإحرام أو في أزياء وطنية. ولم يرجع مساعد المطوف في الموعد الذي حدده لي، فبدأت أقلق وأنا رجل قلق بطبعي. خفت أن يكون قد تخلى عني بعدما تبين له أنني حالة ميؤوس منها. وشعرت بالجوع. كان كل المسلمين في القاعة قد قدموا لي طعاماً رفضته، لأنني بصراحة لم أكن أعرف إن كان علي أن آكل كما يأكلون من إناء واحد على سجاد به كل شيء.

وبقيت أتفرج على الساحة من تلك الشرفة، ثم عنّ لي أن أخرج فنزلت، وفي الطبقة الأولى خطر لي أن أحداً قد يأتي للسؤال عني فرجعت، وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة نزلت مرة أخرى ووجدت في الساحة مطعماً صغيراً فدخلته. كان مكتظاً وضاجاً بكلام بكل اللغات. وطلبت بالإشارة دجاجة مشوية كاملة وشيئاً كأنه قطع سميكة من البطاطس المقلية ثم رجعت إلى الساحة فافترست تلك الدجاجة شأن كل من كان حولي. ورأيت رجالاً يناهزون السبعين يجلسون متربعين ويأكلون في تؤدة ورضى وكأنهم في أفخم الفنادق. كان هؤلاء المسلمون يأكلون معاً وينامون معاً وكان كل ما حولهم يبلور وحدة الإنسان في كنف وحدة الله.

وبقيت أخرج ذلك اليوم وأوغل في التجول مرة بعد مرة حتى وقعت على رجلين أسودين هززت لهما رأسي وإذا بأحدهما لدهشتي الشديدة يرد علي بإنجليزية بريطانية،

ولكن فرحتي لم تدم، إذ سرعان ما عرفت أنهما يتأهبان للذهاب إلى مكة. وقلت لهما إنني أمريكي فقالا إنهما من الحبشة وأنهما درسا في القاهرة ويعيشان في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية. فيما بعد تعجبت عندما قيل لي إن عشرة ملايين من سكان الحبشة مسلمون والباقي، أي ثمانية ملايين مسيحيون، على عكس الإعتقاد السائد بأن إثيوبيا مسيحية كلها، والحقيقة أن حكومتها مسيحية لأن الغرب يحرص على أن تكون كذلك.

وصليت المغرب ثم اضطجعت في سريري وأنا أشعر بالوحشة والوحدة، وبغتة لمعت في ذهني فكرة. كنت قد رأيت في الساحة أربعة رجال رسميين في مكتب عليه مهتف وتذكرت رقم المهتف الذي أعطانيه الدكتور شواربي في نيويورك، رقم ابن المؤلف الذي بعث لي كتابه والذي يعيش هنا في جدة!.

وما هي إلا دقائق حتى كنت عند الموظفين الأربعة. كان أحدهم يتكلم إنجليزية وظيفية فأعطيته رسالة الدكتور شواربي في إنفعال وقرأها سراً ثم جهراً على أصحابه فقالوا في دهشة: «مسلم من أمريكا؟». وسألت الذي يتكلم الإنجليزية أن يطلب لي الدكتور عمر عزام ففعل بسرور. ورد عليه شخص كلمه بالعربية ولم يلبث الدكتور عزام أن جاء إلى المطار. شد على يدي بقوة والموفظون الأربعة ينظرون إلينا ويبتسمون. كان طويلاً، قوي البنية ومهذباً للغاية، وكان في أمريكا سيعتبر رجلاً أبيض. ولفت انتباهي بشدة أنني بسبب سلوكه لم أشعر أنه رجل أبيض. وقال معاتباً: «لماذا لم تكلمني من قبل؟» وأخرج للموظفين ورقة تعريف ما ثم استعمل مهتفهم ليتصل بأحد المسؤولين في المطار ثم قال له: «تعال!» وفي نصف ساعة كان قد فك أسري وأرجع لي حقيبتي وجوازي وأركبني إلى جواره في سيارته وأخذ يشق بي شوارع جدة وأنا بالفوطتين والنعل. وبفعل سلوكه لم أشعر بوجود أي فرق بيني وبينه. كنت قد سمعت بالكرم العربي ولكن حرارته تفوق كل تصور.

وسألته عن نفسه فعرفت أنه درس الهندسة المعمارية في سويسرا وتخصص في تخطيط المدن وأن الحكومة السعودية تستعيره من الأمم المتحدة ليشرف على أشغال إصلاح الحرمين وأن أخته متزوجة من نجل الملك فيصل.

وهكذا وجدتني في جدة في سيارة صهر ابن العاهل السعودي، ولم يكن ذلك أقصى ما كان الله سيمن به علي، إذ قال لي الدكتور عزام إن والده الذي كان يعرف

بعزام باشا قبل أن يلغي جمال عبد الناصر الألقاب في مصر ينتظرني في بيته، والده المؤلف الذي بعث لي بتلك النسخة من كتابه. وزاد: «إنه يعمل مع الأمم المتحدة ويتابع أخبارك باهتمام كبير» فبقيت في تلك السيارة مذهولاً.

ووصلنا البيت في ساعة مبكرة من الصباح فوجدنا والد الدكتور عزام وعمه (وهو كيميائي) وصديقاً لهما قد استيقظوا لاستقبالي في ذلك الوقت المبكر فعانقوني على التوالي بحرارة. مع أنني لم أكن قد رأيت أولئك الرجال من قبل، عانقوني بحرارة واحتفوا بي احتفاء عظيماً. سأقول لك، إنني في حياتي لم أشهد نظيراً لذلك الإحتفاء والكرم.

وجاء خادم بالشاي والقهوة ثم انسحب. وسألوني أن آخذ كل راحتي. لم يكن هناك في ذلك البيت أثر لامرأة سعودية، بلد يخيل إلى المرء فيه بسهولة أنه خال من النساء.

كان الدكتور عبد الرحمان عزام يتكلم طوال الوقت وكانوا يسألونني بين الفينة والأخرى لماذا لم أطلبهم من قبل؟ ولا يفهمون لماذا لم أفعل ويسألون إن كنت قد تضايقت من بقائي في المطار. كانوا محرجين من ذلك ومن إرجاء سفري إلى مكة فحاولت أن أقنعهم بأن ذلك لم يسبب لي أية مضايقة ولكنهم لم يقتنعوا.

وقال الدكتور عزام: «يجب أن تستريح» ثم حمل سماعة المهتف وأخذ يتكلم ولم يكن ما يدبره ذلك الرجل المرموق بذلك المهتف ليخطر على بالي، وعندما قيل لي إنني سأعود للعشاء معهم وأنني سأذهب في السيارة لم أكن أعرف أنني على وشك أن أشهد عصارة الكرم الإسلامي.

كان الدكتور عزام ينزل في جدة في جناح خاص بفندق جدة بالاس، ولأنني كنت ضيفهم بتوصية من أحد أصدقائهم، قرر أن ينتقل إلى بيت ابنه ويترك لي جناحه في الفندق. وحاولت عبثاً أن أعترض على ذلك عندما أدركته، ولما تركني الدكتور عزام الإبن في جناح والده وذهب، لم تعد هناك فائدة من الإعتراض.

كان رقم ذلك الجناح ٢١٤ وكان من ثلاث غرف وحمام في حجم غرف النوم الكبرى بفندق هيلتون نيويورك وشرفة تطل على المدينة العتيقة. وشعرت برغبة في الصلاة لم أشعر بها من قبل فصليت على سجاد غرفة الإستقبال.

لم يكن في حياتي كرجل أسود في أمريكا، ما يجعلني أعتبر أية خدمة تقدم لي خالصة لوجه الله. وذلك الصباح في ذلك الفندق الذي جئته من فراش بسيط في قاعة نوم جماعية، كنت أعيش لحظة من اللحظات القليلة في حياتي التي شعرت فيها بضعفي.

كان رجل أبيض (على الأقل كان في أمريكا سيعتبر كذلك) صهر ملك ومستشاره وشخصية دولية قد أعطاني جناحه الخاص لكي أرتاح دون أن تكون له أية مصلحة في ذلك. رجل في غنى تام عني ويملك كل شيء، أية مصلحة ستكون له في ذلك؟ الحقيقة أن معرفتي كانت كفيلة بأن تضره أكثر مما تنفعه. إنه يتتبع أخباري في الصحافة الأمريكية ويعرف أنني موصوم وموصوف بـ«العنصرية» و«معاداة البيض» وهو رجل أبيض بكل المقاييس، ويعرف أنني «مجرم» ومتهم فوق ذلك كله باستعمال الإسلام كمطية لممارساتي وفلسفاتي الإجرامية. وحتى لو فرضنا أنه يريد استغلالي فكيف يستغلني وهو يعلم أنني انفصلت عن إلايجا محمد وأمة الإسلام وهما «مصدر قواي» على حد تعبير الصحافة الأمريكية ويعلم أن المنظمة الوحيدة التي أملكها لا يتعدى عمرها الأسبوعين؟ ثم كيف يستغل رجلاً مثلي لا مال له ولا عمل كان عليه لكي يؤدي فريضة الحج أن يستدين من أخته؟.

ذلك الصباح بدأت أعيد النظر في تقييمي لـ«الرجل الأبيض» وأدرك أننا عندما نستعمل عبارة «الرجل الأبيض» لا نقصد اللون وإنما نقصد المواقف والمعاملة. عندما نقول «رجل أبيض» في أمريكا نعني مواقف خاصة ومعاملة خاصة للإنسان الأسود ولكل من ليس بأبيض، ولكنني في العالم الإسلامي وجدت رجالاً بيضاً أكثر تلقائية في إخائهم من أي شخص آخر. ذلك الصباح تغيرت نظرتي الشاملة لـ«البيض» وسأورد هنا ما كتبته في ذلك الفندق والساعة تقارب منتصف النهار:

«أشعر بانفعال شديد وأنا جالس هنا في انتظار أن أمثل أمام لجنة الحج. نافذتي الغربية تطل على البحر والشوارع تحت تكتظ بحجاج من كل حدب وصوب يلهجون بالدعاء ويرتلون القرآن. مشهدهم جميل لم تبصر له عيني نظيراً وهذا الجو لم يسبق لي أن شعرت به. وعلى الرغم من انفعالي أشعر بالأمن والأمان وأنا على بعد آلاف الأميال من الحياة المناقضة التي عشتها. منذ أربع وعشرين ساعة كنت قلقاً ووحيداً في غرفة جماعية في الطبقة الرابعة من بناية الحجاج بالمطار، وأنا مع أشخاص لا أستطيع

أن أتفاهم معهم وبمكالمة هاتفية واحدة قابلت رجلاً مرموقاً في العالم الإسلامي سأنام في فراشه. أحس أنني مع أصدقاء صادقين ومتدينين وأحس بالرغبة في الصلاة، شكراً لله والدعاء لزوجتي وبناتي في أمريكا وسؤال الله أن يكافئهن على تضحياتهن».

وصليت أربع ركعات كما قلت في المذكرة ثم نمت حوالي أربع ساعات حتى أيقظني جرس المهتف. وجدت المتكلم عزام الإبن وقال إنه سيأتي ليأخذني للعشاء بعد حوالي ساعة وأردت أن أشكره وتعثرت فقاطعني قائلاً: «إن شاء الله».

وفتحت الباب لأنزل إلى البهو وأتفرج عليه قبل أن يأتي عزام، فوجدت رجلاً في لباس رسمي يخرج من الباب المقابل وينزل السلم وسط حاشية، فنزلت في إثرهم ثم سرت خلفهم إلى مدخل الفندق حيث كان أسطول من السيارات في انتظارهم. وما كاد الرجل يخرج إلى الشارع حتى هرع الناس إليه والتفوا حوله وأخذوا يقبلون يده وسألت عنه فقيل لي إنه مفتي القدس. فيما بعد جمعتني به جلسة خاصة وتحدثت معه حوالي نصف ساعة فوجدته ودياً ومهيباً وعلى إطلاع بما يجري في العالم وبآخر الأخبار في أمريكا.

لن أنسى عشاء تلك الليلة في بيت الدكتور عزام. ومرة أخرى سأعود إلى مذكرتي لاستحضار ما كتبته:

«لا أستطيع في قرارة نفسي أن أقول إن هؤلاء الرجال «بيض». لقد عاملوني كما لو كنت أخاهم وعاملني الدكتور الكبير كما لو كنت ابنه وكنت أشعر فعلاً كأنه أبي. واضح أنه دبلوماسي محنك، دبلوماسي بكل معنى الكلمة ورجل له إطلاع دقيق على شؤون العالم. معلوماته تنصب من معين لا ينضب. قال إن نسل الرسول فيه الأبيض والأسود وأن اللون في العالم الإسلامي لا يشكل مشكلة إلا في الأماكن التي يوجد بها تأثير غربي، وأنه إذا حدث ووجد موقف من اللون في مكان ما من العالم الإسلامي فإنه يعكس مدى تأثير الغرب في ذلك المكان. وعلمت ونحن في العشاء أن لجنة الحج قد أحيطت علماً بأمري وأنني سأمثل بين يديها في الصباح.

وفي الصباح ذهبت إلى المحكمة فلم يكن بها فيها عدا القاضي الشيخ محمد حرقون إلاي وأخت من الهند كانت بروتستانتية وأسلمت وجاءت مثلي لتحج. وكانت سمراء، ذات وجه صغير يغطي حجاب معظمه. وكان القاضي رجلاً رحيماً ومهيباً. وسألني عدة أسئلة تعود إلى صدق إسلامي فأجبته بكل ما أملك من صدق. وأقر

إسلامي وأعطاني كتابين أحدهما بالعربية والآخر بالإنجليزية ثم دون اسمي في سجل ثم رفع الجلسة وقال: «أرجوا أن تصبح داعية كبيراً للإسلام في أمريكا» فقلت له إنني أشاطره هذا الرجاء وأنني سوف أعمل على تحقيقه.

وأطلعت آل عزام على الخبر السعيد فسروا به ثم تغديت في الفندق ونمت بضع ساعات حتى أيقظني جرس المهتف. كان المتكلم محمد عبد العزيز ماجد رئيس البروتوكول الملكي وقال: «إن سيارة خاصة ستأتي لأخذك إلى مكة بعد العشاء» وأوصاني بالأكل جيداً لأن مناسك الحج تتطلب مجهوداً كبيراً. كان ذهولي حتى ذلك الحين قد بلغ حده فشعرت بما يفوق الذهول.

ورافقني شابان عربيان فسرنا في طريق سيار منار ومريح للغاية. كنا نصادف بين الفينة والفينة حراساً فكانوا يلقون على السيارة نظرة وكان السائق يلوح لهم ويمضي دون أن يحتاج حتى إلى تخفيض سرعته، وكنت أشعر بمزيج من الفرحة والأهمية والتواضع والإمتنان.

ودخلنا مكة فإذا هي قديمة قدم الزمان، ثم سار السائق ببطء في أزقة ملتوية تصطف على جوانبها الدكاكين والحافلات والسيارات والشاحنات وتكتظ بعشرات الآلاف من الحجاج، وأوقف السيارة في مكان كان المطوف ينتظرني فيه، وكان عربياً قصير القامة وداكن اللون يضع القلنسوة البيضاء والقميص الطويل اللذين رأيتهما في المطار ولا يتكلم حرفاً واحداً من الإنجليزية.

وتركنا السيارة بجانب الحرم ثم توضأنا ودخلنا فإذا الحجاج يوشك أن يكون بعضهم فوق بعض ومنهم من يتمدد ومن يجلس ومن ينام ومن يصلي ومن يمشي، وإذا المسجد المشيد حول الكعبة في عظمة لا تستوعبها الكلمات، وإذا أنا أدرك بسرور غامر أن كل هذا تم على يد الدكتور عزام الإبن الذي كنت ضيفه منذ حين. إن حرم مكة عندما ينتهي إصلاحه سيفوق قصر تاج محل الهندي من حيث الجمال الهندسي.

وسرت وأنا أحمل نعلي خلف المطوف ثم رأيت الكعبة، بيت ضخم من الحجر الأسود في قلب الحرام تحدق به الألوف المؤلفة من الحجاج نساء ورجالاً في كل الأحجام والأشكال والألوان. وكنت أعرف الدعاء الذي يتلى عند استقبال الكعبة فأخذت أردده: «اللهم أنت السلام ومنك السلام فاستقبلنا بالسلام يا رب!»

في الطواف يستحسن بعد كل شوط أن يقبل الحاج الحجر الأسود، فإن لم يستطع اكتفى بلمسه، فإن لم يستطع استقبله من بعيد ورفع يده مكبراً. ولما تبين لي أن تقبيلي له محال اكتفيت بالتكبير.

كنت أشعر بتخدر شامل وكان المطوف قد شق بي الحشود التي تطوف وتدعو وتطفح وجوهها بالإيمان ومن بينها شيوخ وعجزة يحملهم غيرهم. وأنهيت الأشواط السبعة فصليت ركعتين الأولى بالفاتحة وقل يا أيها الكافرون والثانية بالفاتحة وقل هو الله أحد والمطوف واقف يرد الطائفين عني. بعد ذلك شربنا من ماء زمزم أنا وهو ثم سعينا بين الصفا والمروة مكررين ما فعلته هاجر عندما كانت تبحث لابنها إسماعيل عن الماء. ذلك اليوم رجعت إلى الكعبة ثلاث مرات وطفت بها.

وفي اليوم التالي صلينا الصبح وخرجنا إلى عرفات ونحن نردد: «لبيك اللهم لبيك!» و«الله أكبر». كانت مكة محاطة بأخشن وأقحل شعاب رأيتها، شعاب يخيل إليك أنها من حمم.

ووصلنا عرفات في منتصف النهار فبقينا ندعو حتى المغرب ونقول ونحن نرفع أكفنا نحو السماء: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». وبتلك الوقفة في عرفات كنا قد أدينا أساس الحج الذي لا يصح حج من دونه. وبعدها رمينا الجمرات وحلق البعض رؤوسهم ولحاهم ولكنني قررت أن أبقي على شعر رأسي ولحيتي لأنني كنت أفكر في ما عسى أن تقوله زوجتي بيتي وبناتي إذا رأينني بلا لحية ولا شعر. بدت لي نيويورك بعيدة بعد السماء ولم تكن هناك جريدة أستطيع قراءتها فلم أعلم بما كان يحاك ضدي فيها. كان البوليس قد اكتشف بهارليم نادي مسلحين عمره إثنتا عشرة سنة فأشيع أنني وراءه، كما كانت أمة إسلام إلايجا محمد قد رفعت ضدي دعوى تطالبني فيها بإفراغ البيت الذي أسكنه في لونغ آيلاند وكان مراسلو وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى في القاهرة يقلبون الدنيا علي لمعرفة رأيي في الغضب الذي زعم أنني أشعلته والذي لم أكن أعرف عنه شيئاً. في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلا ما تركته في أمريكا والذي يتعارض مع ما وجدته في العالم الإسلامي.

وكنت في عرفات قد جلست في خيمة كبيرة مع حوالي عشرين حاجاً كنت محط اهتمامهم بوصفي مسلماً من أمريكا، وكانوا قد سألوا عما لفت انتباهي في الحج،

فبدأت أرد على سؤالهم وبدأت القلة التي تفهم الإنجليزية تترجم للآخرين وفاجأهم جوابي ولكنهم وجدوه في الصميم. قلت لهم: «الأخوة. وحدة هذا البشر المنتمي إلى كل لون وجنس أكدت لي قدرة الله الواحد».

ولعلني أخللت بالذوق، ولكنني انتهزت الفرصة فكلمتهم عن العنصرية الأمريكية وشرها وأثر فيهم ما سمعوه تأثيراً كبيراً هم المسلمون ذوو القلوب الرحيمة والإحساس بالحق والعدل. كانوا يعرفون محنة الإنسان الأسود في أمريكا، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنها لا إنسانية إلى ذلك الحد، وأنها تصيب النفس إصابة وخيمة. وكانوا يدركون أن العنصرية شر ما في الوجود لأنها دليل على عجز الإنسان، ولا سيما في الغرب عن العيش في وحدة.

كنت حتى ذلك الحين قد صغت في ذهني رسالة حول إنعدام الإحساس باللون في العالم الإسلامي الراجع إلى التدين والإنسانية، وهما الصفتان اللتان كان أثرهما علي يزداد يوماً بعد يوم ويغير تفكيري.

وكانت تلك الرسالة بالطبع لزوجتي بيتي، ولم أشك لحظة واحدة في أنها بعدما تفيق من الصدمة ستغير موقفها وتتبنى رأيي وأنها ستفهم أن الله هداني في أرض محمد وإبراهيم إلى الإسلام الحقيقي وفهم المعضلة العنصرية في أمريكا فهماً أفضل. وكتبت رسالة أخرى لأختي إيلا قلت لها فيها الشيء نفسه، وكنت أيضاً أعرف موقفها إذ كانت هي نفسها قد نوت الحج. وكتبت للدكتور شواربي الرجل الذي اقتنع بصدق إسلامي ففتح لي أبواب مكة ثم أمضيت بقية الليل في نسخ رسائل في المعنى نفسه إلى أصدقائي المقربين ومن بينهم ولاص ابن إلايجا محمد الذي كان قد عبر لي عن اقتناعه بأن أمة الإسلام لن ينقذها إلا الإسلام السني. وكتبت لمساعدي المخلصين في مسجدي الجديد بهارليم وأرفقت لهم ملحوظة قلت فيها أن يوزعوا نسخاً من تلك الرسالة على الصحافة. كنت أعرف أن تلك الرسالة ستذهل الأصدقاء والأعداء والملايين ممن لم أكن أعرفهم والذين كانوا ينظرون إلي طوال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها مع إلايجا محمد على أنني داعية للكراهية. ولم تكن الرسالة من دون سوابق فقد كانت حياتي سلسلة من التحولات. في تلك الرسالة كتبت من صميم قلبي:

«في حياتي لم أشهد أصدق من هذا الإخاء بين أناس من كل الألوان والأجناس أذهلوني خلال الأسبوع الماضي بما رأيته منهم من لطف.

لقد منَّ الله علي فحججت البيت وطفت به برفقة مطوف اسمه محمد وشربت من ماء زمزم وسعيت بين الصفا والمروة وصليت في منى ووقفت بعرفات مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرض والذين يمثلون كل درجات الألوان البشرية من الشقر ذوي العيون الزرق إلى الأفارقة السود فأديت معهم المناسك نفسها في إخاء ووحدة كنت أحسب من تجربتي في أمريكا أنهما أمران مستحيلان بين الإنسان الأبيض والأسود.

إن أمريكا في حاجة إلى فهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يملك حل مشكل العنصرية فيها. وخلال سفري في العالم الإسلامي قابلت وكلمت بل وأكلت مع رجال كانوا سيعتبرون «بيضا» في أمريكا ولكن الإسلام محا الموقف «الأبيض» من سلوكهم، ورأيت لأول مرة في حياتي أناساً من كل الألوان لا ينظرون إلى ألوانهم ويعيشون في إخاء صادق وحقيقي.

قد يدهشكم ما سأقوله، ولكن ما رأيته وعشته في هذه الحجة قلب أفكاري وجعلني أتخلص بسهولة من بعض استنتاجاتي السابقة. لقد كنت دائماً أحاول على الرغم من اقتناعاتي السابقة أن أجابه الوقائع وأقبلها على ضوء التجارب والإكتشافات لأن لي عقلاً متفتحاً ومرناً وهما الصفتان الضروريتان للبحث عن الحقيقة.

وخلال الإثني عشر يوماً التي قضيتها في العالم الإسلامي أكلت من إناء واحد وشربت من كأس واحدة ونمت في فراش واحد (أو على سجاد واحد) وأنا أعبد رباً واحداً، مع مسلمين عيونهم زرقاء كأشد ما تكون الزرقة، وشعورهم شقراء كأشد ما تكون الشقرة، وجلدهم أبيض كأشد ما يكون البياض، رجال وجدت في أقوالهم وأفعالهم الإخلاص نفسه الذي وجدته عند المسلمين السود القادمين من نيجيريا والسودان وغانا، وأكد لي تصرفهم أنهم يعتبرون أنفسهم أخوة متساوين معنا، لأن إيمانهم بالرب الواحد نزع «البياض» من أنفسهم وسلوكهم ومواقفهم ولذلك أعتقد أن الأمريكيين البيض إذا قبلوا وحدانية الله سيقبلون بالتالي وحدة الناس ويكفون عن وزنهم في الموازين وصدهم وإيذائهم لا لشيء إلا لإختلاف لونهم. وأمام السرطان العنصري الذي ينخر جسم أمريكا يجب أن تكون قلوب مسيحييها البيض أكثر تقبلاً للحل الإسلامي لأن التجربة أثبتت فاعليته وعسى أن تطبقه أمريكا قبل أن تدمرها العنصرية كما دمرت ألمانيا من قبل.

إن كل ساعة أمضيها في هذه البقاع المقدسة تزيدني فهماً لما يجري بين البيض والسود في أمريكا وتزيدني إقتناعاً بأنه لا يحق لنا أن نلوم الزنجي الأمريكي على حساسيته العنصرية لأنها رد فعل على الوعي العنصري الأبيض الذي عانى منه منذ قرون عدة، وأن العنصرية ستقود أمريكا إلى الإنتحار وأن الأمل الوحيد معقود على قدرة شبابها الجامعي الأبيض على رؤية خطر العنصرية والوقوف مع الحق.

إنني أحظى بتكريم لم أحظ به في حياتي وأشعر بتواضع وضعة لم أشعر بهما من قبل. من يصدق أن كل هذا يغدق على زنجي أمريكي؟. من بضعة ليال أعطاني رجل كان في أمريكا سيعتبر «أبيضَ» (دبلوماسي في الأمم المتحدة وسفير ورفيق ملوك) أعطاني جناحه الخاص وفراشه وأعلم بي عاهل البلاد الملك فيصل فكلف ابنه بذات نفسه بالإتصال بي وإخباري بأنني أصبحت ضيف الدولة بأمر من والده المبجل. وأخذني رئيس البروتوكول الملكي بنفسه إلى محكمة الحج حيث صادق القاضي محمد حرقون على دخولي مكة وأعطاني كتابين عن الإسلام وضع عليهما خاتمه وتوقيعه، ودعا الله أن يوفقني إلى نشر الإسلام في أمريكا. ووضعت رهن إشارتي سيارة وسائق ومرافق فبدأت أتنقل في هذه الأرض المقدسة كيف أشاء. ووضعت الحكومة رهن إشارتي في كل مدينة زرتها مقر إقامة مكيف وخدما، وهو تكريم يخصص في أمريكا للملوك لا للزنوج فلله الحمد رب العالمين».

المخلص

الحاج مالك الشباز

(ملكوم إكس)

الفصل الثامن عشر

الحاج مالك الشباز

كان الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية قد جعلني ضيف الدولة فعاد علي ذلك بسيارة وسائق تركته دون خجل يجوب بي مكة ويعرفني بمعالمها. كانت جهات منها تبدو كما قلت في قدم الزمان، وجهات أخرى نسخة لإحدى ضواحي ميامي العصرية. ووضعت يدي على أرضها المقدسة فانتابني شعور لا يوصف.

كنت كمسلم من أمريكا محط اهتمام شديد، وكان الناس يخلطون بيني وبين كاسيوس كلاي، وكانت جريدة جهوية قد نشرت صورة لي معه في الأمم المتحدة فكان الناس يسألونني عنه بواسطة السائق الذي كان في الوقت نفسه مترجماً ومرافقاً. وكان حتى الأطفال يعرفون كلاي ويحبونه، وكانت قاعات السينما في الشرق وإفريقيا قد عرضت شريط مقابلته الحاسمة فكان يملأ خيال العالم الإسلامي ويستحوذ على قلبه، وأقلتني تلك السيارة إلى عرفات ومنى للصلاة، فكانت السياقة ضارية. كان هناك عدد مهول من السيارات وصرير الفرامل والعجلات وأصوات المنبهات، وأظن أنه ما من سيارة في تلك البقاع إلا وتنطلق باسم الله. وكنت قد بدأت أحفظ القرآن بالعربية فأصبحت مشكلتي مع الصلاة جسدية وحسب لأن الجلوس على قدمي بتلك الصورة التي لم أتعود عليها تسبب في تورم أصبع قدمي الكبرى، فكانت تؤلمني.

وسرعان ما تعودت على التقاليد الإسلامية وبدأت أتناول الطعام بيدي من إناء مشترك مع إخواني المسلمين، وأشرب دون تردد من الكأس نفسها وأغتسل من الجرة الصغيرة عينها وأنام في العراء مع ثمانية أو عشرة أنفار على السجاد نفسه. وأذكر ليلة نمنا فيها في المزدلفة تحت السماء واكتشفت فيها أن الحجاج المنتمين إلى كل أرض ولون وطبقة ورتبة، الموظفين السامين منهم والمتسولين على السواء، كلهم يغطون بلفّة واحدة.

في تلك الحجة أجزم أنه تم استهلاك مليون زجاجة من المشروبات على الأقل

وتدخين عشرة ملايين سيجارة. المسلمون العرب على وجه الخصوص كانوا لا يكفون عن التدخين. كانوا يدخنون حتى وهم محرمون وأنا على يقين أن التدخين لو وجد في عهد الرسول لحرمه.

قيل لي إن عدد الحجاج ذلك العام قد ضرب الرقم القياسي، وأخبرني برلماني تركي اسمه قاسم غوليك وهو يبتسم مزهواً أن أكثر من ست مائة حافلة جاءت من تركيا وحدها وعلى متنها ما يزيد على خمسين ألف حاج وحاجة، فقلت له إن أملي أن أرى اليوم الذي أجد فيه الطائرات والباخرات تغادر أمريكا محملة بالحجاج.

كنت أرى الناس مكتلين حسب ألوانهم. لاحظت ذلك يوماً ثم بدأت أراقبه فقد كانت عندي بوصفي من أمريكا حساسية اتجاه اللون. ولاحظت شبهاً بين أفراد المجموعات، وكان ذلك يتم بمحض الإختيار ولم يكن له أي تفسير آخر. كان الأفارقة مع الأفارقة والباكستانيون مع الباكستانيين وهكذا. وعقدت العزم على أن أقول ذلك للأمريكيين عندما أعود، أنه عندما تكون هناك أخوة صادقة بين الألوان ولا يكون هناك شعور بالفصل ومركب الكمال والنقص، أن الناس تنجذب تلقائياً بشكل طبيعي نحو المجموعة التي تجمعها بها عوامل مشتركة.

وكنت أيضاً قد عزمت على ألا آتي في حجتي القادمة إلا وأنا أعرف قدراً لا بأس به من المفردات العربية الجوهرية. لقد حالفني الحظ هذه المرة فوقعت على إخوة حباهم الله سعة الصدر فترجموا لي، وعندما لم أكن أجد المترجم كنت أحس أنني أعمى أصم لا أفهم شيئاً مما يقال من حولي وعني أو يقال لي من طرف من لا يعرفون أنني «مسلم من أمريكا» لا يحفظ إلا ما تيسر من آيات قرآنية بالعربية ولا يستطيع فيما عدا ذلك إلا أن يهز رأسه ويبتسم، وإن كنت في الحقيقة لا أكتفي بهز الرأس والإبتسام. كنت أفكر وأتأمل بمنطق أمريكي وأقول إن الناس كانت ستقبل على الإسلام بأضعاف مضاعفة لو أن صورة الحج بألوانها وروحانيتها وصلت إليهم، وأن العرب لا يفهمون نفسية غير العرب ولا يدركون أهمية العلاقات العامة، إنهم يقولون: «إن شاء الله» ثم ينتظرون أن يأتيهم الناس مسلمين. أنا لا أقول إن الإسلام لا يسير، ولكن لو كان المسلمون يستعملون مناهج العلاقات العامة المتطورة لسار بسرعة مضاعفة.

كان الناس في كل مكان يسألونني باستمرار عن العنصرية في أمريكا، وكنت

رغماً عن خلفيتي أذهل من كون العنصرية هي الصورة الأساسية والوحيدة الموجودة في أذهان الناس عن أمريكا. وكنت خلال مئات المرات التي تحدثت فيها مع مسلمين من كل المستويات ومع غير المسلمين الذين رأيتهم فيما بعد عندما زرت إفريقيا السوداء، كنت لا أحجم أو أدع الفرصة تمر دون أن أتكلم على حقيقة الجرائم والأذيات والإهانات التي يتعرض لها الإنسان الأسود في أمريكا. كنت أنتهز كل الفرص لأعلن عن محنة الإنسان الأمريكي الأسود. وكنت عندما فعلت ذلك في جبل عرفات وفي بهو فندق جدة بلاس أشير إلى أفراد معينين لأقرب الصورة من أذهانهم وأقول: «أنت... وأنت... وأنت... لو كنت في أمريكا لسموك زنجياً ولقنبلوك ورموك بالرصاص ووخزوك بالمناخس، ولوجهوا لك خراطيم النار ولضربوك بسبب لونك».

ودخلت في حوار طويل مع مفتي القدس وهو رجل أزرق العينين، أشقر الشعر قدمني إليه قاسم غوليك البرلماني التركي، وكان كلاهما متعلماً وعلى علم بما يجري في أمريكا، فسألني قاسم غوليك عن سبب انفصالي عن إلايجا محمد فقلت له إنني لا أحب أن أتكلم على خلافي معه، لأن ذلك ليس في صالح وحدة الأمريكيين السود، ففهم كلا الرجلين موقفي واقتنعا به.

وقابلت عمدة مكة الشيخ عبد الله الرائف وهو صحافي سابق كان قد كتب ينتقد سياسة بلدية مكة فعينه الملك فيصل عمدة عليها ليرى ما يفعله فنجح في مهمته نجاحاً شهد له به الجميع.

وأجرت التلفزة التونسية استطلاعاً عني بعنوان «المسلم القادم من أمريكا» أجراه صحافي كان قد أجرى مقابلة مع إلايجا محمد في شيكاغو. وكنت قد حولت بهو فندق جدة بلاس إلى مقر لاستقبالاتي وبدأت أجلس فيه إلى شخصيات من بلاد مختلفة تتوق لسماع «الأمريكي المسلم» ومن بينها أفارقة سبق لهم أن زاروا أمريكا أو سمعوا بواقع الإنسان الأسود فيها. وما زلت أذكر ما حكاه وزير إفريقي، سافر إليها بدون زيه الوطني، عن الإهانات التي تعرض لها والتي كان مجرد كلامه عنها ما يزال إلى ذلك الحين يخرجه عن أطواره فتحتقن عيناه من الغضب ويقول وهو يشق الهواء بيديه: «لماذا يصبر الأمريكي الأسود على كل ذلك الهوان؟ لماذا لا يدافع عن كرامته؟».

وأذكر أن موظفاً سودانياً سامياً عانقني وقال: «يا بطل الشعب الأمريكي الأسود!»

وأن موظفاً هندياً سامياً بكى رحمة بمن أسماهم «إخواني في أرضكم». وفكرت مراراً في كثافة العصابة الموضوعة على أعين الزنوج في أمريكا والتي تمنعهم من رؤية أحوالهم والتفكير فيها بوصفهم جزءاً من شعوب العالم غير الأبيض. إن الزنجي الأمريكي لا يشعر بما تكنه له الملايين من أفراد شعوب العالم غير الأبيض من تعاطف وأخوة. هناك في تلك البقاع المقدسة وفي إفريقيا السوداء كونت قناعة بقيت معي إلى الآن، وهي أن على الزعماء الزنوج الأمريكيين أن يزوروا البلاد غير البيضاء ويقابلوا رجالاتها السياسية ولي اليقين أنهم سيرجعون (إذا كانوا صادقين ومتفتحين) بحلول أكثر فاعلية لمشاكل الأمريكيين السود، وأن الرسميين في البلاد غير البيضاء ولا سيما الأفارقة سيهمسون في آذانهم بأنهم سيضعون كل ثقلهم لصالح قضيتهم في الأمم المتحدة وغيرها.

إن هؤلاء الرسميين يعتقدون ومعهم الحق أن الزنجي في أمريكا يعيش في بلبلة وتفرقة لم يعد هو نفسه قادراً معها على معرفة قضيته. وقد قال لي الأفارقة إن الناس لا تعرف كيف تقدم المساعدة للسود الأمريكيين وهم لم يقدموا الدليل على أنهم يريدونها.

إن مأساة «الزعماء» الأمريكيين السود في أن خيالهم وتفكيرهم وتخطيطاتهم (إن كانت لهم تخطيطات) محدودة دائماً إن لم نقل محدودة بالأساس، نظراً لما يتلقونه من استشارة أو مصادقة بيضاء. وأكثر ما يقضّ مضجع الجهاز الأمريكي الحاكم هو أن يبدأ الزنوج يفكرون على مستوى عالمي.

لقد منيت المنظمات الأمريكية السوداء وزعماؤها بفشل ذريع عندما عجزت عن إحلال اتصال قائم على الأخوة بين الأمريكيين السود والأمم الإفريقية المستقلة. وقد كان من الواجب أن يتوصل كل رئيس دولة إفريقي من السود الأمريكيين مباشرة بتقارير عن تطورات صراعهم وليس بمنشورات وزارة الخارجية الأمريكية التي توعز دائماً بأن المشكل في طريقه إلى الحل.

وقد ساعد كتابان أمريكيان مترجمان إلى العربية على تقوية الإهتمام العربي بالسود الأمريكيين وتوسيعه. الأول كتاب جايمس بالدوين والثاني كتاب جون غريفين الذي يحمل عنوان «أسود مثلي» ويحكي الأهوال التي تعرض لها رجل أبيض صبغ نفسه بالسواد وسافر إلى أمريكا مدة شهرين والذي كان يقال لي عنه: «إنه يعكس

تجربة مريعة حقاً» فكنت أقول: «إذا كانت مريعة بالنسبة له وهو لم يعشها إلا موقتاً فما بالك بمن يعيشها منذ ٤٠٠ عام؟».

وفي نهاية الحج حظيت بتشريف، صليت شكراً لله عليه، وهو استقبال الملك فيصل لي. دخلت عليه فقام من مكتبه وجاء نحوي. وكان طويلاً ووسيماً فعنت لي فكرة لم تبرح بالي. قلت في نفسي: «هذه إحدى أبرز الشخصيات في العالم، ومع ذلك أنظر كيف تتساوى فيها العزة والتواضع!». وأشار إلى مقعد مواجه لمقعده فجلست وجلس المترجم، محمد عبد العزيز ماجد رئيس البروتوكول وهو مصري أسود كأنه جاء لتوه من هارليم.

وحاولت أن أعبر للملك عن امتناني لما لقيته من تكريم فحرك يده قائلاً ما ذلك إلا كرم مسلم مع مسلم آخر، مسلم من نوع خاص، وقال إنه فعل ذلك بسرور وإنه لم تكن له أية دوافع أخرى. وجاء خادم بنوعين من الشاي بهدوء والملك يتكلم. كنت قد عرفت ابنه محمد في أحد البرامج التلفزيونية في أمريكا حين كان طالباً بإحدى جامعات شمال كاليفورنيا. وكان الملك قد قرأ ما كتبته الصحافة المصرية عن المسلمين السود فقال: «إذا كان ما كتبته هذه الصحف صحيحاً فإن ما يتبعه المسلمون السود ليس هو الإسلام الصحيح»، فشرحت له دوري في أمة الإسلام خلال الإثنتي عشرة سنة الماضية وقلت له إن هدفي من الحج هو معرفة الإسلام الصحيح فقال: «هذا جيد» وأضاف: «على أن هناك عدداً كبيراً من المنشورات عن الإسلام بالإنجليزية ولذا فإن التعلل بعدم المعرفة ليس عذراً كما أنه لا ينبغي للمسلم الحق أن يسمح لغيره بتضليله».

وعندما غادرت جدة في نهاية أبريل ١٩٦٤ متوجهاً إلى بيروت عاصمة لبنان الواقعة على البحر، كنت قد تركت جزءاً من نفسي في مكة المكرمة وأخذت جزءاً منها معي إلى الأبد. ومن بيروت ذهبت إلى نيجيريا، فغانا.

كان البعض ممن قابلتهم في الحج قد نصحوني بزيارة بعض المدن ومنها بيروت فعملت بنصحهم ووافقت على إلقاء محاضرة في جامعتها الأمريكية. وهناك بفندق بالم بيتش نمت لأول مرة منذ تركت أمريكا أطول وأهنأ نومة، ثم خرجت أتمشى فأثار انتباهي، بعد الأسابيع التي قضيتها في البقاع المقدسة، تصنّع اللبنانيات وتأنقهن. بعد نساء البقاع المقدسة اللاتي كن في منتهى البساطة والرقة كانت النقلة عنيفة إلى هؤلاء

اللبنانيات النصف عربيات النصف فرنسيات اللاتي يدل لباسهن وسلوكهن في الشارع على أنهن أكثر حرية وأكثر جرأة.

كان التأثير الأوروبي واضحاً على التراث اللبناني، واتضح لي أن القوة والضعف المعنويين للبلدان يظهران بسرعة على مظهر النساء في تلك البلدان وسلوكهن في الشارع ولا سيما الشابات، لأن انحطاط الأخلاق وذهابها ينعكسان على النساء ويأتيان نتيجة سيادة الماديات. راقب النساء في أمريكا وستفهم ما أعنيه. ويبدو أن عالم اليوم لم يعد فيه إلا التطرف بين الشيء وضده، ولو أننا وجدنا الموقف الوسط وجمعنا بين النمو المادي والقيم الروحية لأوجدنا الجنة على الأرض.

وتكلمت في الجامعة الأمريكية في بيروت على واقع الإنسان الأمريكي الأسود. وقد سبق أن قلت إن الخطيب المجرب يحس برد فعل جمهوره وفي ذلك اليوم شعرت أن رد فعل الطلاب الأمريكيين الحاضرين ذاتي ودفاعي، ولكنهم بدأوا يتراجعون عنه تدريجياً مع طرحي للوقائع. ولاحظت أن مشاعر الطلاب ذوي الأصول الإفريقية تظهر عليهم بسهولة فريدة من نوعها.

وعلمت فيما بعد بدهشة بما نشرته الصحافة الأمريكية عن أن محاضرتي تلك سببت «إضطراباً» وهو شيء غير صحيح. أي اضطراب؟ لم يكن هناك أي اضطراب إطلاقاً. لا أعرف كيف يسمح صحافي رصين لنفسه بالإبراق بمثل ذلك إلى جريدته عبر المحيط. لقد غطت الدايلي ستار البيروتية محاضرتي ولم يرد فيما كتبته ذكر لأي «اضطراب» لأنه لم يكن هناك اضطراب.

كان الطلاب الأفارقة قد أحدقوا بي في نهاية المحاضرة وطلبوا مني أوتوغرافات وعانقني بعضهم في حفاوة لم يسبق لي أن حظيت بها حتى من الزنوج الأمريكيين الأكثر كبتاً والأقل واقعية.

ومن بيروت رجعت بالطائرة إلى القاهرة ثم ذهبت إلى الإسكندرية بالقطار وأنا أستعمل آلة تصويري في كل المحطات. وأخيراً وجدتني في طائرة متوجهة إلى نيجيريا. وخلال الرحلة التي استغرقت ست ساعات، كنت إما أتحدث مع الربان وهو بطل أولمبي في السباحة لعام ١٩٦٠ أو أتكلم مع جاري وهو سياسي إفريقي متحمس كان يتمادى به الحماس حتى يوشك أن يصرخ. قال لي: «عندما يكون الناس في حالة الخروج من الجمود لا يكون لديهم الوقت للإنتخابات» وكان يركز على أن الأمم

الإفريقية التي ما تزال تحاول أن تتحرر ليست في حاجة إلى أي نظام سياسي يسمح بالتقسيم والخلاف، وأن الناس في إفريقيا لا تعرف معنى الإنتخابات، وأن رفع مستواها الفكري موكول إلى الزعماء الذين يعلمون.

وفي لايغوس استقبلني البروفسور إيسيان أودوم من جامعة إيبادام فكان كلانا سعيداً برؤية الآخر لأننا كنا قد تقابلنا في الولايات المتحدة عندما جاء لجمع عناصر كتابه حول أمة الإسلام الذي أسماه الوطنية السوداء. وأقام على شرفي في بيته تلك الليلة حفلة عشاء حضرها أساتذة وأصحاب مهن حرة. وأثناء العشاء سألني دكتور شاب إن كنت قد سمعت بما خلفه مقتل امرأة بيضاء في هارليم من غضب الصحافة النيويوركية وما ينسب إليّ من مسؤولية غير مباشرة فيه. وزاد أن المرأة توفيت على إثر طعنة بالسكين بعدما هاجمها وزوجها شاب زنجي في هارليم التي يملكان بها متجراً للملابس، وأن بعض أولئك الشباب ألقي عليهم القبض فاعترفوا بأنهم ينتمون إلى منظمة تسمى «الأخوة» قالوا إنها، حسب ما أوردته الصحف، تنتمي إلى «المسلمين السود» الذين انفصلوا عن أمة الإسلام ليلتحقوا بي، فقلت إنني أسمع ذلك لأول مرة وإنني لا أستغرب العنف عندما أجده في الأحياء الزنجية التي يتكدس فيها السود كالحيوانات ويعاملون كالمجذومين وأن تحميلي المسؤولية شيء تعودناه من الرجل الأبيض الذي يبحث، كلما وقع في الأحياء السوداء ما لا يرضيه، عن كبش الفداء عوض أن يبحث عن المسببات. وقلت فيما يخص «الأخوة» إنني أعتبر كل السود إخواني وأن ما يبذله الرجل الأبيض من جهود لتلطيخ اسمي لم ينجح إلا في جعل ملايين السود ينظرون إلي كما لو كنت جو لويس.

وألقيت بقاعة ترانشارد في جامعة آيبدان محاضرة ناشدت فيها الأمم الإفريقية المستقلة أن تعمل على طرح القضية الآفرو أمريكية على الأمم المتحدة، وقلت إن اليهودي الأمريكي منسجم سياسياً واقتصادياً وثقافياً مع يهود العالم، وإن الوقت قد حان لينضم الآفرو أمريكيون إلى العالم الإفريقي. وقلت إننا نحن الآفرو أمريكيين نستطيع أن نبقى بأجسادنا في أمريكا ونكافح من أجل حقوقنا الدستورية، ولكننا فلسفياً وثقافياً في حاجة ماسة إلى العودة إلى حظيرة المجموعة الإفريقية والعمل في إطارها. وطرح علي الشباب الإفريقي أسئلة سياسية في منتهى الذكاء لا نسمعها في أمريكا حتى في الكهول، ثم حدث شيء غريب. قام عجوز غرب هندي وبدأ يعنفني على انتقادي لأمريكا فضجت القاعة بـ: «صه! صه!» وبالصياح والتصفير ولكنه حاول أن يتحداهم

فانقضت عليه جماعة من الطلبة ففر إلى الخارج وتلك الجماعة تركض في إثره وتصرخ حتى أخرجته من حظيرة الجامعة. لم أكن قد رأيت شيئاً مثل ذلك من قبل. وأفهمت فيما بعد أن ذلك العجوز متزوج من امرأة بيضاء وأنه يحاول الحصول على عمل في وكالة للبيض فيها نفوذ ففهمت دوافعه ولم تكن تلك آخر مرة أقف فيها على تطرف الأفارقة في التعبير عن انفعالاتهم السياسية.

وفي مقر إتحاد الطلبة تدفقت علي الأسئلة ومنحت العضوية الشرفية في جمعية الطلبة المسلمين النيجيريين. ها هي البطاقة! ما تزال في محفظتي. مكتوب فيها: «الحاج ملكوم إكس. رقم التسجيل م ـ ١٣٨».

ومنحت إلى جانب العضوية اسماً جديداً وهو أومووال ومعناه في اللغة اليوروبية الإبن العائد فقلت بحق إنه تشريف أعتز به اعتزازاً كبيراً.

كان يوجد في نيجيريا حينذاك ست مائة أمريكي يعملون في نطاق كتائب السلام، وجدت البعض ممن كلمتهم منهم محرجاً من آثام جنسه في أمريكا. وكان بينهم عشرون زنجياً أثار إعجابي من بينهم واحد يدعى لاري جاكسون وهو خريج جامعة مورغن ستايت بلودردايل، فلوريدا، وكان قد التحق بكتائب السلام سنة ١٩٦٢.

واستضافتني برامج الإذاعة والتلفزة النيجيرية فشعرت بما أشعر به عندما أرى سوداً يديرون وكالات إعلامية خاصة بهم، أي التأثر الشديد، كما قابلت مراسلين صحافيين من بينهم زنجي يمثل نيوزويك ويقوم بجولة في إفريقيا استجوب خلالها رئيس الوزراء نكروما.

وقال لي بعض الرسميين النيجيريين: إن وكالة الإعلام الأمريكية تحاول أن تشيع بين الأفارقة أن أحوال الزنوج الأمريكيين في تحسن وأن العنصرية في أمريكا سيقضى عليها عما قريب، وأن الزعماء الأفارقة شأنهم شأن غيرهم يعرفون أن الحقيقة غير ذلك. وقال إن الواجهة الدبلوماسية لكل موظف رسمي في الأمم المتحدة اعتراف بازدواجية الرجل الأبيض الهائلة وتورطه في إبقاء شعوب العالم ذات الجذور الإفريقية منقسمة مادياً وإديولوجياً وسألني: «هل يعرف السود في بلادك أن ثمانين مليوناً من سكان القارة الأمريكية أصلهم من إفريقيا؟ إن مسيرة العالم ستتغير يوم تجتمع الشعوب ذات التراث الإفريقي المشترك تحت لواء الأخوة؟». ولم أكن قد سمعت زعيماً أمريكياً أسود يتكلم بمثل تلك الشمولية، فأثر فيّ ذلك.

ومن لايغوس ركبت الطائرة إلى أكرا عاصمة غانا. وأظن أن غانا هي البلد الذي يبلغ غنى القارة السوداء وجمال الناس الطبيعي فيه مداهما والتي تعد نبع الوحدة الإفريقية، ولكنني نزلت من الطائرة على نغمة نشاز. وجدت أمريكياً أبيض ذا وجه أحمر عرفني ووجد عنده الجرأة فشد على يدي وأخبرني أنه من ألباما ودعاني للعشاء.

وعندما دخلت مطعم الفندق للفطور وجدته مكتظاً بهؤلاء البيض وهم يتكلمون على ثروة إفريقيا الخام وكأن النادلين بلا آذان، فقلت في نفسي: «في أمريكا كانوا يطلقون الكلاب الضارية على السود ويضعون القنابل في كنائسهم في الوقت الذي يغلقون فيه أبواب كنائسهم في وجوههم، وها هم الآن يعودون إلى إفريقيا التي اختطف أجدادهم منها السود ورموا بهم في العبودية». أغاظني ذلك حتى كاد أن يفسد علي فطوري وقررت بيني وبين نفسي ألا أفتح فمي في إفريقيا إلا لفضح ذلك الرجل الأبيض الذي يبتسم ملء فيه محاولاً هذه المرة استغلال خيرات إفريقيا المنجمية بعدما استغل خيراتها البشرية. وكنت مقتنعاً أن ذلك لا يتعارض مع قناعات الأخوة التي كونتها في البقاع المقدسة، لأن المسلمين «البيض» الذي حملوني على تغيير آرائي كانوا يطبقون الأخوة بشكل تلقائي، أما الأمريكيون «البيض» فإن من الصعب أن تجد بينهم من يشعر حيال السود بشكل تلقائي بأية أخوة مهما ابتسم.

كان المؤلف جوليان مايفيلد يتزعم في غانا على ما يبدو الأمريكيين السود المبعدين. وطلبته هاتفياً ثم ما أسرع ما وجدتني في بيته مع حوالي أربعين من الأمريكيين السود المبعدين الذين كانوا في انتظاري، ومن بينهم تجار ومهنيون أمثال البروكليني السابق والمناضل الدكتور روبيرت لي وزوجته وهما طبيبا أسنان تخليا عن جنسيتهما الأمريكية. وكانت هناك أيضاً أليس ويندان ومايا أنجلو مايك وفكتوريا غارفن -ولسلي لايسي الذين كونوا لجنة سموها «لجنة ملكوم إكس» تكفلت ببرنامج زيارتي المشحون. وها هي القصاصات التي نشرتها الصحف الإفريقية قبيل زيارتي، ها هي حقيبتي. سأقرأ لك منها: «إن الغانيين يعرفون اسم ملكوم إكس معرفتهم بكلاب الجنوب وخراطيم النار والمناخس والهراوات والوجوه القبيحة البيضاء المتقلصة من الكراهية... «إن انضمام ملكوم إكس إلى الكفاح لخير بشير في مسرح المقاومة الكئيبة والمقززة والمسالمة والمستسلمة والمعرضة لكل أنواع العنف»... «إن ملكوم إكس أول زعيم وطني آفرو أمريكي يقوم بعد الدكتور دوبوا بزيارة شخصية لغانا عساها أن تكون بداية لمرحلة جديدة في الصراع الأمريكي الأسود، لذا يحق لنا أن نوليها من

الإهتمام أكثر مما توليه لها وزارة الخارجية الأمريكية»... «إن ملكوم إكس أحد أهم الزعماء وأكثرهم نضالاً في الصراع الأمريكي الأسود، وهذا ما سيدفع بخصومه إلى بذل كل جهودهم للحط منه وتشويه زيارته». وقد أذهلني ذلك الإستقبال في بلاد تقع على بعد خمسة آلاف ميل من أمريكا.

وقرر رجال الصحافة تغطية نفقات إقامتي ومن بينهم بافو رئيس تحرير «ذو غانين تايمز» وأنيم مدير وكالة الأنباء الغانية وكوفيني باتسا رئيس تحرير سبارك والأمين العام لإتحاد الصحافيين الأفارقة والسيد كاميرون دويودو وآخرون، وحاولت أن أعترض على ذلك دون جدوى فقبلت ضيافتهم شاكراً.

وفي حفل العشاء الذي دعاني إليه جوليان مايفيلد وزوجته وأنّا البورتوريكانية التي كانت تشرف على برنامج وزارة الصحة في أكرا، تساقطت علي الأسئلة من الأمريكيين السود المبعدين والعائدين إلى إفريقيا الأم. ليت الأمريكيين السود كانوا معي في تلك الزيارة! أقول ذلك لأن الترحيب الذي أغدق علي لم يكن موجهاً لشخصي بقدر ما كان موجهاً لما أرمز إليه كمناضل أمريكي أسود.

وفي ندوة صحافية مكتظة كان أول سؤال على ما أظن حول سبب انفصالي عن إلايجا محمد وأمة الإسلام. وكانت إشاعة قد وصلت إلى الأفارقة مفادها أنه بنى لنفسه قصراً في أريزونا فأجبت عن السؤال نافياً الإشاعة ومتجنباً النقد، وقلت إنني اختلفت معه حول الإتجاه والإلتزام السياسيين اللازمين وحول تقوية الصراع الديني للوصول عن طريقه إلى تحقيق حقوق الإنسان الأسود. وقلت إنني أحترم أمة الإسلام لأنها بعثت في السود قوة سيكولوجية وجاءتهم بإصلاح معنوي واجتماعي وأن إلايجا محمد كان له تأثير أساسي على الأمريكيين السود.

وأكدت في تلك الندوة على ضرورة تقوية الإتصال والتعاون بين الأفارقة والأمريكيين السود الذين تعرض صراعهم للكبت الشديد. وأذكر أنني استعملت كلمة «زنجي» فأوقفوني قائلين إنهم في إفريقيا لا يستعملونها، وأن كلمة آفرو أمريكي أكثر كرامة وأوسع دلالة فقدمت لهم اعتذاري عن ذلك ولا أظنني رجعت إلى استعمالها طيلة المدة التي قضيتها في إفريقيا.

وقلت في تلك الندوة إن الإثنين وعشرين مليوناً من الآفرو أمريكيين الموجودين في الولايات المتحدة يشكلون قوة كبرى يمكن أن تستفيد منها إفريقيا، وأن بإمكان

الأمم الأفريقية ومن واجبها أن تستعمل من جهتها كل إمكاناتها في المحافل الدولية للقضاء على الميز العنصري الأمريكي.

وقلت: «إن إفريقيا تقف كرجل واحد في وجه الأبرتايد في جنوب إفريقيا والتعسف في المستعمرات البرتغالية، ولكن جهودها ستذهب أدراج الرياح إذا لم تفهم أن لا فroورد ولا سالازار ولا بريطانيا ولا فرنسا ما كانوا ليستمروا لولا دعم الولايات المتحدة ومساندة المسؤولين في واشنطن».

كنت أعرف أن موظفاً من وزارة الخارجية الأمريكية هو مينن وليامز يقوم بزيارة رسمية إلى إفريقيا فانتهزت الفرصة وقلت: «كونوا على حذر من الموظفين الأمريكيين الذين يأتون إلى إفريقيا ويبتسمون لكم. صدقوني إنهم في أمريكا لا يبتسمون لنا. وقلت إن بيض ميشيغان التي كان مينن والياً عليها في يوم من الأيام قد قتلوا أبي.

وفي نادي غانا تشرفت بحضور مزيد من الصحافيين والشخصيات ودعيت إلى بيت جوليا ابنة الكاتب الأمريكي الأسود رتشارد رايت، الهيفاء، الجميلة ذات الصوت الرخيم والمتزوجة من فرنسي شاب يشرف على نشر جريدة غانية والتي قابلت أمها إلين وأختها الصغرى راشيل فيما بعد في باريس.

وتكلمت مع سفراء في سفاراتهم فأعجبت بالسفير الجزائري بوصفه رجلاً يقف نفسه على النضال ويؤمن بالثورة العالمية كسبيل لحل مشاكل الجماهير المضطهدة ولا تقتصر رؤياه على الجزائريين وإنما تتعداهم لتشمل الآفرو أمريكيين والمضطهدين في كل مكان.

وكان السفير الصيني هوانغ ها رجلاً متبصراً ومناضلاً وتكلم بالخصوص عن جهود الغرب لفصل الأفارقة عن الشعوب ذات التراث الإفريقي، بينما كان السفير النيجيري معنياً جداً بمحنة الآفرو أمريكيين في أمريكا. وكان يعرفها عن قرب لأنه عاش في واشنطن ودرس بها شأنه شأن السفير المالي الذي عاش في نيويورك كسفير لبلاده في الأمم المتحدة.

وتناولت الفطور مع الدكتور ماكونن من غوانا البريطانية وتحدثنا عن وحدة إفريقية تشمل الآفرو أمريكيين كما تكلمت مع نانا نكيتسيا وزير الثقافة الغاني على المشاكل الآفرو أمريكية.

ورجعت ذات مرة إلى الفندق فوجدت مكالمة من أمريكا في انتظاري من ممثل شركة الإذاعة الأمريكية مول غود وطرح علي خلالها أسئلة حول منظمة «الأخوة» في هارليم ونادي الزنوج المسلحين وما إلى ذلك من المواضيع التي كانت الصحافة تربطني بها.

وفي القاعة الكبرى بجامعة غانا خاطبت أكبر جماهيري الإفريقية. كان هناك بعض البيض وحاولت دحض المزاعم التي تنشرها وكالة الإعلام الأمريكي عن العلاقات بين البيض والسود في أمريكا وشرح حقيقة المحنة التي يعانيها الآفرو أمريكيون على يد الرجل الأبيض، فوجهت كلامي إلى البيض في القاعة قائلاً: «إنني لم أر مثل هذا العدد من البيض يعامل مثل هذا العدد من السود بمثل هذه الرقة حتى جئت إفريقيا. كان على الآفرو أمريكيين الذين يصارعون من أجل الإندماج أن يأتوا إلى هنا ليروا كم تبتسمون للأفارقة. لقد حققتم الإندماج هنا ولكن هل تستطيعون أن تقولوا للأفارقة إنكم تفعلون الشيء نفسه مع السود في أمريكا؟ بالطبع لا! وأنتم لا تحبون الأفارقة أكثر مما تحبون الأمريكيين السود ولكن ما تحبونه هو معادنهم...».

كانت ألوانهم تتغير من الوردي إلى الأحمر وكانوا يعرفون أنني أقول الحقيقة. وواصلت كلامي: «أنا لست معادياً للأمريكيين ولم آت إلى هنا لأدين أمريكا. يجب أن يكون ذلك واضحاً. لقد جئت لأقول الحقيقة فإذا كانت الحقيقة تدين أمريكا فلتدنها!».

وذات مساء أقام كوفي باكو وزير الدفاع الغاني ورئيس الجمعية الوطنية حفل عشاء على شرفي اجتمعت فيه من جديد بمعظم من سبق لي أن قابلتهم. كنت حسب ما قيل لي أول شخصية أجنبية بعد دوبوا يخصص لها مثل ذلك التكريم. كان هناك رقص وموسيقى وطعام غيني لذيذ. وكان العديد من الضيوف يسخرون فيما بينهم من تصرف السفير الأمريكي في حفل أقامه ذلك اليوم وأوشك أن يقتل فيه نفسه من مغالاته في الود والمرح. وقال البعض إنه كان يريد أن يعوضنا عن الحقيقة التي كنت لا أتوانى عن نشرها.

وتوصلت بدعوة لم أكن أحلم بها لمخاطبة البرلمان الغاني وقررت أن أجعل ملاحظاتي مركزة وقوية فقلت: «كيف تدينون البرتغال وجنوب إفريقيا وتنسون أمريكا التي يضرب السود فيها بالهراوات وتنهشهم الكلاب؟». وقلت إنني لا أفسر ذلك إلا بكونهم قد ذهبوا ضحية دعاية الوكالات الحكومية الأمريكية فسمعت من يقول في نهاية

الخطبة: «نعم! سنساند الآفرو أمريكيين... معنوياً وجسدياً وحتى مادياً إن دعا الأمر». وجاءني تشريف آخر كان قمة ما نالني في غانا إن لم أقل في إفريقيا وهو استقبال رئيس الدولة قوامي نكروما لي في قصره.

وفتشت تفتيشاً دقيقاً قبل دخولي القصر ولكنني فهمت أن يحيط الغانيون زعيمهم بكل إجراءات الأمن الضرورية وزادني ذلك إحتراماً للإنسان الأسود الحر. وعندما دخلت مكتبه الطويل قام من نهايته في ثوب بسيط ومد لي يده والبسمة على وجهه الدقيق فتناولتها من توي، ثم جلسنا على أريكة وبدأنا نتكلم. كنت أعرف أنه مطلع على محنة الآفرو أمريكيين لأنه عاش سنوات في أمريكا ودرس بها. وتكلمنا على الوحدة بين الأفارقة والشعوب ذات الجذور الإفريقية واتفقنا على أن الوحدة الإفريقية هي الحل لمشاكل الشعوب ذات التراث الإفريقي المشترك. وتبينت لي مميزات شخصيته وهي الحرارة والقبول والواقعية. ومر الوقت بسرعة وعندما ودعني حملني تحياته الحارة والشخصية إلى الآفرو أمريكيين.

في مساء ذلك اليوم ذهبت إلى وانيبا الواقعة على بعد ٣٩ ميلاً من أكرا لإلقاء محاضرة في معهد قوامي نكروما الآيديولوجي الذي يدرب فيه ٢٠٠ طالب على مواصلة الثورة الثقافية الغانية. وهناك وقعت حادثة أخرى من ذلك النوع المذهل الذي ينفجر فيه الحماس السياسي عند الأفارقة. كنت أجيب عن الأسئلة عندما وقف آفرو أمريكي شاب لم يكن يبدو أن أحداً من الحاضرين يعرفه وقال: «إنني زنجي أمريكي» وشرع يدافع دفاعاً مغلفاً عن الأمريكيين البيض فبدأ الطلبة الأفارقة يشوشون عليه ويسبونه ويقولون: «هل أنت عميل لروكفلر؟»... «لا تفسد أولادنا!» (وعلمت فيما بعد أنه أستاذ في إحدى المدارس الثانوية وأنه حصل على عمله ذاك بمساعدة وكالة أمريكية) وقالوا له: «تعال إلى معهدنا لتحصل على بعض التوجيه!» وخف أحد الأساتذة إلى نجدته، ولكن الطلبة أطبقوا عليه من جديد ودفعوه بعيداً وهم يصرخون: «يا عميل!»... «سي. آي. إي!»... «يا عميل أمريكا!».

وأقام السفير الصيني السيد هوانغ هوا وحرمه على شرفي حفلة عشاء رسمية حضرها من بين من حضروها سفيرا الجزائر وكوبا وقابلت فيها السيدة دوبوا. وبعد العشاء عرضت ثلاثة أفلام أحدها بالألوان الذكرى الرابعة عشرة لقيام الجمهورية في الصين ظهر فيه بوضوح المناضل الآفرو أمريكي روبيرت ليامز الشمال كارولايني الذي

كان لاجئاً في كوبا بعدما دعا الآفرو أمريكيين إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، والثاني عن المساعدة الصينية للكفاح الآفرو أمريكي وظهر فيه ماو تسي تونغ وهو يصرح بذلك كما ظهرت صور للعنف الأبيض بما فيه عنف البوليس والمدنيين على الآفرو أمريكيين وهم يتظاهرون في مختلف المدن الأمريكية للمطالبة بالحقوق المدنية. وكان الفيلم الأخير عرضاً مأساوياً للثورة الجزائرية.

وأخذتني «لجنة مالكوم إكس» من مقر إقامة السفير الصيني إلى نادي الصحافة حيث كانت سهرة راقصة منظمة على شرفي قد بدأت وحيث رأيت لأول مرة حياة الترف الغاني. كان الجو مشبعاً بالغبطة والسرور وطلب مني أن ألقي كلمة ففعلت وأكدت فيها من جديد على تدعيم الوحدة بين الأفارقة والآفرو أمريكيين، ثم صحت من صميم فؤادي قائلاً: «ارقصوا وغنوا ولكن لا تنسوا مانديلا وسوبوكوي ولومومبا وكل السود المحتجزين في سجون جنوب إفريقيا!». وقلت: « تتساءلون لم لا أرقص؟ إنني لا أرقص لأنني أريدكم أن تذكروا الإثنين وعشرين مليوناً من الآفرو أمريكيين الموجودين في الولايات المتحدة!» ولكن رقص الغانيين الساخن حرك كوامني. وأدت فتاة إفريقية جميلة أغنية «بلو مون» كما تؤديها سارة فوغان وعزف الجوق بطريقة ميلت جاكسون حيناً وحيناً آخر بطريقة شارلي باركر.

وفي اليوم التالي وهو يوم سبت علمت أن كاسيوس كلاي قد وصل مع مرافقيه إلى مطار أكرا حيث خصص له استقبال ضخم. وشعرت أن أي لقاء بيننا قد يحرجه لأنه كان قد اختار إسلام إلايجا محمد ومع أنني لم أكن لأتضايق من مقابلته إلا أنني كنت أعرف أن الإتصال بي ممنوع عليه. وكنت أعرف أنه ما يزال يذكر أنني كنت إلى جانبه وساندته وآمنت به عندما كان أولئك الذين يحتضنونه الآن مقتنعين بأن انتصاره ميؤوس منه ولذلك قررت أن أتحاشاه حتى لا أتسبب له في أية مشاكل.

وبعد ظهر ذلك اليوم أقام الحاج عيسى والي المندوب النيجيري السامي حفل غداء على شرفي. وكان رجلاً قصيراً بنظارات، بشوشاً للغاية وودياً، وكان قد عاش مدة عامين في واشنطن. وبعد الغداء وجه إلى ضيوفه كلمة ذكر فيها ما رآه من صور العنصرية عندما كان في أمريكا وتكلم على صداقاته مع الآفرو أمريكيين وأكد على ضرورة التعاون ين الأفارقة والآفرو أمريكيين، ثم قدم نسخة فاخرة من المجلة الأمريكية «هورايزن» التي كانت قد نشرت مقالاً بقلم الدكتور مورو بورغر من جامعة برينستن حول أمة الإسلام ومعه صورة لي على صفحة كاملة وصورة جميلة من مئات

السنين لأمير نيجيري قوي البنية ووسيم وقال: «عندما أنظر إلى هاتين الصورتين أحس أن الرجلين واحد وأن الفرق الوحيد بينهما في لباسهما وفي كون أحدهما ولد في إفريقيا والآخر في أمريكا. وتأكيداً لما يربطنا بإخواننا الآفرو أمريكيين من أخوة سأعطي الحاج ملكوم إكس ثوباً كالذي يلبسه هذا النيجيري». وبهرني رونق الثوب الأزرق الجميل والعمامة البرتقالية التي تصحبه. وكان علي أن أنحني ليتمكن سعادة المندوب من لف العمامة حول رأسي، وبعد ذلك أهداني ترجمة إنجليزية للقرآن في مجلدين.

وبعد هذا الغداء الذي لا ينسى أخذتني السيدة شولي غراهام دوبوا في سيارتها لزيارة وتصوير البيت الذي عاش فيه زوجها الزعيم الآفرو أمريكي وقضى فيه نحبه. وكانت (وهي كاتبة) مديرة للتلفزة الغانية التي كانت برامجها تربوية بالأساس. وقالت لي إن الدكتور نكروما عامل زوجها عندما جاء إلى غانا معاملة الملوك وأغدق عليه من كل شيء وأنه زاره على فراش المرض وغادر والدموع في عينيه.

وختمت سلسلة الحفلات المقامة على شرفي بحفلة سفير كوبا السيد أرماندو إنترالغو غونساليس. وفي اليوم التالي وهو يوم أحد جاءت «لجنة ملكوم إكس» لتأخذني إلى المطار فاصطدمنا خارج الفندق بكاسيوس كلاي ورفاقه وهم عائدون من جولة صباحية، وتردد كاسيوس لحظة ثم قال شيئاً من قبيل: «كيف الحال؟» فلمعت في ذهني صورة صداقتنا التي كانت قبيل المقابلة التي غيرت مجرى حياته ورددت عليه بكلام أحسبه: «بخير وكيف حالك أنت؟». بعد ذلك أرسلت له برقية قلت له فيها إنني أريد أن أخبره بما يكنه له المسلمون في كل مكان من حب كبير وأنصحه بألا يدع أحداً يستعمله أو يدفع به إلى قول ما من شأنه أن يشوه صورته.

كنت أودع أعضاء «لجنة ملكوم إكس» في المطار عندما جاءت قافلة صغيرة مكونة من سيارات خمس سفراء لتوديعي فلم أعرف من دهشتي ما أقوله لهم. وفي الطائرة التي أقلتني إلى مونروفيا التي أمضيت بها يوماً، راجعت نفسي ووجدت أن ثاني أعظم ذكرى سأحملها معي إلى أمريكا بعد الديار المقدسة هي وعي إفريقيا بذاتها وثروتها وسلطتها ودورها العالمي الموعود.

ومن مونروفيا ذهبت إلى دكار عاصمة السينغال حيث اصطف الناس في المطار عندما سمعوا بالمسلم القادم من أمريكا ليسلموا علي ويطلبوا مني توقيعاتي. وقال لي أحدهم: «إننا لا نتكلم العربية ولكن الإسلام في قلوبنا» فقلت له إن ذلك شأني أيضاً.

ومن دكار ذهبت إلى المغرب وأمضيت يوماً تجولت فيه في الدار البيضاء وزرت

قصبتها المشهورة التي كان الفرنسيون البيض يحصرون فيها الأهالي ذوي اللو
بعدما حرموا عليهم الأحياء المخصصة لهم، كما هو الشأن بالنسبة لهارليم في
التي تعد «القصبة» الأمريكية.

وفي يوم الثلاثاء ٩ مايو ١٩٦٤ وهو يوم ذكرى ميلادي التاسعة والثلاثين
إلى الجزائر محملاً بتجربة اثني عشر رجلاً. وذكر لي سائق التاكسي وهو يأخ
فندق أليتي الفظائع التي مارسها الفرنسيون على الجزائريين، وكيف كان يناور
ليخرج منها بجسد سليم. وتمشيت في الجزائر العاصمة وأنا أسمع عبارات
الشعبية لأمريكا على مساندتها لجلادي الشعب الجزائري. كان الجزائريون ثور
عايشوا الموت عن قرب فلم يعودوا يرهبونه.

وأخيراً وجدتني على متن طائرة تابعة لشركة بان أمريكان في رحلة
المتوجهة إلى نيويورك. وفي الرابعة وخمس وعشرين دقيقة من بعد ظهر يوم
وصلت إلى مطار كينيدي. ونزل الركاب وتوجهوا إلى الجمارك فوجدت
خمسين صحافياً ومصوراً في كامل عدتهم فقلت في نفسي إنني كنت ولا
الطائرة نفسها مع شخصية كبيرة وإذا بي «الوغد» الذي كانوا له بالمرصاد
الإنفجارات التي كان يتكهن بها قد بدأت بالفعل في ذلك الصيف من عام ٤
بعض المدن الأمريكية ولا سيما في هارليم. وكانت المقالات المنشورة في
الرجل الأبيض تجعل مني رمزاً للتمرد والعنف الأمريكيين الأسودين حيثما ظه
نقل عاملاً محركاً لهما.

وهكذا وجدتني في مطار كيندي في خضم أضخم ندوة صحافية عرفته
مكان. وبدأت الأضواء تشتغل علي والأسئلة تأتيني من كل مكان: «السيد ملك
ما هي حكاية جمعية الأخوة التي يقال إنها على علاقة بمنظمتك وأنها مد
العنف والتي قتلت بيضاً أبرياء؟».... «السيد ملكوم إكس هل من تعليق عل
إن على الزنوج أن يشكلوا نوادي للمسلحين؟».

وأدركت أنني قد رجعت إلى أمريكا وبدأت أسمع من جديد أسئلة الرجل
الذاتية والباحثة عن كبش الفداء. عندما يقتل الشبابُ الأبيضُ الأبرياءَ في
يسمون ذلك مشكلا «إجتماعياً» وعندما يقتل الشباب الأسود أحداً يبدأ جهاز ال
البحث عمن يضعه في حبل المشنقة. عندما كان السود يعدمون من دون محاك
تؤدة كان يقال: «ستتحسن الأمور» وعندما كانوا يحتفظون بالبنادق في بيوتهم

الدستور الحق في حماية أنفسهم، ولكن عندما بدأ السود يفكرون في الإحتفاظ بالبنادق في بيوتهم أصبح ذلك أمراً شنيعاً.

وقذفت أولئك الصحافيين بما لم يكن لهم في الحسبان فقلت إن على الأمريكيين السود أن يقلعوا عن التفكير فيما زرعه البيض في نفوسهم من أنهم ليس لهم أي بديل عن استجداء ما يسمى بـ«الحقوق المدنية»، إن على الأمريكيين السود أن يفهموا أن السود في أمريكا أصحاب قضية قد تحمل الولايات المتحدة أمام الأمم المتحدة بدعوى إنكار حقوق الإنسان وأن حال أمريكا في هذا الباب ليس أفضل من حال أنغولا أو جنوب إفريقيا وأنها لن تجد مفراً من الحكم عندما يصدر عليها فوق ترابها.

وحاولت الصحافة كما توقعت أن تحيد بي عن الموضوع فسألتني عن الرسالة التي بعثت بها من مكة وكنت مستعداً لذلك السؤال فقلت رداً عليه: «أرجو أن يثبت حجي بصفة نهائية انتماء مسجدنا إلى الـ ٧٥٠ مليوناً من المسلمين السنيين الموجودين في العالم، وأنا على يقين تام أن الأفارقة السود يعتبرون الـ٢٢ مليوناً من الأمريكيين إخوة عثروا عليهم بعد فراق طويل. إنهم يحبوننا ويتابعون صراعنا من أجل الحرية.

لقد أثلج صدورهم أننا نفيق من سباتنا العميق ونرمي عنا عقدة خجلنا من إخواننا السود وأرض أجدادنا، ذلك الخجل الذي زرعه فينا المسيحي الأبيض.

نعم كتبت رسالة من مكة تريدون الآن أن تعرفوا إن كنت قد قلت فيها إنني أقبل البيض كإخوة؟ وأنا أجيب بأن ما رأيته في أرض الإسلام وشعرت به وكتبته في تلك الرسالة قد وسّع دائرة تفكيري وأنني وجدت عندي مشاعر أخوة وحباً أخوياً اتجاه مسلمين بيض لم يكونوا يعيرون انتباهاً لجنس أي مسلم آخر أو لونه.

لقد أوسع الحج نطاق تفكيري وفتح بصيرتي فرأيت في أسبوعين ما لم أره في تسع وثلاثين سنة، رأيت كل الأجناس والألوان من البيض ذوي العيون الزرق حتى الأفارقة ذوي الجلود السوداء وقد ألفت بين قلوبهم الوحدة والأخوة الحقيقية فأصبحوا يعيشون وكأنهم ذات واحدة في كنف الله الواحد. لم أر بينهم لا دعاة عنصرية ولا ليبراليين، ولغتهم على كل حال لا تتسع لمثل هذه المصطلحات.

نعم كنت أدين البيض كلهم بشدة ولكنني اكتشفت الآن أن هناك بيضاً قادرين على أن يكنوا للإنسان الأسود مشاعر أخوة صادقة. ولقد فتح الإسلام الصحيح عيني على أن إدانة كل البيض كإدانة البيض للسود شيء خطأ.

نعم اقتنعت بأن هناك بيضاً يودون بإخلاص معالجة العنصرية الزاحفة لتخريب هذه

البلاد. وقد غير موقفي ما رأيته وعشته في البقاع المقدسة من أخوة لم تقتصر علي وحدي، ولكنها شملت كل من كانوا هناك على اختلاف جنسياتهم وألوانهم. والآن وقد عدت إلى أمريكا، سوف يتحكم في موقفي كما يتحكم في موقف إخواني السود ما أراه هنا من عدم أخوة إلا فيما قل وندر ومن معاملة للسود لا تقتصر على القلة الطيبة البيضاء، ولكنها تأتي من المائة وخمسين مليون أمريكي أبيض غير طيب وغير أخوي ومؤمن بالعنصرية وبأفضليته إيماناً راسخاً، وحتى من أولئك الذين يحسبون أنهم غير عنصريين، إلى أن يحدث ما يجعل عنصريتهم الكامنة في لاوعيهم تطفو على السطح.

إن عنصرية الرجل الأبيض هنا في أمريكا هي سبب كل ما يتخبط فيه من مشاكل مع شعوب العالم غير البيضاء، لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من رؤية النقص بصفة تلقائية في أي شخص من غير لونه كيفما كان. ولقد ملت شعوب العالم غير البيضاء ترفعات الرجل الأبيض وهذا ما يجعلكم اليوم في مطبات متعددة ليست فيتنام إلا وجهاً من وجوهها.

وفي هذا النصف الغربي من الكرة الأرضية يعاني مائة مليون من السكان ذوي الجذور الإفريقية الإنقسام نتيجة ما يزرعه الرجل الأبيض بينهم من كراهية وعدم ثقة. يقع ذلك في جزر الهند الغربية وكوبا والبرازيل وفنزويلا وفي كل أمريكا الجنوبية والوسطى. وفي إفريقيا نفسها ناور الرجل الأبيض للتفريق بين الإفريقي والعربي وبين المسيحي والمسلم. هل تتصورون ما قد يقع لو أن الشعوب ذات التراث الإفريقي اكتشفت ما يؤلف بينها من روابط الدم والأهداف المشتركة واتحدت؟».

وتنفست الصحافة الصعداء ذلك اليوم عندما تخلصت مني ولعل الإخوان الأفارقة الذين كنت معهم إلى حين كانوا سيشعرون بأنني أعطيت الموضوع حقه. تلك الليلة لم يتوقف مهتف بيتي عن الرنين. كان إخواني وأخواتي السود في نيويورك وضواحيها يطلبونني ليهنئوني على ما قلته بينما كان البيض يريدون مني أن أخطب في هذه الجهة أو تلك.

وفي اليوم التالي وأنا أسوق سيارتي في طريق سيار توقفت عند ضوء أحمر فاقتربت مني سيارة تسوقها امرأة بيضاء وبجانبها رجل أبيض. وأطل الرجل من النافذة ونادى: «يا سيد ملكوم إكس!» والتفت فأخرج يده من النافذة ومدها لي وهو يقول مبتسماً: «هل يضيرك أن تصافح رجلاً أبيض؟» تصوروا فقلت له والضوء يتغير إلى الأخضر: «لا يضيرني أن أصافح أي رجل إذا كان إنساناً فهل أنت إنسان؟».

الفصل التاسع عشر

العام ١٩٦٥

يجب أن أعترف بأن الزنوج أو الآفرو أمريكيين لم يظهروا أية رغبة في الحصول على حقهم بواسطة الأمم المتحدة. وقد كنت أعرف ذلك، لأن تأثير الرجل الأبيض على عقولهم كان تاماً بحيث لم يعودوا قادرين على رؤية مشكلهم إلا كحقوق مدنية، ولم يكن ما تبقى لي من عمر كافياً لإقناعهم بأنهم أصحاب قضية ذات حجم دولي.

وكنت أعرف أيضاً أن الزنوج لن يهرعوا إلي ليتبعوني إلى الإسلام السني الذي فتح بصيرتي وأوسع رؤياي وأقنعني بإمكانية وجود الأخوة بين بني الإنسان بغض النظر عن لونهم. وكان الزنوج الأمريكيون ولا سيما كبار السن منهم قد غاصوا في القمع المسيحي المركب.

وبدأت بعد رجوعي أدعو الزنوج إلى تجمعات أنظمها بعد ظهر أو في مساء كل يوم أحد بقاعة مرقص أوديل الشهيرة في هارليم، فأخطب فيهم متحاشياً الإسلام، لأن أكثرهم لم يكن مسلماً ولأنني كنت أحاول استقطابهم جميعاً فكنت أقول:

«إنني لا أريد أن أخاطبكم بوصفكم ملسمين أو مسيحيين أو كاثوليكيين أو بروتستانتيين أو معمدانيين أو نظاميين أو ديموقراطيين أو جمهوريين أو ماسونيين أو أعضاء في أية منظمة كانت وإنما أخاطبكم كسود أمريكيين وكسود في العالم، لأن تلك هي الصفة التي حرمتكم لا أقول من حقوقكم المدنية ولكن من حقوقكم الإنسانية، حقوقكم في الكرامة»... ولكنني بدأت أجد على وجوه الناس وفي أصواتهم بمن فيهم الذين كانوا يشدون على يدي بحماس ويطلبون أوتوغرافاتي، بدأت أجد من يقول لسان حاله: «سنرى» وأشعر بمن يعتريهم من حيرة وأفهمه.

وكان الإنسان الأسود قد سار منذ الحرب الأهلية في مسارات لم تفض به إلى شيء، وكان ظنه قد خاب في الدين المسيحي فأصبح خائفاً وحذراً ومرتاباً. وكنت في

ذلك الوقت أفهمه أكثر من أي وقت وكنت قد رأيته بوضوح لأول مرة وأنا في الديار المقدسة بعيداً عن مشكل أمريكا العنصري الأشياء التي تقسم البيض في أمريكا وكيفية انعكاس مواقفهم ودوافعهم على الزنوج وتأثيرها فيهم، وكنت قد وقفت في مكة ولأول مرة في حياتي أمام الخالق وشعرت بأنني إنسان كامل الإنسانية. وفي سلام تلك البقاع، في تلك الليلة التي قلت إن غطيط إخواني الحجاج قد منعني من النوم فيها، رجعت بي الذاكرة إلى ماضٍ كنت أحسبه قد مضى إلى الأبد، إلى سنوات عمري الأولى عندما كنت طفلاً في الثامنة أو التاسعة من عمري. رأيتني مستلقياً على قفاي خلف بيتنا في لانسينغ، ميشيغان على ربوة مخضرة كنا نسميها «ربوة هكتور» لعلها ما تزال هناك، أنظر إلى السماء والسحاب المتحركة وأحلم أحلام يقظة أراني فيها أخطب في جماهير غفيرة، ثم قفز بي التذكر من هناك إلى السجن عندما كنت أعاقب بالعزلة وأوضع في الزنزانة أو ما كنا نسميه «الحفرة» فأستلقي على قفاي على الفراش وأمضي في رؤية التخيلات نفسها. وأنا إلى الآن لا أعرف كيف تجلت لي تلك الرؤى حينذاك، ولو أنني قلت وقتها لأحد إني أراني أخطب في الجماهير لسخر مني وهل كان ذلك لي أنا نفسي في الحسبان؟.

وفي مكة استرجعت أيضاً شريط أحداثي مع إلايجا محمد خلال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها معه والتي كنت أؤمن به فيها إيماناً لا أحسبني قادراً على تصويره، فقد كنت أؤمن به لا كزعيم بالمعنى البشري العادي للكلمة ولكن كزعيم رباني، فكنت أعتقد جازماً أنه معصوم من الخطأ ومن الذنوب. وهناك في الديار المقدسة وعلى إحدى الشعاب أدركت الخطأ الكبير في الإيمان ببشر إلى ذلك الحد.

كان أفقي الفكري قد اتسع في مكة فحاولت أن أشرح في رسائل طويلة إلى أصدقائي نظرتي الجديدة إلى صراع الإنسان الأسود ومشاكله في أمريكا، تلك النظرة التي وصلت إليها بعد بحث طويل عن العدل والحقيقة فكتبت لهم أنني سئمت الدعاية وأنني أريد أن أكون مع الحقيقة كيفما كان مصدرها، ومع العدل المجرد أيا كان المستفيد أو المتضرر منه، ومع الإنسان أولاً وقبل كل شيء ومع ما ينفع الإنسانية جمعاء.

وأحجمت الصحافة الأمريكية عن نشر أي شيء عن الإتجاه الجديد الذي كنت أحاول تلقينه للسود وعمدت في صيف ١٩٦٤ «الطويل والحار والمضطرب» إلى

اتهامي بتحريض السود، فكنت كلما سمعت ذلك أفقد السيطرة على نفسي أمام المكروفونات وأقول: «عندما تكون عوامل الإنفجار الإجتماعي موجودة لا تحتاج الجماهير لمن يحرضها. عندما تجتمع في الحي الزنجي البطالة وسوء السكن والتعليم الأدنى وتكون فيه منذ سنوات، لا يحتاج لمن يشعله. إنه يشتعل تلقائياً من الداخل»...

وسموني «الزنجي الأشد غضباً في أمريكا» وهي تهمة لا أنفيها وقد كنت أعبر عما أشعر به كما أشعر به ثم ألا يقول الإنجيل: «أؤمن بالغضب. إن هناك وقتاً للغضب»؟. وسموني: «ملقن العنف والمحرض عليه» فقلت: «كذبتم. أنا لست مع عنف وانتن ولكنني مع العدل. أنا أعتقد أن من حق البيض إذا ما هاجمهم السود وعجزت قوات الأمن عن أن تحميهم أو كانت لا تكفي لرد الهجوم عنهم أو رفضت أن ترده، أعتقد أن من حقهم في هذه الحالة حماية أنفسهم بالسلاح إن دعا الأمر وكذلك الشأن بالنسبة للسود. عندما يعجز القانون عن حمايتهم من هجومات البيض يصبح لهم الحق في حمل السلاح لحماية أنفسهم» فبدأ يقال: «ملكوم إكس يدعو إلى تسلح الزنوج» وكان الذي أزعجهم في الأمر أنني رجل أسود يتكلم على الدفاع البدني ضد البيض. الرجل الأبيض يستطيع أن يعدم من دون محاكمة ويحرق ويضع القنابل ويضرب الزنوج ولا يرى أحد عيباً في ذلك ويكتفي بالقول: «صبرا!»... «إننا نحاصر التقاليد»... «ستتحسن الأمور». إنني أؤمن بأن الخضوع للأذى وعدم محاولة الدفاع عن النفس جريمة وإذا كان هذا ما تعنيه الفلسفة المسيحية وتدعو له الفلسفة الغاندية فإنهما في نظري فلسفتان إجراميتان.

وكنت أحاول في كل خطبي أن أفسر موقفي الجديد من البيض فأقول: «إنني لا أتحامل على البيض الطيبين، الصادقين، ذوي النوايا الحسنة، وقد علمت أنهم موجودون وأن هناك بيضاً غير عنصريين. أنا أتحامل على العنصري الأبيض وأحاربه وأؤمن إيماناً راسخاً بأن للزنوج الحق في أن يحاربوه بكل وسيلة ممكنة».

ولكن الصحافيين لم يريدوا أن يفصلوني عن كلمة «العنف» حتى أنني لا أذكر استجواباً واحداً لم أتهم فيه فكنت أقول: «أنا مع العنف إذا كان عدمه يعني إرجاء حل المشكل الأسود إلى ما لا نهاية لا لشيء إلا لتحاشي العنف، وأنا ضد عدم العنف لأنه في نظري يعني اللاحل، أو بعبارة أخرى إذا ما كان العنف مهما كانت عواقبه وضحاياه

هو الطريق الوحيد لحصول السود على حقوقهم في هذه البلاد، فأنا مع العنف مثلما كانت أية جماعة أخرى كالإرلانديين البولونيين واليهود ستكون معه لو أنها وجدت نفسها عرضة للميز العنصري».

إن المجتمع الأبيض يكره أن يكلمه أحد ولا سيما إذا كان أسود على الجرائم التي ارتكبها البيض في حق السود، وأنا أعرف ذلك وأستغله ولذلك يسمونني بـ«الثوري» وهي تسمية تجعلني أبدو وكأنني قد ارتكبت جريمة. ولعل السود في حاجة إلى الثورة. ولكن دعونا أولاً نعرف معنى هذه الكلمة. إن الكلمة الموازية لها في اللغة الألمانية مأخوذة من القلب الكامل أي التغيير التام، وخير مثال على ذلك ما وقع في مصر عندما أزيح الملك فاروق وحل الرئيس جمال عبد الناصر محله. الثورة تحطيم نظام وإقامة نظام آخر مكانه كما حدث مع الثورة الجزائرية التي أخرجت الفرنسيين الذين كانوا هناك منذ مائة عام. فهل هذا هو ما يقصده الزنجي في أمريكا عندما يتكلم على الثورة؟ إنه يدين النظام ولكنه لا يحاول أن يقلبه أو أن يحطمه وكل ما يقصده بالتمرد هو المطالبة بقبوله في النظام القائم. وقد يؤدي هذا التمرد إذا كان حقيقياً إلى الصراع من أجل الحصول على ولايات سوداء منفصلة داخل البلاد وهو ما طالب به أفراد وجماعات منذ ما قبل إلايجا محمد.

وعندما جاء الرجل الأبيض إلى هذه الأرض لم يبن عن أي إيمان بعدم العنف الأمر الذي جعل الرجل الذي ينادي اليوم بعدم العنف في أمريكا يقول: «إن أمتنا قد قامت على الإبادة عندما جعلت الأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر» جنساً أحط واتخذت من ذلك عقيدة لها فأصابت وجه مجتمعها الإستعماري بندوب الكراهية العنصرية قبل أن يبدأ الزنوج في النزول في الشواطىء الأمريكية، وتسببت في إراقة الدماء في حروب السيادة العنصرية. ولعلنا الأمة الوحيدة التي حاولت في نطاق سياسة وطنية إبادة سكانها الأصليين. وليس هذا وحسب بل إننا حاولنا رفع هذه التجربة المأساوية والحلقة المخزية في تاريخنا إلى مقام حرب صليبية مجيدة وإلى الآن ما زلنا لا ننبذها أو نشعر بالندم عليها بل نعمد إلى تمجيدها في أدبنا وأفلامنا ومسرحنا وفلكلورنا. وما زلنا إلى اليوم نلقن أولادنا في المدارس احترام العنف الذي حول شعباً ذا تراث قديم إلى مجموعات ممزقة تعيش في محميات مجدبة».

لقد حمل الرجل الأبيض شعار «التعايش السلمي» ولكن ماذا كانت أفعاله بجانب

ذلك القول؟ خلال كل مسيرته التاريخية كان يلوح باللواء المسيحي بيد ويحمل السيف والبندقية باليد الأخرى. ولنرجع إلى بداية المسيحية. لقد ولد المذهب الكاثوليكي وهو أساس المسيحية في إفريقيا على يد من تسميهم الكنيسة المسيحية بـ«آباء الصحراء» ولكن الكنيسة المسيحية أصيبت بداء العنصرية عندما دخلت أوروبا البيضاء، وبعد ذلك رجعت إلى إفريقيا تحمل الصليب وتغزو وتقتل وتستغل وتنهب وتغتصب وتعتو وتضرب وتدعو إلى السيادة البيضاء. وهكذا فرض الرجل الأبيض نفسه في زعامة العالم معتمداً على القوة المادية المجردة، فجرده ذلك من كل صلاحية روحانية، في حين أن التاريخ الإنساني يثبت في مختلف مراحله أن الزعامة الروحانية هي المعيار للزعامة الصحيحة، لأن الروحانيات تجذب الإنسان في حين أن القوة لا تخلف لديه إلا الخوف. وأنا أوافق أولئك العنصريين مائة في المائة عندما يقولون إن الأخوة لا يمكن أن تفرض بقوة القانون.

والحل الوحيد اليوم في أن يقود الدين الحق الحكومات. وأنا على يقين أن أمريكا في أمس الحاجة إلى الإسلام ولا سيما سكانها السود الذين عليهم أن يسألوا إلى أين وصلت بهم المسيحية التي كانوا أشد الناس غيرة عليها. ويمكن أن نذهب أبعد من ذلك ونسأل: «هذه المسيحية التي هي في يد الرجل الأبيض ومن تفسيره، إلى أين وصلت بالعالم؟». لقد أوصلت ثلثي سكانه غير البيض إلى التمرد والقول لثلثه الأبيض الباقي: «أخرج!». وها هو الرجل الأبيض يخرج وها هم السكان غير البيض ما إن يخرج حتى يرجعوا إلى دياناتهم الأصلية التي كان يقول عنها إنها وثنية.

لقد كان الإسلام خلال ألف سنة الدين الوحيد الذي كان له من القوة ما جعله يقف في وجه مسيحية الرجل الأبيض ويحاربها وحده ويوقع المسيحية البيضاء في المحذور. وها هم الأفارقة يعودون إلى الإسلام وإلى دياناتهم الأصلية الأخرى، والآسيويون يعودون إلى الهندوسية والبوذية والإسلام، وها هي الحرب الصليبية التي انطلقت صوب الشرق تغير اتجاهها وها هو الإسلام يزحف الآن على الغرب. لقد أغلق شرق آسيا في وجه المسيحية وبدأت إفريقيا تقبل على الإسلام إقبالاً كبيراً وأصبحت أوروبا لا دينية وبدأ يعتقد أن أمريكا هي آخر معاقل المسيحية المتبقية في العالم بحضارتها المسيحية التي تساند الجنس الأبيض في كل مكان. وإذا كان الأمر كذلك وكانت المسيحية كما تطبق في أمريكا اليوم هي أفضل ما تبقى للعالم المسيحي فإن على المسيحية السلام.

هل تعرف أن بعض اللاهوتيين البروتستانتيين قد بدأوا يتكلمون في كتاباتهم على الفترة ما بعد المسيحية ويقصدون بها الزمن الحديث؟. فما هو يا ترى السبب الرئيسي للفشل الذي منيت به الكنيسة المسيحية؟ إنه عجزها عن التصدي للعنصرية، فلتحصد الآن ما زرعته. ولقد زرعت العنصرية بكفر وها هي ذي الآن تحصدها.

تصور الضمير المسيحي لطوائف يحرسها شماسون يقفون على أبواب كنائسها في صبيحات أيام الأحد من عام ١٩٦٥ وهو عام الغفران ليقولوا لمن جاء من السود ليصلي: «لا يمكنك دخول بيت الله هذا!». والمهزلة الأكبر أن سانت أوغستان، المدينة التي تسمت في فلوريدا باسم الولي الإفريقي الأسود الذي أنقذ الكاثوليكية من الضلال، تشهد الآن أعمال العنف العنصري.

إن الله يعطي ما يسمى بالمجتمع المسيحي الأبيض في كل مكان فرصة للتوبة والتكفير عما ارتكبه من جرائم استغلال شعوب العالم غير البيضاء واستعبادها، كما فعل مع فرعون ولكنه يأبى مثل فرعون إلا أن يتعنت ويتمادى في رفض الإعتراف بجرائمه والتوبة والتكفير عنها، إن القدرة على التوبة والتكفير غير موجودة في أغلبية الأمريكيين البيض ولا حتى في نصفهم أو ثلثهم؟.

كثيرون من السود إن لم أقل أكثرهم وهم الضحية يودون لو يصفحون وينسون، ولكن أكثر الأمريكيين البيض على ما يبدو ليسوا على استعداد للتكفير والإنصاف ثم كيف يكفر مجتمع عن العبودية والإغتصاب والخصي وتعذيب الملايين خلال قرون؟ وما هي هذه الكفارة التي سيقبلها الرب العدل عن إهدار عرق السود وحياتهم وهوياتهم وتراثهم وتاريخهم بل وكرامتهم الإنسانية؟ وعلى كل حال فإن احتساء فنجان قهوة مع زنجي والسماح له بدخول المسرح والمراحض العمومية وباقي مظاهر «الإندماج» المُرائي ليس بكفارة.

ورجعت بعد مدة إلى الشرق الأوسط وإفريقيا وقضيت فيهما ثمانية عشر أسبوعاً قابلني فيها الرئيس المصري جمال عبد الناصر والرئيس التانزاني يوليوس نيريري والرئيس النيجيري ناموي زيكيوي ومندوب عن الرئيس الغاني السيد أوساجينو والرئيس الغيني سيكوتوري والرئيس الكيني جومو كينياتا والوزير الأول الأوغاندي الدكتور ملتون أوبوت ورجال دين أفارقة وعرب وآسيويين مسلمون وغير مسلمين. والتقيت في كل البلاد التي زرتها بآفرو أمريكيين وبيض من كل المهن والخلفيات. ووجدت في

إحدى البلاد الإفريقية سفيراً أمريكياً كان أكثر من يستحق الإحترام من السفراء الأمريكيين، كما قال لي أحد الزعماء الأفارقة وتحدثت معه مساء كاملاً فقال لي وصدقته نظراً لما سمعته عنه أنه ينسى العنصرية عندما يكون في إفريقيا ويتصرف على أساس أنه يتعامل مع بشر ولا ينتبه إلا إلى اختلاف لغتهم، ولكنه عندما يرجع إلى أمريكا يصبح واعياً باللون فقلت له: «هل تقصد أن المسؤول عن العنصرية ليس الرجل الأمريكي الأبيض وإنما المناخ السياسي والإقتصادي والإجتماعي الذي يغذي النفسية العنصرية لدى الرجل الأبيض؟» فقال: «نعم». واتفقنا على أن المجتمع الأمريكي يجعل من الصعب على الناس في أمريكا أن يلتقوا ولا يكونوا واعين باختلاف لونهم واتفقنا على أنه لو أمكن القضاء على العنصرية في أمريكا لعاش الفقير والغني فيها عيشة كريمة.

وكشف لي حديثي مع ذلك السفير حقائق أحبها إليّ أن الرجل الأبيض ليس شريراً بطبعه وأن المجتمع العنصري الأمريكي هو الذي يدفع به إلى التصرف تصرفاً شريراً وأن ذلك المجتمع خلق ونمى نفسية تبرز أحط وأشنع ما في الطبع البشري.

وقابلت في إفريقيا رجلاً أبيض آخر على النقيض تماماً من ذلك السفير فشخص لي مضمون ما دار بيننا من حديث. كنت في تلك الرحلة أشعر بأنني تحت المراقبة، وكان الشخص المكلف بذلك بادياً للعيان وكريهاً، ولم أعرف الوكالة التي كان يعمل لحسابها وإلا لذكرت اسمها. المهم أنه أثارني عندما وجدت أنني لا أكاد أتناول طعامي في فندق ما دون أن أجده أمامي يراقبني وكأنني جون ديلينفر أو شخصية هامة.

وذات صباح ذهبت إليه وقلت له إنني أعرف أنه يتبعني وأنه إذا كان يريد أن يعرف شيئاً فلمَ لا يسألني عنه؟ وبدأ يتعجرف فقلت له بكل صراحة إنه غبي لأنه لم يحاول أن يعرفني أو يعرف ما أناضل من أجله وترك غيره يفكر بالنيابة عنه، وأنه مهما يكن نوع العمل الذي يقوم به الإنسان فإن عليه على الأقل أن يفكر لنفسه. وأصابه قولي فلم يعقب عليه، ولكنه عاد بعد ذلك يقول إنني معاد لأمريكا ولا أمريكي وزارع فتنة ومخرب وربما شيوعي أيضاً، فقلت له إن ما قاله يدل على أنه لا يعرف عني شيئاً وإن أقصى ما تستطيع الإف. بي. آي أو السي. آي. إي أو غيرهما أن تثبته ضدي هو انفتاحي الذهني. وقلت له إنني باحث عن الحقيقة وإنني أزن الأشياء بموازينها وإن ما أعارضه هو الأفكار الجاهزة والمجتمعات المفصلة على مقياس واحد. قلت له إنني

أحترم حق كل إنسان في أن يؤمن بما يعتقد أنه الصواب، وأنتظر أن أعامل بالمثل. وبعد ذلك بدأ ذلك الجاسوس يتهجم على معتقداتي الدينية في نطاق علاقتي بالمسلمين السود فقلت له: «ألم يخبرك رؤساؤك بأنني غيرت موقفي ومعتقداتي وأنني الآن أؤمن بالإسلام المتبع في مكة أن لا إله إلا الله وأن محمداً بن عبد الله الذي عاش في مكة المكرمة منذ أربعة عشر قرناً رسول الله وخاتم الأنبياء».

كنت قد ارتبت في شيء منذ البداية وأردت التأكد منه فغامرت وأفصحت له عنه فاهتز بعنف. كنت قد استشففت ذلك من الصفة الذاتية لكل أسئلته وأقواله فقلت له: «أنت يهودي غير اسمه الحقيقي باسم آنغلو ساكسوني» وتأكد لي ظني مما ظهر على وجهه من ارتباك. وقال: «كيف عرفت ذلك؟» فقلت: «إن لي خبرة بطريقة اليهود في الهجوم علي وقدرة على استشفافها. وقلت له إن ما أعيبه على اليهود نفاق معظمهم في ما يدعونه من مصادقة للأمريكيين السود وأن اتهامهم لي بمعاداة السامية كلما فتحت فمي لأقول الحقيقة عنهم يحرق أعصابي. قلت له إنني أشهد لهم بأنهم أكثر البيض كلاماً وتمويلاً وزعامة وليبرالية فيما يتعلق بحركة الحقوق المدنية الزنجية، ولكنني أعرف أنهم لا يفعلون ذلك إلا بهدف استراتيجي خاص، لأن التركيز العنصري في أمريكا كلما زاد على السود خف عن اليهود وأن البرهان على نفاق معظم اليهود الذين يدعمون الحقوق المدنية أن أكثر من كانوا يدعون إلى الفصل العنصري في الشمال يهود. قلت له: «أنظر إلى كل ما يحاول السود الإندماج فيه! كله، إما في ملكية اليهود أو تحت رقابتهم أو يملكون فيه أسهماً أو لهم فيه نفوذ، فهل تراهم يمارسون نفوذهم لصالح السود؟ كلا!.»

وهناك حجة أخرى على حقيقة الموقف اليهودي من الزنوج وهي ما يحدث عندما يسكن زنجي في حي أكثر سكانه يهود فيكونون أول من يدشن خروج البيض من ذلك الحي. وعندما يسكن الزنجي في حي أبيض ولا يهجره سكانه، يكون هؤلاء السكان إرلانديين كاثوليكيين وإيطاليين ولا يكونون يهوداً. والمهزلة أن هؤلاء اليهود أنفسهم يجدون صعوبة كبرى في جعل البيض يقبلونهم. أنا أعرف أنني سأسمع عن كلامي هذا أنني «معاد للسامية» أجل أعرف ذلك ولكنه لن يمنعني من قول الحقيقة.

كانت أمريكا وأنا في تلك السفرة في خضم الإنتخابات الرئاسية، وكانت وكالات الأخبار الأمريكية قد لحقت بي في القاهرة وآكرا بمكالمات عبر المحيط سألتني فيها إن

كنت مع جونسون أو غولد ووتر فقلت إنهما فيما يخص الأمريكيين السود سواء. وكنت أشعر أن الإختيار بينهما بالنسبة للأمريكيين السود اختيار بين الذئب والثعلب. ذلك أن الليبرالية والمحافظة في أمريكا تعنيان فيما يخص الزنجي بقاءه حيث هو مع فارق واحد وهو أن الليبرالية تقول: «دعونا نضحك عليه ونعده بتحسين معاملته ونعطيه مزيداً من الوعود». وكنت أشعر والحالة هذه أن اختيار الزنجي لأحدهما يعني اختياره لمن يريده منهما أن يأكله لأنه في كلتا الحالتين مأكول لا محالة.

ولم أكن أميل إلى غولد ووتر أكثر مما كنت أميل إلى جونسون وإن كنت في جحر الذئب سأقدر الخطورة وكانت زمجرته ستبقيني أكثر إحتراساً واستعداداً للقتال، أما الثعلب فإنه بمكره قادر على أن يسلمني إلى الإغفاء ويعبث بي وسأثبت لك ما أقوله. من كان بحسب ظنك أول من اتصل به جونسون عندما أصبح رئيساً بفعل عملية الإغتيال التي كانت دلاس مسرحاً لها؟ اتصل بصديقه الحميم «ديكي» أو رتشارد راسل المعروف في جورجيا بتزعمه لمعارضة حركة الحقوق المدنية. فعل ذلك في الوقت الذي كان يصرح فيه في كل الأبواق بأن الحقوق المدنية مسألة أخلاقية فبدا كعميد الشرطة الذي يعلن عن معارضته لعملية سطو على بنك وجيسي جايمس أعز أصدقائه.

على أنني كنت أحترم في غولد ووتر أنه رجل لا يحاول إخفاء معتقداته وهو ما لا نجده في أيامنا هذه في البيض إلا نادراً، وأنه ليس من النوع الذي يهمس للعنصريين ويبتسم للإندماجيين. وكنت أعتقد أنه لم يكن ليغامر بالإفصاح عن موقفه العنصري في ذلك الوقت لو لم يكن مقتنعاً به كل الإقتناع.

كان قد قال للسود بكل صراحة إنه ليس معهم وهو شيء في صالحهم لأنهم يتقدمون عندما يقتنعون بأن الحل في قيامهم ضد نظام متعنت. أما الليبراليون فقد حولوا السود إلى متسولين، ولذلك ثار زنوج الجنوب وقاتلوا من أجل حريتهم قبل زنوج الشمال لأنهم وجدوا أنفسهم أمام رجل أبيض مزمجر.

وما أقوله لا يعني أنني أفضل غولد ووتر على جونسون أو العكس. لقد كنت وقتها خارج الولايات المتحدة، وإلا لما تورطت في التصويت على أي منهما ولكنت نصحت للسود بالإمتناع عن التصويت. وقد تبين أن أصوات السود هي التي ساعدت جونسون على الفوز بالرئاسة كما كان يتوقع. ولو فاز غولد ووتر لعرف السود أنهم سوف يكون عليهم أن يتعاملوا مع ذئب لا مع ثعلب قادر على ابتلاعهم والشروع في هضمهم وهم لا يشعرون.

كانت تعترضني العراقيل وأنا أحاول التقدم بمشروع منظمة وطنية سوداء تضم الزنوج الأمريكيين وكنت قد اخترت لها هذا الإسم، لأنه كان عليّ في مجتمع أمريكي مجبول على المنافسة أن أبدأ بإحلال التعاون فيما بين السود قبل التفكير في إحلال التعاون بين البيض والسود. وكنت منذ طفولتي، على ما أذكر، قد عرفت تعليمات الوطني الأسود ماركوس غارفي التي كانت السبب في اغتيال والدي.

وكنت حتى وأنا مع إلايجا محمد أدرك أن الفلسفات السياسية والإقتصادية والإجتماعية للوطنية السوداء قادرة على بث الشعور بالإعتزاز العرقي في السود وإعطائهم الحافز والثقة في النفس، وهي العناصر التي يحتاج إليها الجنس الأسود اليوم لينهض من ركوعه ويقف على قدميه ويعرب عن موقفه بنفسه.

كنت أريد تلك المنظمة سوداء وأريد أن يكون هدفها الأسمى هو إحلال الأخوة الحقيقية بين البيض والسود، وكانت أكبر مشكلة صادفتها هي الصورة التي كان الناس قد كونوها عني كمنتمٍ قديم إلى «المسلمين السود». وحاولت تغيير تلك الصورة بدخول منعطف يبدأ الناس، ولا سيما الزنوج، ينظرون إلي فيه نظرة جديدة. لم يكن غضبي قد خف، ولكن الأخوة الحقيقية التي رأيتها في الديار المقدسة أقنعتني بأن الغضب يعمي البصر.

وكنت كلما سنحت لي الفرصة، أكلم شخصيات هامة في هارليم وألقي خطباً وأقول فيها: «لقد علمني الإسلام أن إيجاد الإنسانية والمجتمع الإنساني الكامل يحتاج إلى عناصر أو مميزات دينية وسياسية وإقتصادية وسيكولوجية وعرقية. ولقد أصبح من بين أصدقائي بعدما زرت مكة المسيحي واليهودي والبوذي والهندوسي وتابع مذهب اللاإرادية بل وحتى الملحد. أصبح منهم الرأسمالي والإشتراكي والشيوعي والمعتدل والمحافظ والمتطرف بل وحتى العم تومي. أصبح من أصدقائي اليوم السود والسمر والحمر والصفر والبيض».

وقلت للجماهير في شوارع هارليم إن عبادة الإله الواحد وحدها ستقرب الإنسان من السلام الذي يتكلم عليه الجميع ولا يفعل أحد شيئاً لتحقيقه. قلت لهم إن علينا أن ننظر إلى صراع السود ضد العنصرية البيضاء في أمريكا على أنه مشكل إنساني وننسى السياسات المنافقة والدعاية ونتذكر أن حل مشكل أمريكا الإنساني هذا مسؤولية تقع على عاتق الطرفين معاً. قلت لهم إن على البيض ذوي النيات الحسنة أن يحاربوا

العنصرية عند غيرهم من البيض بصفة فعالة ومباشرة، وأن على السود أن ينموا في داخلهم وعياً أكبر، أن عليهم من الواجبات مثل ما لهم من الحقوق.

وكنت أعرف الزنوج بالحل الذي كان أكثر البيض يريدونه للمشكل العنصري الأمريكي وأعرف أن كثيراً من البيض يشعرون بالإحباط نفسه الذي يشعر به السود. وكنت قد توصلت في يوم واحد بخمسين رسالة من البيض وكانوا يحيطون بي في نهاية التجمعات ويسألونني: «ما الذي يستطيع رجل أبيض حسن النية أن يفعله؟».

وأنا الآن إذ أقول ذلك أفكر في تلك الطالبة التي جاءتني من جامعتها في نيوإنغلاند إلى مطعم أمة الإسلام في هارليم والتي قلت لها إنه ليس هناك ما يمكنها عمله. أنا الآن أشعر بالندم على قولي ذلك ولو كنت أعرف اسمها أو رقم مهتفها لطلبتها أو لكتبت لها وقلت لها ما أقوله للبيض الذين يطرحون علي ذلك السؤال بطريقة أو بأخرى، إنهم أولاً لا يمكنهم الإنضمام إلينا، على الأقل في ما يخص منظمتي، المنظمة الوطنية السوداء، منظمة الوحدة الآفرو أمريكية. ذلك أنني أعتقد أن البيض الذين يريدون الإنضمام إلى المنظمات السوداء إنما يعمدون بذلك إلى الهرب وإراحة ضمائرهم وأنهم يريدون أن يثبتوا أنهم معنا، والحقيقة المرة أن وجودهم حولنا لن يساعد على حل مشكلة أمريكا العنصرية لأن السود ليسوا مصدرها. وإذا كانوا يريدون إثبات حسن نواياهم فليفعلوا ذلك في مصدر الداء أي في مدنهم وقراهم وبين أهلهم وذويهم. ذلك هو مكانها وذلك هو المكان الذي عليهم أن يناضلوا فيه إن أرادوا أن يحققوا نتيجة ما.

وعندما أقول إن وجود البيض ذوي النوايا الحسنة في المنظمات السوداء يضعف فاعليتها تلقائياً وبصفة عامة لا أدينهم، ولكنني أقول إن وجود حتى أفضلهم في هذه المنظمات سيجعل الزنوج يتأخرون في معرفة ما يمكنهم عمله بتعاون مع السود داخل محيطهم الخاص. أنا لا أريد أن أجرح شعور أحد ولكنني سأذهب أبعد من ذلك وأقول: إنني أرتاب من البيض الذين يتلهفون على مصاحبة السود والإلتصاق بهم، ولا أحب ذلك النوع الذي يجد متعة في وجود السود حواليه، ولعل ذلك يعود إلى الأيام التي عشتها في هارليم ورأيت فيها في محلات ما بعد آخر الليل سكارى بيض بوجوه محمرة وهم .يمسكون بهذا الزنجي أو ذاك ويقولون: «أريدك أن تعرف أننا أنا وأنت سواء» ثم يركبون سيارات أجرة أو سيارات من نوع ليموزين ويعودون إلى محيطهم

الذي يعملون ويعيشون فيه حيث لا أثر لزنجي اللهم إلا إذا كان خادماً؛ ثم إن البيض كلما زاد انضمامهم إلى منظمة سوداء زاد اعتماد السود عليهم لدعمها مادياً، حتى أن الزعامة تعطى للأسود ولكن التسيير الحقيقي يكون في يد الأبيض.

أنا أقول للبيض ذوي النيات الحسنة: إذا أردتم أن تكونوا معنا دعونا نعمل داخل أوساطنا واعملوا أنتم في إطار مجموعات خاصة بكم للتأثير على العنصريين البيض وإقناعهم بترك التعسف، وسنحترمكم ونثني على عملكم. وفي ذلك الوقت سنحاول نحن إقناع السود بضرورة مساعدة أنفسهم لأننا أعرف الناس بهم. وبعملنا على جبهتين منفصلتين سنتوصل إلى إنقاذ الروح الأمريكية التي لا يمكن إنقاذها إلا بإعطاء السود حقوقهم الإنسانية كاملة ومنحهم كرامتهم.

إن التحركات الحقيقية ذات الدلالة والتي تدفع إليها النوايا الحسنة والمسؤولية الأخلاقية تستطيع أن تضع يدها على أسباب الإنفجار العنصري الذي تعرفه أمريكا اليوم، وتستطيع أن تحاصره، واتهامي أو اتهام غيري ممن يسمون بالمتطرفين والديماغوجيين السود، بتحريك العنصرية في أمريكا لن يحل المشكل. وقد تمنيت غير ما مرة أن يقول التاريخ يوماً إن صوتي الذي ضايق غرور الرجل الأبيض وغطرسته وإعجابه بنفسه قد رد عن أمريكا كارثة خطيرة كانت ستقودها إلى الهلاك، وأنا ألتقي مع الدكتور كينغ في وحدة الهدف رغم اختلاف الوسائل، ألا وهو تعرية مأساة ما لاقاه سود عزل على يد البيض. وفي المناخ العنصري الذي تعيش فيه البلاد اليوم يتساءل البعض عن أي منا سيصفى أولا الدكتور كينغ بسياسته السلمية أو أنا المنعوت بالعنف.

إنني أعتبر كل ما أقوم به اليوم مستعجلاً لأن كل واحد منا قد حدد له الوقت الذي عليه أن ينجز فيه ما قدر له أن ينجزه. وأنا لم يطل بي العهد أبداً في أي عمل قمت به بل كانت حياتي كما رأيت سلسلة من التحولات الجذرية. إنني أعيش الواقع وأنتظر الموت في أي وقت ولا سيما منذ رجعت من سفري الأخير إلى الخارج الذي وقفت فيه على طبيعة الأحداث وتوصلت إلى معلومات من مصادر موثوق بها. على أن الموت لا يخيفني كما قد يخيف بعض الناس وقد كنت أعلم أنني لن أعيش حتى أصبح عجوزاً منذ ما قبل أن أعتنق الإسلام. وعندما كنت مهرباً في غابة الحي الزنجي ومجرماً في السجن، كنت أعرف أنني سأموت موتاً عنيفاً، خصوصاً وأن ذلك قد جرت العادة به في عائلتنا إذ قتل أبي ومعظم أخوته. وإذا اعتبرنا أن أبي قتل بسبب

معتقداته واعتبرنا معتقداتي وأضفنا إليها طبعي والتزامي التام بما أعتقده، أصبح موتي في سن متقدمة وعلى فراش المرض ضرباً من الخيال.

لقد خصصت لهذا الكتاب أكثر ما عندي من وقت، لأنني على يقين أن قصة حياتي الكاملة والمحكية بصدق قد تكون إذا ما قرئت بموضوعية شهادة ذات أهمية اجتماعية ما. وأعتقد أن القارىء الموضوعي قد يرى كيف أنه لم يكن أمامي كشاب أسود في تلك البيئة الأمريكية، إلا أن أنتهي إلى السجن، وهو ما يحدث اليوم لآلاف الشباب الأسود. القارىء الموضوعي قد يرى كيف أنني عندما سمعت عبارة «الرجل الأبيض شيطان» لأول مرة ومر شريط حياتي أمام عيني، لم يكن أمامي إلا أن أستجيب لها وأكرس الإثنتي عشرة سنة التالية لنشرها بين السود. وأرجو أن يقوم القارىء الموضوعي وهو يتتبع قصة حياتي وهي قصة واحد ممن صنعتهم الأحياء الزنجية، بتغيير مفهومه ورأيه في الأحياء الزنجية التي تشكل حياة كل الزنوج في أمريكا تقريباً.

وفي كل عام يزداد في هذه الأحياء عدد المراهقين الذين يتخذون من المجرمين كما فعلت مثلهم العليا ويتعرضون لتأثيرات سيئة. أنا لا أقول إن كل واحد منهم سيصبح عالة على المجتمع كما كان الشأن بالنسبة لي. إن نسبة قليلة منهم تفعل ذلك ولكنها نسبة متواترة تضاف سنوياً إلى مجموع الشباب المجرم والمكلِّف والخطير وتبقيه في تزايد مستمر.

لقد نشرت مصلحة البوليس الفدرالي مؤخراً تقريراً عما تعرفه الجريمة من ارتفاع سنوي مقلق منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يقدر بنسبة عشرة إلى أحد عشر في المائة وإن كان ذلك التقرير لا يشير إلى أن أكثر تلك النسبة من الجرائم يقع في الأحياء الزنجية التي سمح المجتمع الأمريكي الأبيض بوجودها. وقد كان شباب الأحياء الزنجية الفقير يتقدم أحداث صيف ١٩٦٤ «الطويل والحار» التي شهدتها كبريات المدن الأمريكية. ولي اليقين أن تلك الأحداث ستكرر هذا العام ١٩٦٥ وتكون أكبر وأخطر على الرغم من مشروع قانون الحقوق المدنية الذي يريد به الرجل الأبيض إراحة ضميره، لأن وباء العنصرية في أمريكا أهمل أكثر مما ينبغي.

وظني أنه لا يوجد رجل أسود في أمريكا قاسى ما قاسيته أو تردى إلى درجة الإنحطاط الإجتماعي الذي ترديت إليه أو مني بالجهل الذي منيت به ولكن لا إنفراج إلا بعد شدة ولا معنى للحرية إلا بعد الأسر والعبودية.

لقد استعملت في نضالي أفضل ما هداني الله إليه وقدرني عليه لتحقيق الحرية لإخواني وأخواتي السود هنا في أمريكا، وعرفت النجاح كما عرفت الفشل. ولعل من حسن حظي أنني لم أتخرج في الجامعات كما كنت أتمنى وإلا لكنت الآن محامياً (ناجحاً ولا شك) لأنني كنت طول عمري مغرماً بالمعارك الفكرية والتحدي، ولو كان عندي الوقت الآن لرجعت من دون خجل إلى إحدى المدارس الرسمية في نيويورك ولواصلت تعليمي من حيث تركته أي السنة الرابعة من الثانوي، ولكنني إلى الآن لا أجد الوقت لبدء تكويني في كل المواضيع التي أحبها، فأنا أحب اللغات مثلاً وكان سيثلج صدري أن أصبح لسانياً مقتدراً. وليس هناك ما هو أدعى للإحباط في رأيي من أن يجد المرء نفسه في مكان يتكلم الناس فيه لغة لا يفهمها لا سيما إذا كان هؤلاء الناس منه وإليه. ولقد سمعت في إفريقيا لغات أم مثل الحوسية والسواحلية فكنت أقف كالطفل الصغير في انتظار أن يأتي من يترجم لي وأشعر بجهلي بحدة.

لو كان عندي الوقت لتعلمت العاميات الإفريقية واللغة الصينية التي أعتقد أنها ستصبح أقوى لغة سياسية في المستقبل. وقد بدأت فعلاً في تعلم العربية التي أعتقد أنها ستصبح من جهتها أقوى لغة روحانية في المستقبل. لو كان عندي الوقت لدرست لمجرد أن الدراسة ستمنحني الشعور بالسعادة ولصنفت المعارف وتصديت لها لأنني أهتم بكل شيء، وهو ما جعلني أحب بعض منتجي البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي شاركت فيها وأحترم تفكيرهم، لأنهم كانوا رغم اختلافهم الدائم تقريباً معي في شأن المسألة العنصرية، كانوا متفتحين وموضوعيين أمام الحقائق التي كنت أطرحها وأذكر من بينهم إيرف كوبسينيت في شيكاغو وباري فاربر وباري غراي ومايك والاس في نيويورك الذين أثبتوا لي إحترامهم لأفكاري وهم لا يدرون. كانوا يدعونني للتعبير عن رأيي في مواضيع لها علاقة بالعنصرية وكنا في نهاية البرنامج نبقى نتكلم ساعة أو أكثر في كل شيء، في مواضيع الساعة وغيرها. أقول ذلك لأن معظم البيض حتى عندما يعترفون للزنجي بشيء من الذكاء يعتقدون أنه لا يستطيع أن يتكلم إلا في العنصرية، وأنه غير قادر على أن يساهم بشيء في المجالات الفكرية الأخرى. البيض مثلاً لا يسألون السود عن رأيهم في مشكل الصحة في العالم أو في التسابق على إنزال أول إنسان على سطح القمر.

إنني أعتبر كل صباح جديد يوماً مكتسباً في عمري وأجد السود في خطبي واجتماعات منظمتي وباقي المناسبات التي تجمعني بالناس، يراقبون تصرفاتي التي تدل

ولا شك على أنني أتوقع أن يقوم أحد بقتلي. وكنت قد أعلنت أكثر من مرة أنني أعرف أن الأوامر بقتلي قد صدرت، وإذا كان هناك من يشك في ما أقوله فهو لا يعرف أمة الإسلام. وبالمناسبة أريد أن أقول للذين يطاردون رجلاً ليقتلوه إن الدائرة ستدور ويأتي يوم يجدون فيه من يطاردهم ليقتلهم.

وأنا أعرف أيضاً أنني قد أقتل بيد عنصري أبيض أو زنجي مسخر من طرف البيض أو زنجي مغسول الدماغ يتصرف بمشيئته ويحسب أن موتي يخدم البيض نظراً لما أقوله عنهم. ولقد أصبحت أعيش وكأنني ميت ولذلك سأطلب منك شيئاً. عندما أموت (وأقولها بيقين لأنني أعرف مما وصل إلى علمي أنني لن أعيش لأقرأ هذا الكتاب) لاحظ أن الرجل الأبيض سيتهمني في صحافته بالتحريض على «الكراهية» وأنه سيستعملني ميتاً كما استعملني حياً ويجعل مني رمزاً سهلاً للعنصرية يساعده على التملص من الحقيقة وهي أنني لم أزد على أن حملت مرآة عكست وكشفت سجل الجرائم المخفية التي ارتكبها جنسه ضد جنسي. سترى، سيكون أقل ما يقولونه عني أنني أسود لامسؤول. وقد كنت أشعر دائماً أن الزعيم الأسود المسؤول في نظرهم هو الذي لا يحقق أية نتيجة. عندما يرميك الرجل الأبيض بـ«اللامسؤولية» يكون معنى ذلك أنك رجل أسود فعال. عرفت ذلك منذ الطفولة وعرفته أكثر منذ أصبحت «زعيماً» أسود في المجتمع الأمريكي العنصري، وكنت أشعر بالإطمئنان كلما وجدت الرجل الأبيض يزيد من مقاومته أو مهاجمته لي لأن ذلك كان يثبت لي أنني أسير على الطريق الصحيح المؤدي إلى مصالح الأمريكيين السود. وقد أكدت لي المعارضة التي لقيتها من العنصري الأمريكي الأبيض أنني قدمت للسود شيئاً قيماً.

نعم كنت أحب دوري الذي قالوا عنه إنه «ديماغوجي» وكنت أعرف أن المجتمعات تقتل أحياناً من يعملون على إحلال التغيير فيها وإذا مت وكنت قد سلطت بعض الضوء على حقيقة هامة من شأنها أن تستأصل السرطان العنصري الخبيث من جسد أمريكا، فالفضل كله في ذلك يرجع إلى الله، وأما الأخطاء فهي لي.

الخاتمة

في ١٩٥٩ عندما بدأ الناس يسمعون بالمسلمين السود إثر إذاعة البرنامج التلفزيوني من نيويورك الذي يحمل عنوان: الكراهية التي ولدت الكراهية، كنت على أبواب التقاعد في سان فرانسيسكو بعد عشرين عاماً من الخدمة في حرس الشواطىء.

في ذلك الوقت أخبرتني صديقة لي كانت تزور أهلها في دترويت بانتشار دين جديد يسمونه دين الإنسان الأسود على يد أمة الإسلام، وقالت إن أفراد أسرتها لدهشتها قد دخلوا كلهم فيه. واستمعت بعد ذلك باستخفاف إلى حكاية العالم المجنون السيد يعقوب الذي استخرج الجنس الأبيض من الجنس الأسود بعملية تطعيم. وكان يتزعم تلك المنظمة كما قيل لي، شخص يدعى إلايجا محمد المحترم ويرأس إدارتها شخص يدعى رجل الدين ملكوم إكس.

ودخلت الحياة المدنية في نيويورك فطفت بهارليم وجمعت معلومات مثيرة عن ذلك الطقس الديني ثم اقترحت على الريدرز دايجست أن أكتب لها مقالة عنه. وذهبت إلى المطعم الإسلامي في هارليم وسألت عن رجل الدين ملكوم إكس فأشاروا إليه في حجرة مهتف ورائي حيث كان يتكلم. ولم يلبث أن خرج فإذا هو رجل طويل، نحيف، أحمر الشعر، أسمر البشرة، في الثلاثين من عمره. وأخبرته بقصدي فغضب وحد إلي النظر من خلال نظارته المؤطرة بعظم القرن وقال محتداً: «أنت دمية أخرى من الدمى التي يبعثها الرجل الأبيض لتتجسس علينا» فقلت له إنني مكلف بكتابة مقالة عن أمة الإسلام وأخرجت له الرسالة التي توضح المجلة فيها أنها تريد مقالاً موضوعياً يقف موقفاً وسطاً بين ما تقوله أمة الإسلام وما يقوله خصومها، فنفخ بمنخره وقال إن تعهدات الرجل الأبيض لا تساوي الورق الذي كتبت عليه وإنه يحتاج لبعض الوقت قبل أن يعطيني جوابه، ولكنه اقترح علي أن أحضر بعض جلسات معبد نيويورك السابع (عوضت كلمة معبد فيما بعد بكلمة مسجد) التي كانت مفتوحة في وجه غير المسلمين من السود.

ووجدت في ذلك المطعم بعض من دخلوا في الإسلام وكانوا أنيقين ومهذبين إلى حد يكاد أن يكون مبالغاً فيه. وكانت تصرفاتهم تعكس انضباطاً شبه عسكري ولم يكن أحدهم يفوه إلا بالعبارات المتداولة داخل أمة الإسلام حيث كان حتى جمال الجو من فضل الله وفضل إلايجا محمد المحترم.

وأخيراً جاءني رد ملكوم إكس بأنه لا يريد أن يتحمل المسؤولية وأن علي أن أقابل السيد محمد شخصياً ثم حُدد لي موعد معه فسافرت إلى شيكاغو بالطائرة. ووجدته رجلاً ضئيلاً، خجولاً، ذا صوت ناعم. ودعاني للعشاء مع أسرته في بيته الكبير وتكلم على المراقبة المشددة التي يمارسها على منظمته البوليس الفدرالي ومصلحة الإيرادات الداخلية واحتمال قيام الكونغريس ببحث مدقق عنها، فشعرت أنه يقصدني بذلك الكلام وأضاف: «ولكنني لا أخشى أياً منهم لأنني أملك كل ما أحتاجه، أملك الحقيقة». وتركته دون أن أثير معه موضوع المقال، على أني وجدت ملكوم إكس عندما رجعت إلى نيويورك أكثر استعداداً للتعاون معي.

وبدأ يجلس أمامي في المطعم الإسلامي إلى مائدة صفحتها بيضاء ويرد على كل أسئلتي التي كانت تقاطعها مكالمات تأتيه إلى حجرة المهتف من الصحافة النيويوركية. وعندما قلت له إنني أريد أن أشاهد أنشطة المسلمين في بعض المدن الأخرى رتب لي مع رجال دين آخرين حضور جلساتهم في معابد دترويت وواشنطن وفلادلفيا.

ونشرت مقالتي في مستهل ١٩٦٠ تحت عنوان محمد يتكلم فكانت أول مقالة من نوعها حول تلك الظاهرة، فكتب لي إلايجا محمد مثنياً على التزامي بالموضوعية التي وعدته بها كما طلبني ملكوم إكس هاتفياً وأبلغني الشيء نفسه. وفي ذلك الوقت نشر كتاب الدكتور إريك لينكولن الذي يحمل عنوان المسلمون السود في أمريكا فازداد الإهتمام بهم.

وخلال سنتي ١٩٦١ و١٩٦٢ كلفتني جريدة ساترداي إفنينغ بوست بإنجاز مقال مشترك عنهم مع كاتب أبيض اسمه البالك. بعدها استجوبت ملكوم إكس لحساب مجلة بلاي بوي التي وعدتني بنشر كل أقواله مهما كانت. واستغرق استجوابي لملكوم إكس عدة أيام كان ينطق فيها بعبارات معادية للمسيحية وللبيض ثم يقول: «إن ذلك الشيطان لن ينشر شيئاً من هذا» ولذلك لم يصدق عندما وجد المجلة تفي بوعدها وتنشر كل أقواله.

بعد ذلك بدأ يكن لي بعض المودة. وكان يعرف ما للمجلات الوطنية من نفوذ فبدأ ينظر إلي بحذر ولكن باعتبار أنني منفذ إلى الرأي العام. وبدأ بين الفينة والأخرى يطلبني هاتفياً ويخبرني بأنه سيتكلم في الإذاعة أوالتلفزيون ويطلعني على مواعيد خطبه العمومية أو يدعوني لحضور نشاط من نشاطات المسلمين السود.

إلى ذلك الحد كنت قد وصلت في علاقتي مع ذلك الرجل الذي كان يقول عن نفسه أمام الملأ إنه أشد السود غضباً في أمريكا، عندما جاءني وكيلي بناشر أوحى له مقالي في بلاي بوي بنشر السيرة الذاتية لملكوم إكس الذي كان قد أصبح مشهوراً على الصعيد الوطني، وسألني إن كنت أستطيع أن أقنعه بأن يروي لي قصة حياته كاملة وبكل التفاصيل فقلت إنني غير متأكد ولكنني سأسأله، ثم سألني عن الأحداث البارزة التي يمكن أن يتضمنها الكتاب وبدأت أرد عليه فتبين لي أنني لا أعرف شيئاً عن الرجل على الرغم من كل ما أجريته معه من استجوابات، فقلت له إن طلبه قد أوضح لي مدى حرص ملكوم إكس على عدم التكلم على نفسه وتركيزه على إلايجا محمد وأنني لا أعرف إلا أنه أشار إلى تجربته الإجرامية وحياته في السجن قبل اعتناقه الإسلام، وأنه قال لي ذات مرة: «لو عرفت ماضي لما صدقت». وأنني سمعت أنه باع المخدرات واشتغل في الدعارة وارتكب السطو المسلح.

وكنت أعرف أن ملكوم إكس موسوس بالوقت وكان قد قال لي: «إنني لا أحتمل شخصاً لا يحمل الساعة لأن ذلك يوضح لي أنه لا يقدر الوقت»... «في كل الأعمال يحدد نجاحنا أو فشلنا مدى تقديرنا واحترامنا للوقت». وكنت أعرف أن الإقبال على الإسلام يزداد في الأماكن التي يخطب فيها كما كنت أعرف اعتزازه باهتداء الزنوج في السجون إلى الإسلام على غرار ما وقع له، وأنه يدعو المسلمين إلى أكل طعام المسلمين فقط، وأنه فيما يخصه يفضل ما تطبخه له زوجته بيتي، وأنه يكثر من شرب القهوة المخلوطة بالحليب ويقول مازحاً: «القهوة هي الشيء الوحيد الذي أحبه مندمجاً». وقلت لوكيلي وللناشر ذلك اليوم ونحن على مائدة الغداء: إنه يعرف كيف يحرج غير المسلمين كما فعل معي عندما أوصلني ذات مرة بسيارته إلى أحد مداخل المترو فأشعلت سيجارة وقال: «بذلك ستكون أول مخلوق يدخن في هذه السيارة».

وسألت ملكوم عن رأيه في نشر كتاب عن حياته، فنظر إلي نظرة من أخذ على حين غرة، وبدا حائراً كما لم أره إلا نادراً ثم قال: «هذا موضوع يحتاج إلى تفكير».

وطلبني بعد يومين هاتفياً وحدد لي موعداً في المطعم الإسلامي وقال: «إنني أقبل عرضك لأنني أظن أن قصة حياتي ستوضح للناس كيف ينقذ السود على يد ألسيد محمد ولكنني لا أريد أن يسيء أحد فهم دوافعي. يجب أن يؤول كل مليم من ريع هذا الكتاب إلى أمة الإسلام. نحن بالطبع نحتاج لموافقة السيد محمد وعليك أن تكلمه شخصياً».

وهكذا ركبت الطائرة مرة أخرى لمقابلة السيد محمد، ولكن في فينيكس، أريزونا هذه المرة حيث كانت أمة الإسلام قد اقتنت له بيتاً في تلك المنطقة ذات المناخ الحار والجاف الذي خفف عنه ما كان يعانيه في جهازه التنفسي.

وتكلمنا رأساً لرأس هذه المرة، فقال لي إن منظمته قد قطعت شوطاً طويلاً بأطر أغلبها غير متعلم وأنها كانت ستطوي المراحل لما فيه صالح الإنسان الأسود، لو أنها اكتسبت بعض المواهب السوداء وأضاف أن منظمته في أمس الحاجة إلى الكتاب، ولكنه لم يحاول أن يضغط علي لمعرفة ردي وبغتة انتابته نوبة من السعال واشتدت عليه حتى هرعت إليه في قلق، ولكنه أشار إلي بأن أعود إلى مكاني وقال وهو يشهق، إن ذلك شيء بسيط ثم قال لاهثاً إن الله يبارك هذا الكتاب وأن ملكوم إكس أحد أبرز رجال دينه وأمر أن يوصلني سائقه إلى المطار وودعني بسرعة وخرج مهرولاً وهو يسعل.

وفي نيويورك قرأ ملكوم إكس العقد ووقعه ثم سحب من محفظة نقوده قطعة ورق مكتوبة بخطه العريض وقال: «ها هو الإهداء» فتناولت الورقة وقرأت ما يلي: «أهدي هذا الكتاب إلى إلايجا محمد الذي وجدني غائصاً في أوحال أقذر حضارة وأقذر مجتمع على هذه الأرض فانتشلني ونظفني وساعدني على الوقوف على قدمي وجعل مني الإنسان الذي أصبحته».

ونص العقد على أن تؤدى كل مداخيل الكتاب إلى مسجد السيد محمد رقم ٢، ولكن ملكوم إكس لم يكتف بذلك فأملى علي رسالة طبعتها وقعها فيما بعد، جاء فيها: «يجب أن تدفع كل المداخيل التي تعود لي من هذا الكتاب إلى مسجد السيد محمد رقم ٢ الواقع في العنوان التالي: السيد رايموند شريف ٤٨٤٧ شارع وودلو، شيكاغو ١٥، إلينوي»، ثم أملى علي رسالة أخرى كانت بمثابة اتفاقية بيني وبينه، جاء فيها: «يمنع على الكاتب أن يذكر في هذا الكتاب شيئاً لم أقله أو أن يسقط شيئاً أردته

أن يكون فيه» وسألته أنا بالمقابل أن يوقع لي على تعهد بأن يعطي حصة عمله معي الأولوية دائماً مهما تكن مشاغله إلى أن ننجز ال١٠٠ ٠٠٠ كلمة التي سيتشكل منها الكتاب الذي سيحكي تفاصيل حياته. وبعد أشهر عدّة عندما بلغ بنا الجهد مداه اتفقنا على أن أكتب تعليقاً يكون معفى من مراقبته.

وبدأ ملكوم إكس من فوره يقضي معي ساعتين أو ثلاث بعدما يركن سيارته الأولدز موبيل خارج الشقة الصغيرة التي كانت له وقتها في غرينيتش فلاج. وكان يصل على الدوام في حوالي التاسعة أو العاشرة مساء وفي يده حقيبته الجلدية الداكنة والمسطحة التي كانت تضيف إلى هندامه مسحة تجعله يبدو كمحامٍ مشغول للغاية. وكان يصل في إعياء شديد أحياناً بعد يومه الشاق والطويل.

وكانت البداية محبطة، ولعلنا كنا كما قال، متهيبين من المهمة. كان يجلس ويحدق في وكأنه ليس الرجل الشرس الذي يحتد على السود إذا أغضبوه احتداده على عامة البيض والذي سمعته في التلفزيون والندوات الصحافية وتجمعات أمة الإسلام يتحامل بشدة على كتاب زنوج ويرميهم بـ«العم طومية» وبـ«زنوج الحقل» وبـ«السود في ملابس البيض» فكنت أبقى أنظر إليه وأقول: «في عام سأسبر غور أسراره رغم حرصه عليها وأكشف تجربته في عالم الإجرام ومواقع المسؤولية داخل أمة الإسلام»، ولكن لم تنفعني معه لا تجربتي العسكرية ولا خبرتي المسيحية، وكان يسخر من الزنوج المنتمين إلى الجهتين معاً. وعلى الرغم من أنه كان قد بدأ يحثني بطريقة غير مباشرة على الكتابة عن المسلمين في المجلات، إلا أنه قال لي مراراً وبطرق شتى: «إنكم معشر السود المهنيين ستنتهون لا محالة إلى الإقتناع بأن عليكم أن تتحدوا تحت لواء إلايجا محمد المحترم إن أردتم أن تنقذوا أنفسكم». وكان مقتنعاً بأن مصلحة البوليس الفدرالي قد زرعت مكروفوناتها في شقتي، ولعله كان يشك في أنها قد تكون فعلت ذلك بتعاون معي. وكان في الأسابيع الأولى يقول كلما دخل الحجرة التي نشتغل فيها: «دعنا نجرب الميكروفونات. واحد، اثنان، ثلاثة...».

وجاءني ذات ليلة قبل موعده، فالتقى في المدخل بصديق أبيض كان يزورني فتصرف طول المساء تصرف من اقتنع بأنه عثر على الحجة التي تؤكد كل شكوكه. وذات مرة أخرى جلس يتكلم كلاماً فخماً على أمجاد المنظمة الإسلامية ويلوح بجوازه في الهواء، ولاحظ أنني أحاول قراءة رقمه فرماني به فجأة واحتقنت رقبته وقال: «خذ

اقرأ على مهلك ولكن أتظن أن فيه شيئاً لا يعرفه الشيطان الأبيض؟ إنه هو الذي سلمه لي».

وبقيت مدة شهر تقريباً أعتقد أننا لن نصل إلى كتابة أي كتاب. كان ما يزال يخاطبني بـ«السيد» ولم أكن قد دونت أي شيء في كراستي خارج فلسفة أمة الإسلام والثناء على إلايجا محمد وإبراز شرور الشيطان الأبيض، وكنت أذكره بأن موضوع الكتاب هو حياته فكان يغضب. وبدأت أفكر في أن أقول للناشر إنني عجزت عن الوصول إلى صلب الموضوع عندما لاحت لي بارقة أمل. لاحظت أنه وهو يتكلم معي يخط أحياناً بقلم جاف أحمر على أية ورقة تكون قريبة منه وأحياناً على هامش الجريدة التي يكون قد أتى بها، وأحياناً على بطاقات صغيرة يضعها في مذكرة مواعيده ذات الغلاف الخلفي الأحمر فبدأت أضع أمامه كلما جئته بمزيد من القهوة منديلين أبيضين من الورق. ونجحت خطتي وبدأ يكتب على المنديلين اللذين كنت أهرع إليهما بمجرد ما يخرج، ووجدت عليهما كتابات من هذا النوع: «هنا يرقد رجل أصفر قتله رجل أسود في حرب رجل أبيض كان قد قتل كل الرجال الحمر». كان يرمز للرجال وألوانهم بالحروف الأولى، ولم يكن من الصعب علي الإهتداء إلى ذلك نظراً لمعرفتي به. «لا شيء يحدث من دون سبب. الرجل الأبيض لا يستطيع أن يواجه ظروف السود. الرجل الأبيض مهووس بإخفاء ذنبه»... «لو كانت المسيحية قد وجدت في ألمانيا لكان ستة ملايين من اليهود ما يزالون على قيد الحياة»... «ما أسرع ما ينتصب الرجل الأبيض ليقول للسود أنظروا ما فعلته لكم! كلا! بل أنظر أنت ما فعلته بنا!»... «لقد أطفأ الرجل الأبيض نور عيوننا وجاء الآن يتهمنا بعدم القدرة على البصر»... «الرجال الذين غيروا مجرى التاريخ استطاعوا أن يغيروا نظرة الناس إلى نفسها، هتلر والمسيح وستالين وبوذا... وإلايجا محمد المحترم...».

وأوحت لي هذه الكتابات بشيء جربته ونجح. كان قد كتب على إحدى الورقتين: «المرأة التي تبكي على الدوام تفعل ذلك لأنها تعرف أنها لن تعاقب عليه» فأثرت معه موضوع المرأة فجأة وتدفق نقده وعدم ثقته في النساء وهو يحتسي القهوة ويخط. قال: «لا يمكن للإنسان أن يثق في المرأة أبداً. لقد قلت للمرأة الوحيدة التي أثق فيها بنسبة ٧٥٪ ما سأقوله لك، إنني رأيت عدداً كبيراً من الرجال تدمرهم زوجاتهم أو عشيقاتهم. إنني لا أثق في أي كان ولا حتى في نفسي بعدما رأيت عدداً كبيراً من الرجال يدمرون أنفسهم، رجالاً أقدرهم مثل إلايجا محمد المحترم». ونظر إلي نظرة متفحصة وقال: «أما أنت فأثق فيك بنسبة ٢٥٪» ثم قال مزهواً بعدما حاولت أن أبقيه

في الموضوع: «هل تعرف لماذا أصبح أرنولد بينيديكت خائناً؟ المرأة! ومهما كانت المرأة فإن مآلها إلى الضعف دائماً، والدليل على ذلك أن هناك شيئاً تستطيع أن تفعل معها. أنا أعرف ما أقوله. لقد جربته. خذ أكثرهن جدية أو دناءة، امرأة من ذلك النوع الذي لا يبتسم وقل لها وأنت تنظر في عينيها: «أعتقد أنك جميلة» وسترى. قد تسبك في اليوم الأول والثاني ولكن واصل لعبتك وستجدها في يوم من الأيام تبتسم لك بمجرد ما تراك».

وخرج فهرعت إلى المنديلين اللذين يدلان على أنه يستطيع أن يتكلم في شيء ويفكر في شيء آخر وقرأت: «الزنوج مستقيمون أكثر من اللازم. الرجل الأبيض يقول: أريد هذه القطعة الأرضية. كيف يمكنني أن أخرج منها أولئك الألفين من السود؟»... «زوجتي تتفهم وإلا فهي تتظاهر بذلك»... «لن يحصل السود على الدعم الخارجي المفتوح الذي يحتاجون إليه إلا إذا كونوا جبهة موحدة»... «أجلس وأتكلم مع رجال أذكياء أكن لهم كامل الإحترام، رجال تشوقهم مثلي المعارك الفكرية»... «لقد قابلوا زعماء سود سيكون الكشف عن أسمائهم مذهلاً» (قصد بالفاعل إلايجا محمد).

وذات ليلة جاء مرهقاً فمضى يذرع الغرفة مدة ساعتين وينتقد الزعماء الزنوج الذين كانوا يتهجمون عليه وعلى إلايجا محمد ثم توقف ليلتقط أنفاسه فقلت له دون أن أدري ما الذي دفعني لذلك: «ترى هل يمكنك أن تحدثني عن أمك؟» فتوقف عن المشي بغتة ونظر إلي نظرة أدركت منها أن سؤالي قد نفذ إلى داخل نفسه وأعتقد الآن أنني ضبطته في حالة ضعف جسدي شديد جعل قدرته على الدفاع ضعيفة. وبدأ يتكلم ببطء وهو يدور حول نفسه وفي دائرة صغيرة ويقول: «كانت دائماً بجانب الموقد تحاول أن تمدد ما لدينا من طعام. كنا نجوع حتى نشعر بالدوار. أذكر لون الفساتين التي كانت تلبسها، رمادي باهت...» وبقي يتكلم تلك الليلة حتى الفجر، حتى بدأت قدماه الكبيرتان تتعثران. ومن سيل هذا التذكر جاءت أخيراً مادة الفصلين الأولين من هذا الكتاب: «الكابوس» و«طالع السعد». بعد ذلك بدأ يتكلم بسهولة على أشد التفاصيل حميمية في السنتين التاليتين من حياته وكأن كلامه عن أمه قد أطلق لسانه.

كان مزاجه ينتقل من القتامة إلى العبوس وهو يستحضر طفولته، وكان يركز على حقيقة تبينت له منذ ذلك الحين وهي، حسب قوله، أن «محور الباب الذي يئز هو الذي يدهن» وعندما وصل إلى رحيله إلى بوسطن ليعيش مع أخته إيلا وبدأ يحكي عن

مظهره السوقي في شوارع الحي الزنجي بدأ يضحك ويقول متعجباً: «إنني أحكي لك أشياء لم أفكر فيها منذ ذلك العهد أبداً». وعندما وصل إلى أيامه الأولى في هارليم ظهر عليه الإنفعال. وذات ليلة هب من مقعده وبدأ يدندن ويفرقع أصابعه قائلاً: «ري ـ بوپ ـ دي ـ بوپ ـ بلاپ ـ بلام» ثم تناول غليوناً وأمسكه في وضع عمودي وبدأ يراقصه ببهجة الليندي هوبينغ وكل ما فيه يطير: ذيل سترته وساقاه الطويلتان وقدماه الكبيرتان، كما كان يفعل في تلك الأيام الخوالي وفجأة تراجع وعاد إلى مقعده وبقي طول الليلة معكر المزاج. وفي الفصل المتعلق بهارليم طغت عليه القتامة وقال: «إن ما أراه خطأ في حياتي تلك هو أنهم أمسكوني وأنا متلبس بالخطأ. لقد كنت أعيش في الغاب، بعقلية الغاب ففعلت كل ما فعلته مدفوعاً بغريزة الصراع من أجل البقاء» وأكد لي أنه لا يشعر بالندم على ما ارتكبه من جرائم لأنها كانت نتيجة حتمية لما يقع للألوف المؤلفة من السود في دنيا الرجل الأبيض المسيحية».

ووصل في سرده إلى السجن فتوقفت بهجته وقال: «دعني أقل لك كيف كنت أحمل أولئك الشياطين البيض، الحراس منهم والسجناء على فعل كل ما كنت أريده منهم. كنت أسر لهم أنني، إن لم يفعلوا ما أريده، سأشيع أنهم زنوج بيض». وهذا يعطيك نظرة على رأي الشيطان الأبيض في السود. الموت أحب إليه من أن يعتقد الناس أنه زنجي!». وتكلم على الكتب التي قرأها في السجن وقال: «لم أكن أعرف ما كنت أفعله. كل ما هناك أنني أحببت الكتب بالسليقة ووجدت فيها مقويات فكرية». وقال مرة: «في هذا الإيقاع المجنون لعالم اليوم الذي لم يعد فيه مجال للتأمل أو التفكير ولم يعد الإنسان يجد فيه وقتاً يمكنه أن يستعمله استعمالاً جيداً، أرى أن السجن يأتي بعد الجامعة مباشرة كأنسب مكان لمن يريد أن يفكر. إن السجين إذا كان لديه الحافز يستطيع أن يغير مجرى حياته». وقال: «عندما يدخل الإنسان إلى السجن تتغير نظرته إلى نفسه وإلى الناس. إن السوقيين الذين بقيت سفينتهم تنساب بهم خارج أسوار السجون على مياه هادئة، يحتقرون الخارجين من السجن، ولكن الخارج من السجن يبقى مرفوع الرأس عندما تغرق بهؤلاء سفينتهم». كان يكتب تلك الليلة وهو يتكلم فأرخت ما دونته في كراستي وأرخت المنديلين وها هو ما كتبه عليهما: «لقد اكتشف هذا الرجل الأبيض القنبلة الذرية وألقى بها على غير البيض الذين أصبح يسميهم حمرا وهو الآن يعيش في الخوف من قيام بيض آخرين يعرفهم بإلقاء قنابلهم علينا»... «تعلم الحكمة من حدقة العين التي ترى كل شيء وتعمى عن رؤية نفسها. شاعر فارسي».

كان يعود بين الفينة والأخرى ليقول: «إنني لا أريدك أن تنشر في هذا الكتاب أي شيء يوحي بأنني مهم»؛ فكنت أؤكد له أنني سأحاول ألا أفعل ذلك وأنه على كل حال سيقرأ المخطوط والطبعة ما قبل الأخيرة. وكان أحياناً يقول وهو يراني أدون كلامه: «إن ذلك الشيطان لن ينشر شيئاً من هذا. لا يهمني ما سيقوله!» وكنت أذكره بأن الناشرين قد وقعوا على عقد يلزمهم بنشر كل شيء ودفعوا لنا مقدّماً مبلغاً كبيراً. فكان يقول: «أنت تثق فيهم أما أنا فلا. لقد درستَ عنهم في المدارس ما أرادوك أن تدرسه أما أنا فقد درستهم في الشوارع والسجون، أي على الطبيعة».

كانت أحداث يومه تؤثر على مزاجه وقت استجوابي له، فكان يحكي الطرائف اللطيفة عندما يقع له في يومه حدث سعيد. وذات مرة قال لي إن زوجين من هارليم ليسا من المسلمين السود قد سموا وليدهم ملكوم، عليه، وبقي يقول متعجباً: «هل تدرك معنى ذلك؟». وكانت تلك هي الليلة التي رجع فيها إلى طفولته وتذكر كيف كان يستلقي على قفاه فوق ربوة هكتور ويفكر والليلة التي قال فيها: «لن أنسى يوم انتخبوني عريف الفصل. رشحتني بنت اسمها أودري سلو كان أبوها يملك ورشة لتصليح السيارات وزكى ترشيحها تلميذ آخر فطلب مني الأستاذ أن أخرج ريثما تنتهي الإنتخابات وعندما رجعت كنت عريف الفصل. شيء لا يصدق».

وكان كلما تطرق إلى الكتب القيمة التي قرأها يسهب في الكلام على الكتب بصفة عامة. وفي ذلك قال مرة: «إن الناس لا تعرف أن كتاباً واحداً كفيل بأن يغير مجرى حياة الإنسان». وكان يكثر من العودة إلى حديث الكتب التي درسها في السجن. وقال لي: «هل قرأت كتاب منول اللغة؟» فقلت له إنني لم أقرأه فقال: «يجب أن تقرأه. إنه كتاب في فقه اللغة، ذلك العلم الصعب، ويتناول كيفية التعرف إلى الكلمات حيثما وجدت. «قيصر» مثلاً كلمة من أصل لاتيني. تنطق في الإنجليزية «سيزر» وفي اللاتينية «كيصر» بالكاف المشددة والروسيون ينطقونها «كُزار» ويقصدون بها الشيء نفسه وفي لهجات روسية أخرى تنطق «تزار». من أبرز العلماء في هذا العلم جاكوب غريم الذي درست وأنا في السجن كتابه قانون غريم حول الحروف. ويقترب فقه اللغة من علم الإشتقاق الذي يهتم بجذور الكلمات والذي خضت فيه أيضاً».

أجد في الصفحة التالية للصفحة التي دونت فيها هذا الكلام معلومة قالها في المهتف وهي: «سأغيب عن نيويورك بضعة أيام» ربما لإلقاء محاضرات كعادته أو

للقيام بمهام إسلامية. وأذكر أن ذلك سرني لأنه أعطاني مهلة عدت فيها إلى كراستي ورتبت ما دونته في فصول. وعندما عاد قال لي: «عندي خبر سيفاجئك. إني منذ كلمتك عن أمي لم أكف عن التفكير فيها. وقد أدركت أنني كنت قد أسقطتها من بالي لألغي وجودها في ذلك المستشفى العقلي منذ ما يزيد على عشرين عاماً. الخبر أنها خرجت منه الآن بفضل أختي إيفون لا بفضلي. لقد جمعتنا أختي إيفون (ويلفريد وويسلي وفيلبرت وأنا) وأقنعتنا بضرورة إخراجها فتكفل فيلبرت بذلك». وقال: «لقد جعلني ذلك أكتشف أن فكري كان موصداً عن ذكر أمي. كنت أحسب أن مشكلتها بلا حل فأسقطتها من ذهني وصددتها لاشعورياً، وهذا هو ما يفعله الرجل الأبيض. يسقط من ذهنه الحقائق التي لا يريد أن يجابهها ثم يصدها لاشعورياً. والآن وقد فتحت ذهني من جديد أدرك مدى الإنغلاق الذي كان فيه. وهذه إحدى صفاتي التي لا أحبها. عندما أجدني أمام مشكلة يستعصي عليّ حلها أبعدها نهائياً وأزعم أنها غير موجودة، ولكنها مع ذلك موجودة. وجاء دوري لأتأثر تأثراً كبيراً ثم غاب بعد ذلك لبضعة أيام مرة أخرى، وعندما عاد قال لي: «لقد تعشينا في بيت أخي فيلبرت مع أمنا لأول مرة منذ كل هذه السنين! إنها الآن في السادسة والستين. ذاكرتها أحسن من ذاكرتي وتبدو في تمام الصحة وعز الشباب. ما يزال لها من الأسنان ما ليس لمن كانوا سبباً في الزج بها في ذلك المكان».

كان عندما يحدث في يومه ما يغضبه يأتي بوجه محتقن ويبقى طيلة المساء يسلق البيض بلسان حاد. وعندما ضرب البوليس مسلمين بالرصاص في لوس أنجلس وقتل واحداً منهم، عاد ملكوم إكس من هناك وبقي أسبوعاً كاملاً لا يتكلم. وكان قد صرح في لوس أنجلس وهو على تلك الحال بكلام استنكره البيض والسود على السواء. قال: «لقد وصلتني بعض الأخبار السارة!» وقصد بذلك حادثة سقوط طائرة في مطار أورلي قتل فيها ثلاثون أمريكياً أكثرهم من أطلانطا، جورجيا. ولم يعتذر عن ذلك حسب علمي ولكنه قال لي فيما بعد: «ليتني ما قلت ذلك أبداً».

كان مجرد ذكر اسم القاضي الفدرالي ثورغود مارشال يجعله يستشيط غضباً لأنه يذكره بما قاله عندما كان محامي الجمعية الوطنية لتقدم الملونين وورد فيه: «إن المسلمين ثلة من السفاحين تأتيها الأوامر من السجون وتمولها، وأنا متيقن من ذلك جماعة عربية ما».

ولم أسمع ملكوم إكس يسب إلا عندما وصله قول مارتن لوثر كينغ: «إن كلام

ملكوم إكس يجلب البؤس على الزنوج» فقال: «اللعنة!». انفجر وقال لي: «اللعنة! بالله كيف يفعل كلامي ذلك؟ إنهم على الدوام يتهمون الزنجي ويتركون الرجل الأبيض يفعل ما يشاء». وكان لا يصل إلى ذلك الحد من الغضب إلا عندما يسمع من يتهمه بـ«المتطرف!» أو «الديماغوجي!» فيقول: «نعم، أنا متطرف. وهل يمكنني أن أكون غير ذلك والجنس الأسود هنا في أمريكا الشمالية يعيش في أسوأ حال. هل يوجد رجل أسود غير متطرف؟ إن وجد فهو ولا شك لا يملك قواه العقلية».

وقال ذات مرة: «إن أرسطو يصدم وشالز داروين يُغضب وألدوس هاكسلي يُشين!» وأردف ذلك بقوله: «إياك أن تطبع ذلك. سيعتقد الناس أنني أربط نفسي بهؤلاء». وحدث في يومه مرة شيء استفزه فقال: «هؤلاء العم طوميون يذكرونني بما تعرض له المسيح من نقد في بلاده!» ثم وقف من فوره وأخذ كراستي في صمت ومزق الصفحة التي كنت أكتب عليها وعصرها ووضعها في جيبه وبقي طوال الحصة نهباً لما استولى عليه من شعور بالقهر.

وذات مرة كنا نتكلم فأخرج قصاصة صحيفة تقول إن طفلاً زنجياً قد عضه فأر كبير وقال: «اقرأ هذا! فكر فيه للحظة! تصور أنه ابنك! أين كان صاحب الملك، صاحب الخرائب؟ في أحد شواطىء ميامي لا شك!» وبقي فائراً طوال الحصة. ولم أرافقه عندما ذهب في اليوم التالي ليخطب في تجمع أسود بهارليم، ذلك التجمع الذي شهد حادثة نقلتها هيلين دادر في النيويورك بوست كالتالي:

(كان ملكوم يخطب في هارليم عندما نظر إلى الصحافي الأبيض الوحيد الذي سمح له بالحضور وقال: «هناك صحافي لم يكتب منذ نصف ساعة حرفاً واحداً مما قلته، ولكنه سيكتب بلا هوادة بمجرد ما أتكلم على اليهود ليثبت أنني معاد للسامية». وارتفع صوت من خلف الصحافي قائلاً: «اقتلوا الكلب. اقتلوهم جميعاً». وبدأ الصحافي الشاب من حرجه يتسم ابتسامة عصبية فقال ملكوم ساخراً: «انظروا إلى ضحكته. إنه لا يضحك. إنه يضحك بأسنانه». وتوتر الجو توتراً شديداً ثم واصل ملكوم: «إن الرجل الأبيض لا يعرف كيف يضحك. إنه فقط يبدي أسنانه، أما نحن فإننا نعرف كيف نضحك. نحن تنبع الضحكة من أعمق أعماقنا» فضحك الجمهور من أعمق أعماقه. وبذلك انتقل به ملكوم في لمحة من الإنفراج بعدما كان قد شحنه بالتوتر مؤكداً ما له من قدرة خارقة على التشخيص ومقدماً في الوقت عينه مشهداً يجمع بين الخسة والبراعة).

بعد ذلك سمعت أو قرأت في مكان ما أنه طلب ذلك الصحافي هاتفياً وقدم له اعتذاره. وكانت هذه الحادثة نموذجاً آخر من النماذج التي يعزز بها مراقبو الظاهرة الملكومية قولهم: إنه الزنجي الوحيد في أمريكا الذي يستطيع أن يبدأ التمرد أو يوقفه. وذكرت له ذلك لأستدرجه إلى أن يعلق عليه، فجاء تعليقه من ذلك النوع المحبب إليه إذ قال: «لا أعرف إن كنت أستطيع أن أبدأ التمرد ولكنني لا أعرف إن كنت سأوقفه إذا بدأ».

وفي شهر توطدت معرفتي بزوجته من خلال المهتف. كنت أناديها كما سمعت المسلمين ينادونها «الأخت بيتي» وكنت معجباً بقدرتها على الجمع بين الإشراف على بيتها وتربية بناتها الصغيرات الثلاث والرد على المكالمات التي تأتي لزوجها والتي كانت في حد ذاتها تحتاج لعاملة مهتف متفرغة. وكان ملكوم إكس يطلبها من شقتي ويمضي ما لا يقل عن خمس دقائق يكتب على لفة من البطاقات، الرسائل التي تكون قد توصلت بها طوال اليوم.

وكانت الأخت بيتي تفضي لي تلقائياً وبمودة عن قلقها فتقول: «إنه لا ينام بالمرة!» وكان عمله اليومي يستغرق ثماني عشرة ساعة. كان أحياناً يترك شقتي في الرابعة صباحاً متوجهاً إلى بيته في إست إلمهورست بلونغ آيلاند على بعد أربعين دقيقة بالسيارة ويقول لي: «أطلبني في التاسعة صباحاً» وذلك عندما كان يريدني أن أصحبه إلى جهة ما ليحدد لي مكان اللقاء بعدما يكون قد راجع تعهداته. وكانت هناك ليال ليلاء لم أكن أنا نفسي أصيب فيها من النوم ما يكفي. وكان يستصحب في أسفاره أحد رفاقه المسلمين مثل جايمس إكس السابع والستين الذي يشير رقمه إلى أنه المسلم السابع والستون، الملتحق بمسجد نيويورك، الذي يحمل اسم جايمس، أو كان يستصحب شالز إكس السابع والثلاثين أو كان يستصحبني ولكنني لم أرافقه أبداً عندما كان يرافقه أحدهما. وقد ذهبت معه إلى مناسبات متنوعة وأماكن شتى، إلى جامعات وبرامج إذاعية وتلفزيونية وتجمعات. وعندما كنا نذهب براً كانت الناس في الطريق السيار تلوح له والوجوه تستنير لرؤيته وكأنه نجم لامع. وكانت مضيفات الطائرات يعرفنه لكثرة تنقله جواً فكن يبتسمن له في رقة، والحق أنه كان من جهته على خلق. وكان الخبر يسري في الطائرة فيكثر الركاب الذهاب إلى دورة المياه لمجرد المرور بمقعده، وعندما كنا نصل إلى وجهتنا المقصودة كنا نسمع عبارات أصبحنا متعودين عليها: «ها هو ملكوم إكس!». «أين؟». «ذلك الرجل الطويل».

كان المارة من كلا الجنسين ينظرون إليه وبعضهم، السود منهم بالخصوص

يكلمونه ويهزون له رؤوسهم بالتحية. وكانت نسبة كبيرة من البيض تشعر بالحرج في وجوده لا سيما إذا جمعته بهم أمكنة ضيقة مثل المصاعد. وقال لي مرة: «إنني الأسود الوحيد الذي رأوه يقول لهم الحقيقة عن قرب. إن الشعور بالذنب هو الذي يزعجهم وليس أنا. الحقيقة تقطع نفس الرجل الأبيض وتستنزف قواه. ألا ترى كيف يحمر وجهه عندما يسمعها؟»

كان هناك شيء يتبلور فيه كلما جمعه مكان مع الناس. كان يهيمن على المكان مهما كان الحاضرون هيمنته على التجمعات الشعبية المنظمة في الهواء الطلق. أذكر أنه جلس مرة في منصة بهارليم بين عضو الكونغريس آدم كلايتون پاول ورئيس مقاطعة منهاتن هولن جاك وانتهى التجمع فهرعت الناس إليه هو. أذكر أيضاً يوم سافرنا بالقطار من نيويورك إلى فلادلفيا حيث كان عليه أن يشارك في برنامج إيد هارفي الإذاعي الذي كان سيبث مباشرة من قصر المؤتمرات في تلك المدينة. وأذكر أن صاحب البرنامج قال وهو يقدمه: «يقال إنك صاحب القولة: كل الزنوج غاضبون وأنا أغضبهم فهل هذا صحيح؟» فأجابه باقتضاب: «أجل، إنه صحيح». ونظر إليه من كانوا قد تجمهروا للتفرج مأخوذين.

وسافرت معه إلى فلادلفيا في الدرجة الأولى بالقطار بعدما كان قال لي: «لا أستطيع أن أسافر في الدرجة الإقتصادية لأنني قد أتعرض فيها لبعض المشاكل، وعبرنا المطبخ في طريقنا إلى عربتنا فأشار إليه برأسه وقال: «لقد كنت أعمل هنا» ثم قال لي ونحن ما نزال نعبر إلى عربتنا: إن مصلحة البوليس الفدرالي قد حاولت أن ترشوه للحصول منه على معلومات عن إلايجا محمد وأن هناك كتاباً قد ظهر يجب أن أقرأه: عنوانه «أزمة بالأبيض والأسود» لصاحبه شالز سلبرمان وقال: «إنه واحد من الكتاب البيض القلائل الذين يمتلكون الشجاعة الكافية لقول ذلك النوع من الحقائق، وطلب مني أن أتصل بالصحافية هيلين دادر في النيويورك بوست وأبلغها إعجابه الكبير بما كتبته مؤخراً في عمودها لأنه لم يكن يريد أن يطلبها بنفسه.

وانتهى البرنامج فرجعنا إلى نيويورك بالقطار مرة أخرى. كانت الدرجة الأولى مكتظة برجال أعمال يختفون وراء الجرائد في طريق العودة إلى بيوتهم بعد أن أنهوا المهام التي سافروا من أجلها. وتكهربت العربة بوجود ملكوم إكس فيها وأكثر النادل الزنجي ذو السترة البيضاء من الذهاب والإياب فهمس لي ملكوم إكس عندما وجده يمر من جديد قائلاً: «لقد كان يعمل معي في هذا القطار نفسه وقد عرفني ولكنه حائر لا

يدري هل يكلمني أم لا». ومر بنا النادل فانحنى ملكوم إكس وابتسم له فقال بغتة: «إني إعرفك بكل تأكيد. لقد كنت تغسل الصحون هنا في هذا القطار نفسه! لقد أخبرت الرفاق بوجودك على متن القطار. إننا جميعاً نتتبع أخبارك». وتكاثف التوتر في العربة حتى أوشك أن يقطع بالسكين وذهب النادل ثم رجع وقال بالصوت المرتفع نفسه: «إن أحد المسافرين يود أن يتعرف عليك». ووقف شاب أبيض أنيق وجاء صوبه بيد ممدودة فوقف ملكوم إكس وشد عليها بقوة ونزلت الجرائد وبدت العيون من خلفها. وقال الشاب بصوت جهوري واضح إنه كان في الشرق وأنه الآن طالب في جامعة كولومبيا وزاد قائلاً: «إنني لا أتفق معك في كل ما تقوله ولكن ذلك لا يمنعني من الإعجاب بأسلوبك» فرد عليه ملكوم بكل مودة قائلاً: «إنك لو فتشت أمريكا كلها لما وجدت شخصين اثنين يتفقان على كل شيء»، ثم قال لرجل أعمال أبيض آخر أكبر سناً جاء ليسلم عليه: «أعرف شعورك أيها السيد وأعرف أنه من الصعب عليك أن تعارض ما أقوله وأنت تعرف في قرارة نفسك أنه الحق». وواصلنا سفرنا وقد أصبحت الأنظار توجه إلينا علانية.

وفي واشنطن أدان ملكوم إحجام الحكومة عن اتخاذ موقف إيجابي من السود، وأعتقد أنها كانت من جهتها تأخذه مأخذ الجد. ذلك أنني شُغلت بعد ذلك بأيام قليلة باستجواب الملحق الصحافي في البيت الأبيض بيير سالنينغر، وأنه عبس لاشعورياً عندما قلت له إنني أكتب قصة حياة ملكوم إكس. وانشغلت مرة أخرى باستجواب رئيس الحزب النازي في الولايات المتحدة جورج لينكلن روكويل فقال لي إنه بكل صراحة معجب بشجاعة ملكوم إكس وأنه يعتقد أنه يجب أن يقوم معه بجولة خطابية عبر الولايات المتحدة تكون مبادرة لحل المشكل العنصري على أساس التراضي بين الجنسين على الفصل القائم على عودة السود إلى إفريقيا. وقلت ذلك لملكوم إكس فنفخ بمنخره وقال: «إنه يعتقد أنني بليد! ماذا سيقول الناس عندما يرونني أخطب بجانب شيطان؟». ومرة أخرى ذهبت إلى أطلانطا لأستجوب الدكتور مارتن لوثر كينغ الذي أدهشه ما حكيته له من جوانب شخصية ملكوم إكس غير المعروفة، وتكلم عليه في نطاق المقال بتحفظ، وقال إنه يود أن يلتقي به ويكلمه. وعندما سمع ملكوم إكس ذلك قال بجفاف: «أتظن أن علي أن أبعث له برقية برقم مهتفي؟» ولكنني استنتجت مما قاله لي عنه في مناسبات أخرى أنه معجب به في سره.

ومع الأيام أصبحت علاقتي به حميمية على الرغم من أنها كانت غير معبر عنها.

كانت بالنسبة لي أكثر من قابلتهم مودة وأفترض أنني كنت بالنسبة له شخصاً يعرف أنه يستطيع أن يفضي له بكل همومه وهو مطمئن إليها. وكان، شأن من يعيشون في التوتر، يرتاح إلى رفقة شخص من خارج دائرته المعتادة. وعندما بدأت أسافر لإجراء استجواباتي، عرض علي أن أخبره بمواعيد رجوعي حتى يستقبلني في المطار. وبدأ بالفعل يفعل ذلك كلما تسنى له إيجاد مكان له في برنامجه اليومي، وبدأت أصل فأراه قادماً بهامته العالية وخطاه الواسعة ووجهه البشوش فنمضي إلى نيويورك وهو يحدثني عما جد أثناء غيابي. وأذكر حادثة وقعت في المطار أكدت لي أنه ما يزال متأثراً بنظرته عن العنصرية. شاهدنا ونحن ننتظر وصول حقيبتي اجتماع شمل إحدى الأسر التي كان في طرفها الوافد أطفال جميلون يضجون بلغة أجنبية فقال: «غداً مساء على أبعد تقدير يكونون قد تعلموا أول كلمة إنجليزية: زنجي!».

وعندما كان يسافر إلى جهات نائية مثل سان فرانسيسكو أو لوس أنجلس، لم أكن أرافقه ولكنه كان يطلبني هاتفياً في آخر الليل عادة ليسألني عن سير الكتاب ويحدد لي أحياناً موعد الحصة التالية.

وهناك مكالمة منه لن أنساها ما حييت، جاءت في حوالي الرابعة صباحاً فأيقظتني من النوم، ولعله كان قد استيقظ لتوه في لوس أنجلس. وقال: «أليكس هاليي؟» فقلت وأنا لم أستيقظ بعد تماماً: نعم، من؟ أو ملكوم! أهلاً!!» فقال؛ «إني أثق فيك بنسبة ٧٥٪» وأقفل السماعة. ورجعت إلى الفراش ففكرت فيه برهة ثم رجعت إلى النوم تحت أثر تلك المكالمة اللطيفة الذي أستشعره الآن وأنا أستحضرها ولم يشر أي منا إلى ذلك أبداً.

لم يكن يحترم من الأفراد البيض إلا من خلا من كل ما كان يعيبه على البيض عادة وتعامل معه على أنه إنسان. وكان مقتنعاً بأنه يستطيع أن يعرف الرجل من كلامه. قال لي في هذا الشأن: «إن الإستماع فن من الفنون. عندما يتكلم الرجل أنتبه إلى صوته لأعرف هل هو صادق فيما يقوله».

وأظن أن الصحافي الذي تأثر به أكثر من غيره هو هاندلر من النيويورك تايمز، ولذلك سررت عندما علمت أنه قَبِلَ أن يكتب مقدمة هذا الكتاب لأنني أعرف أن ذلك كان سيسر ملكوم إكس. وأول ما سمعت ملكوم إكس يتكلم على هاندلر عندما تعرف إليه قال: «لقد قابلت شيط...» وتوقف محرجاً ثم تدارك وأكمل: «... صحافياً

يدعى هاندلر من التايمز» ثم لم يزدد مع الأيام إلا احتراماً له وتأثراً به فقال لي وهو يتكلم عليه بعد أشهر: «إنه الرجل الأبيض غير العنصري الوحيد الذي قابلته في حياتي. لقد جربته، طرحت عليه أسئلة وسمعته يتكلم».

ورأيت ملكوم إكس يناقش طلاباً بيضاً في أعقاب محاضراته في الجامعات، فأكدت له بهجته العفوية وهو يفعل ذلك أنه لا يمكن أن يكون يكره البيض في قرارة نفسه. قال لي مرة: «إن الشباب الأبيض والأسود هو كل ما تبقى لأمريكا من أمل أما نحن فقد كانت حياتنا سراباً».

وتحضرني الآن أسماء بعض من كان يقدرهم من الزنوج وآخرين كان يبغضهم، ولكنني سأكتفي بذكر العينة الأولى. كان يقدر مثلاً المصور العظيم غيردن باركس الذي اقترن اسمه بمجلة لايف والذي تمكن بفضل ملكوم إكس من تصوير تدريبات شباب ثمرة الإسلام السرية، الأمر الذي جعله حسب علمي الرجل غير المسلم الوحيد الذي تمكن من مشاهدتها إذا استثينا بالطبع أعضاء البوليس وممثلي وكالات المخابرات الذين تسربوا إلى أمة الإسلام للتجسس عليها. وقال لي باركس: «إن نجاحه بين البيض لم يخف عنه الواقع الأسود».

وكان كذلك يقدر الممثل أوسي دايفيس. وذات مرة وأنا أستجوبه سألني دون أن يكون في سياق الحديث ما يبرر ذلك: «هل تعرف أوسي دايفيس؟» فقلت له إنني لا أعرفه فقال: «يجب أن أعرفك إليه. إنه من خيرة السود». وفي علاقته بموظفي الجريدة الهارليمية أمستردام نيوز كان يقدر رئيس تحريرها جايمس هايكسي والصحافي جايمس بوكر. وقال: «إن هايكس رجل متفتح ولا يرتعد أبداً أمام الرجل الأبيض». وكان يعتقد أن بوكر صحافي متميز كما أنه بدأ يقدر زوجته بعدما تعرف إليها.

وإليه يرجع الفضل في تعريفي برجلين أصبحا من أعز أصدقائي وهما الدكتور إريك لينكولن الذي كان وقتها يؤلف كتاب «المسلمون السود في أمريكا» ولويس لوماكس الذي كان يكتب عن المسلمين للصحف. وكان شديد الإعجاب بالعناية التي كان الدكتور لينكولن يوليها لبحثه، بينما كان يحب في لوماكس قدرته على العثور على الأخبار الساخنة. قال لي مرة: «إذا رأيته يركض سأخلع قبعتي وأركض خلفه لأنني أعرف أنه في طريقه إلى حدث مهم». وكان معجباً أيضاً بالكاتب جايمس بالدوين الذي قال عنه: «إنه من الذكاء بحيث يخجل الرجل الأبيض بقلمه (. . .) لقد أحرج

الرجل الأبيض أكثر من أي رجل باستثناء إلايجا المحترم». ولكنه لم يكن يقدر رجال الدين المسيحيين السود، وقد يكون ذلك بسبب ما كانوا يقولونه عن المسلمين السود، فلم يذكر منهم بخير إلا القسيس أوجين كالاندر من كنيسة الرب المشيخية الكبرى في هارليم الذي قال لي عنه: «إنه واعظ ولكنه مناضل أيضاً». وفيما بعد علمت أن القس كالاندر عندما قابله أنبه على جرأته المعهودة بهجوماته على رجال الدين المسيحيين السود. وكان أيضاً معجباً بالقسيس آدم كلايتون پاول لما يقوم به كعضو في الكونغريس وقال عنه: «لو كان السود يقعون على عشرة رجال مثله في واشنطن لتقاعدت وأنا مرتاح البال». وكان معجباً ببيرسي ساتن، محامي الجمعية الوطنية لتقدم الملونين الذي أصبح عضو الهيئة التشريعية لولاية نيويورك والذي أصبح فيما بعد محاميه الخاص. ومن بين الأساتذة الذين قابلهم خلال جولاته الجامعية لم أسمعه يثني إلا على الدكتور كينيث كلارك الذي قال لي عنه: «إنه رجل خارق الذكاء» قالها بعبارة سوقية رجعت به إلى الماضي.

وكان يتحفظ عادة في إبداء رأيه في طبقة الإنتليجانسيا المهنية الزنجية، لا سيما وأنها كانت وراء التهجم على المسلمين السود، ما جعله ينعت أعضاءها في خطبه بـ«العم طوميين» و«ما يسمون بالمثقفين» و«حملة الشهادات الجامعية».

ولم أكن أراه في تمام سعادته وراحته إلا وهو مع عامة السود عندما كنت أجده بالصدفة خارجاً إلى ما كان يحب أن يسميه «جولتي اليومية الصغيرة» فأخرج معه. وكانت تأخذه إلى شوارع هارليم إلى حيث الزنوج الذين كان يقول عنهم إنهم ما يشير إليه «الزعماء السود» كإحصاء. وكان في جولاته يتحاشى الشارع الرئيسي رقم ١٢٥ ويفضل الشوارع الفرعية وخصوصاً ما كان منه غاصاً بمن كان يسميهم بـ«السود الذين يعيشون أسفل سافلين، في الدرك الأدنى الذي تربيت فيه» ذلك الوسط العاج بالفقراء والمخدرين والمخمورين.

وهناك كان ينظر إليه كبطل وهو يذرع الأرصفة بخطواته الواسعة ويغمر من يصادفهم بابتسامته الصافية ويدخل معهم في أحاديث هادئة وممتعة. وكان يتوجه إلى المخمورين قائلاً: «إنِ هذا بالضبط هو ما يريده لك الرجل الأبيض يا أخي! أن تسكر حتى يجد تعليلاً لنزوله عليك بهراوته».

وأذكر أنه توقف مرة في مدخل أحد المنازل ليسلم عَلى جماعة من النساء

العجائز، وأنه فتح الحوار معهن مخاطباً إحداهن بقوله: «هل تسمحين لي يا أختي بسؤال؟ هل تعرفين رجلاً أبيض لم يفعل لك شيئاً أو يأخذ منك شيئاً؟» فقالت: «لا!» وانفجرن ضاحكات وواصل المسير وهو يتلفت ويلوح لهن وهن يقلن في تعجب: «إن الرجل لعلى حق!».

وأذكر أننا عرّجنا ذات مساء إلى شارع جانبي فوجدنا رجلاً مهلهل الثياب يقف على صندوق مستطيل ويخطب في بضعة أشخاص والعلم الأمريكي بجانبه فقال ملكوم إكس: «إنني لا أحترم ذلك العلم ولكن علي أن أنصبه في تجمعاتي إذا كنت أريد ألا يضعني الرجل الأبيض في السجن. وهذا هو ما خرجت لأناضل ضده وكذلك لأتكلم على الوصوليين الذين يغتنون من بني جلدتنا البؤساء».

ولم يكن يتكلم مع السود ذوي الشعور الملينة واللامعة دون أن يلمزهم في غير غلظة فيقول: «لقد علمك الرجل الأبيض كيف تكره نفسك يا أخي فكرهتها حتى أصبحت تضع ماء الرماد الحار في شعرك ليصبح مثل شعره». وأذكر أنني دخلت متجر بقالة لأشتري شيئاً وتركته في الجهة الأخرى من الشارع حيث كان منهمكاً في الكلام مع أحد المارة، فوجدت في مدخل المتجر جماعة من النساء، وعندما خرجت سمعت إحداهن تحكي للأخريات لزميلاتها في إنفعال عن إحدى خطب ملكوم التي شهدتها في المسجد السابع قائلة: «أو، لقد أحرق ذلك الرجل الأبيض. أحرقه حرقاً... قال لنا إننا من سلالة ملوك وملكات. يا رب، لم أكن أعرف ذلك!» وسألتها إحدى النساء: «وصدقته؟» فقالت: «نعم!».

ووقعنا يوماً في إحدى جولاتنا على رجل مكوم في شارع فرعي يعزف على قيثارة ويغني لنفسه. ورفع رأسه فعرف الطلعة الفارعة والخطى الواسعة فهلل في غنائه وبدأ يقفز ثم حياه تحية عسكرية وقال له: «يا مثلي الأعلى!» فسر ملكوم بذلك.

نعم كانوا يحبونه ما في ذلك شك. وسواء كان يحدث المخمورين بجانب الأعمدة الكهربائية أو يخاطب الجماهير أو يجادل البيض المطلعين ويناغشهم بقوله مثلاً: «هوايتي تحريك الزنوج» فقد كانت له في كل هذه الأحوال على مخاطبيه هيمنة وكانت له سلطة!. ولم أكن الوحيد الذي كان يتعجب من مواصلته نسب كل شيء إلى إلايجا محمد المحترم حتى بعدما أصبح محط اهتمام العالم. وكنت أسجل هذا النوع من الملاحظات لنفسي فكنت أحتفظ بكراسين لذلك الغرض. ورآني أتنقل بينهما

فسألني عن ذلك وذكرت له سبباً ما، ولكنني لما أقل له إن أحدهما لأقواله والآخر لملاحظاتي، ولو فعلت لأصبح يحترس في كلامه وتصرفاته وقال: «لا شك أنك كتبت حتى الآن ألف كلمة» فقلت: «لا شك» وقال: «إن هذا الرجل الأبيض مجنون. أتظن أنني كنت، لو كنت مكانه، سأنشر كلام رجل يمرغني في التراب؟»

وقال لي ذات مساء: «اسمع، أصدقني، أنت رجل كثير السفر فهل وصل إلى علمك شيء؟» فقلت له إنني لا أفهم قصده فغير الموضوع. ولم أر أو أسمع منه ما لم أفهمه إلا لماماً فكنت أبعده وأتجاهله. توقف مرة في الضوء الأحمر وتوقفت سيارة يقودها رجل أبيض بجانبه وعرفه فناداه وقال له: «إني أفهم أن يلجأ إليك بنو قومك ولو كنت زنجياً لتبعتك. أصمدا» فرد عليه بصدق قائلاً: «أتمنى لو كان لي فرع أبيض يضم أمثالك». وأضاء الضوء الأخضر فتحركت السيارتان وقال لي بحزم وبسرعة: «إياك أن تكتب ذلك أو حتى أن ترده لأحد. إنه كفيل بأن يصيب السيد محمد بسكتة قلبية». وكانت المرة الأولى التي سمعته يتكلم فيها على السيد محمد بلهجة خالية من الإحترام. في تلك الأيام وجدت أنه خط ما يلي: «كانت حياتي سلسلة من التحولات» ومرة أخرى، في شتنبر ١٩٦٣ بقي غاضباً من شيء، وعندما ظهرت أسبوعية أمستردام نيوز قرأت في عمود جيمي بروكر أنه سمع بوجود خلاف بين إلايجا محمد وملكوم إكس. وذكر فيما بعد أنه سافر بعد ظهور ذلك العدد وأن ملكوم إكس جاء إلى مقر الجريدة مع ثلاثة من رفاقه وقال غاضباً: «أين جيمي بوكر؟ لماذا كتب ذلك؟ ليس هناك أي خلاف بيني وبين إلايجا محمد... أني أؤمن به وعلى استعداد لفدائه بحياتي».

وكنت أقابل بين الفينة والأخرى شخصيات إسلامية ولا سيما عندما أكون معه وكنت أستشف من كلامها وحركاتها في غيابه ما يدل على عدم إعجابها بزميلها المشهور ولكنني كنت أعود فأقول إنني ولا شك قد أسأت الفهم. كنت في تلك الأيام على اتصال هاتفي دائم مع الدكتور إريك لينكولن وكنا نقول إن المشكلة في كون ملكوم إكس مهما حاول أن يضع إلايجا محمد في الواجهة، إلا أن اهتمام الإعلام ومن ثم الرأي العام لا ينصب إلا عليه هو. ولم أعرف أنه كان يعاني الأمرين من جراء تلك الأزمة لأنه لم يتكلم عليها حتى شاع خبرها.

في تلك الأيام أنهى مرة عمله معي في الثانية صباحاً فذهب بعدما سألني أن أطلبه في التاسعة صباحاً. وطلبته فبقي المهتف يرن على غير العادة، وعندما ردت

الأخت بيتي كان صوتها مختنقاً ثم أعطت السماعة لزوجها فإذا صوته أيضاً متغير. وقال: «هل سمعت الإذاعة أو قرأت الصحف؟» فقلت له إني لم أفعل فقال: «إفعل إذن» وأقفل السماعة بعدما قال إنه سيطلبني فيما بعد، وخرجت فاشتريت الجرائد وقرأت فيها بدهشة شديدة أن إلايجا محمد قد أوقفه بسب قولته إن البيض قد نالوا جزاءهم التي قالها تعليقاً على مقتل الرئيس كينيدي.

وكلمني ملكوم إكس كما وعدني بعد ساعة فحدد لي موعداً في مقر جريدة المسلمين السود بهارليم الواقع قرب شارع لينوكس حيث يوجد مسجدهم ومطعمهم. وهناك وجدته يجلس وراء مكتبه المعدني البني الفاتح وقبعته البنية بجانب مقبض الأوراق النشافة. كان يرتدي بدلة داكنة وصدرية وقميصاً أبيض وربطة عنق يمسكها كالعادة مشبكه المصنوع على شكل سمكة واثبة من نوع القرش، وقدماه الكبيرتان تحركان الكرسي الدوار جيئة وذهاباً من داخل حذاء أسود وهو يقول في المهتف: «إني أندم دائماً على عصياني للسيد محمد... نعم أيها السيد، أنا متفق مع كل ما يفعله السيد محمد المحترم. إني أؤمن بحكمته وسلطته». وكان يقفل سماعة المهتف فيعود إلى الرنين ويعود هو إلى القول: «السيد بيتر غولدمان! إني لم أسمع صوتك منذ مدة طويلة. كل ما هناك أنه كان علي أن أغلق فمي». وقال لممثل نيويورك تايمز: «نعم أيها السيد أنا الآن ممنوع من مخاطبة الجمهور وأفهم ذلك تماماً. أقول لك ما قلته لغيرك. إنني أستسلم لحكم السيد محمد كل الإستسلام لأنني أعرف أنه قائم على أساس». وقال لقناة سي بي إس: «أعتقد أن الأولى بمن كان في موقع تأديب غيره أن يقبل التأديب عندما يصدر في حقه».

وظل خلال الأسابيع التالية لا يلوم إلا نفسه. ولكن رقبته كانت تبدو لي محتقنة كلما رأيته ولم يكن قد أعرب بعد عن غضبه البديهي على الإهانة التي وجهت له على رؤوس الأشهاد. كانت حصصه معي قد قلت، وكان قد أصبح قرب المهتف باستمرار، ولكن ذلك لم يكن مهماً لأنني كنت قد جمعت كل ما أحتاجه من معلومات للشروع في الكتابة. وعندما بدأ يجد الوقت لزيارتي كان يبدو مشغول البال إلى حد بعيد، وكنت أشعر بما يعتمل في داخله من جراء الغضب وعدم الحركة رغم مداراته لذلك. وذات ليلة وجدت أنه قد خط: «أنت لا تقنع رجلاً لأنك أسكته. جون فيسكاونت مورلي». وبخط يكاد ألا يكون مقروءاً: «كنت في المنحدر فأنقذني ولكن عندما أفكر في ذلك أجد أننا أنقذنا بعضنا البعض».

وغاب أياماً عدة فجاءتني رسالة منه يقول فيها: «لقد ألغيت كل التزاماتي مع وسائل الإعلام وغيرها وهكذا ستتمكن من إنهاء الكتاب. مع السرعة التي تتغير بها الأحداث في أيامنا هذه قد يحدث في المساء ما ينسخ قول المرء في الصباح. ملكوم إكس».

وسارعت بكتابة الفصل الأول «الكابوس» حتى يقرأه عندما يأتي. وعندما أصبح جاهزاً طلبته هاتفياً فجاء على الفور، الأمر الذي أكد لي معاناته من بقائه في البيت من دون شاغل ولما كنت أعرف مزاجه شعرت بالتعاطف مع الأخت بيتي.

وانكب على الأوراق يقرأها ثم أخرج قلمه الجاف الأحمر وأعاد قراءتها وهو يصحح بين الفينة والأخرى قائلاً: «الدعاء بالرحمة في حق الله لا يصح. يجب استعمال «حمد» وشطب الكلمة الأولى وكتب الكلمة الثانية فوقها ثم وصل إلى فقرة أشرت إليه وإلى أخوته فيها بلفظ «جديان» الإنجليزي الذي يستعمل كناية عن الأطفال فشطب عليه بقلمه الأحمر وقال محتداً: «الجديان للمعز».

بعد ذلك مباشرة سافر بأسرته إلى ميامي بدعوة وجهها إليه كاسيوس كلاي بمناسبة عيد زواجه السادس، فكان ذلك السفر بالنسبة للأخت بيتي عطلة بعد سنوات ست من حياتها الصارمة كزوجة مسلم أسود وبالنسبة له رد اعتبار وملء فراغ.

وأرسل لي بمجرد وصوله برقية برقم مهتف الفندق الذي ينزل فيه فكلمته فقال: «إني فقط أريد أن أقول لك شيئاً. لقد أقلعت عن الرهان منذ زمن بعيد، ولكن إذا كنت أنت تفعل ذلك أنصحك بأن تراهن على فوز كاسيوس كلاي على ليستون» فضحكت وقلت له إنه يؤمن باستقراء الغيب فقال: «عندما تنتهي المقابلة سأذكرك».

بعد ذلك بعث لي بطاقة بريد زاهية الألوان عليها صورة قرد كبير من ذلك النوع الموضوع في غابة القردة بميامي، وكتب على ظهرها «لقد مر قرن على الحرب الأهلية وها هي القردة في أمريكا تحقق من الإعتراف والإحترام والحرية ما لم يحققه أبناء جنسنا. أخوك ملكوم إكس».

ومرة أخرى بعث لي ظرفاً بداخله قصاصة من السان تايمز تشمل عمود إرف كوبسينيت وعلى جملة منها دائرة بالأحمر قرأتها فوجدتها تقول: «إن أشخاصاً من داخل أمة الإسلام يتكهنون بانقسامها وبكون الرجل الثاني المبعد ملكوم إكس قد يشكل

من المنشقين تنظيماً معارضاً لإلايجا محمد» وكتب على الهامش «تصورا!!!».

وليلة الحدث العجيب عندما انتصر كلاي على ليستون كلمني ملكوم إكس من مكان صاخب وقال إن الإحتفال بالنصر يجري في جناحه بالفندق. ووصف لي ما يجري وذكر أسماء بعض الحاضرين وقال: «إن ملك الوزن الثقيل يستريح على فراشي في الغرفة الأخرى» ثم ذكرني بتكهنه و قال: «والآن ترقب أن يصبح كلاي نجماً عالمياً وعقب: «هل تدرك ما سيكون لظهور أول بطل مسلم من أثر عالمي؟»».

وفي اليوم التالي أعلن كاسيوس كلاي للصحافة أنه «مسلم أسود» وبعدها نشرت له صور مع ملكوم إكس وهو يقدمه للدبلوماسيين الأفارقة في مبنى الأمم المتحدة بنيويورك وبعدها جال به هارليم وجهات أخرى معلناً أنه صديقه ومستشاره الديني».

كنت وقتها قد انتقلت إلى شمال ولاية نيويورك لإنهاء الكتاب وكنت أتكلم مع ملكوم إكس هاتفياً كل ثلاثة أو أربعة أيام، وكان قد قال لي كلاماً يفهم منه أنه لا يعتقد أنهم سيرجعونه إلى مركزه السابق في أمة الإسلام كما أنه كان قد بدأ ينتقد إلايجا محمد علانية. وكلفتني مجلة بلاي بوي بإجراء استجواب مع البطل كاسيوس كلاي فطلبت من ملكوم إكس أن يقدمني إليه ولكنه قال متردداً: «أظن أن من الأفضل أن تطلب ذلك من شخص آخر» فأذهلني قوله ولكنني لم ألح عليه لأعرف ما وراءه لأنني أعرف أن الإلحاح معه لا يجدي. بعد ذلك وصلتني رسالة منه يقول فيها: «عزيزي أليكس هاليي، هذه رسالة عجلى. هل يمكنك أن تكتب رسالة مناسبة تسمح بتغيير العقد بحيث ينص على عودة مداخيل الكتاب في حالة وفاتي إلى زوجتي السيدة بيتي إكس ليتل مباشرة؟. لن يهدأ لي بال حتى أرى ذلك يتم بأسرع ما يمكن». وكتب تحت التوقيع ملاحظة ورد فيها: «هل يمكن للإنسان أن يكتب سيرته الذاتية في عالم يتغير بهذه السرعة؟»».

وبعد ذلك قرأت ما كتبته الصحافة عن إشاعات حول تهديده بالموت ثم ظهرت مقالة في ألمستردام نيوز بعنوان «ملكوم إكس يتكلم عن تهديده بالموت» وأورد في ذلك قوله: «لقد كلف مساعدون سابقون لي في مسجد نيويورك أشخاصاً بقتلي بكل برودة دم، ولكن هؤلاء الأشخاص جاؤوني، بحمد الله، وكشفوا لي الأمر لأن ما رأوه من تفانٍ في خدمة السيد محمد جعلهم لا يصدقون ما قيل لهم من أكاذيب عني فأرادوا، حرصاً منهم على الوضوح، أن يعرفوا أقوالي».

وطلبت ملكوم إكس لأعبر له عن مؤازرتي فجاء صوته منهكاً إذ قال: «إن أكثر ما يعنيني الآن هو أن أؤمن ذهاب أي مدخول يعود لي من الكتاب إلى منظمتي الجديدة أو إلى زوجتي كما أوضحت ذلك في رسالتي. أعرف الآن أن علي أن أكتب وصيتي وإذا كنت لم أفكر في ذلك من قبل فلأنه لم يكن لي ما أوصي به، ومع ذلك أعتقد أن الأمور ستصبح فوضى إذا ما حدث لي مكروه». وأعربت له عن خوفي عليه فقال إن له في البيت بندقية مشحونة وأضاف: «إنني أستطيع أن أحمي نفسي». عندما تكلم على منظمته الجديدة قصد «المسجد الإسلامي المتحد» الذي كان ولا شك يضم وقتها أربعين أو خمسين مسلماً ممن انشقوا عن إلايجا محمد.

واستطعت أن أقابل كاسيوس كلاي في نيويورك لحساب بلاي بوي بواسطة أحد المقربين منه دلني عليه ملكوم إكس. وعندما حللت بنيويورك طلبت ملكوم إكس فقالت لي زوجته باقتضاب إنه غائب لبعض الوقت فكلمت سيدة سوداء كنت أعرفها قبل أن تسلم وأعرف تقديرها لملكوم إكس، فوجدت أنها اختارت أن تبقى في المنظمة الأصلية وقالت إن الشعور السائد في مسجد نيويورك السابع شبيه بجو ما بعد الطلاق حيث الرغبة في رؤية الطرف الآخر ما تزال باقية.

وأفضى بي استجوابي لكاسيوس كلاي في جناحه بفندق تيريزا إلى سؤاله عن إسلامه، ومن ثم عن مصير صداقته الوطيدة لملكوم إكس فقال بكل تؤدة: «لا يمكن للمرء أن يمسح أخطاءه في السيد محمد ويبقى من دون عقاب، ولا أريد أن أقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع». وقال لي أحد مساعديه إنه كلما ذكر اسم ملكوم إكس أمام إلايجا في شيكاغو تسبب له تأثر كبير وسمعت أنه قال في شأنه: «أنا الذي جعلت منه رجلاً هاماً وكنت على وشك أن أجعله رجلاً عظيماً». وكان المسلمون الذين بقوا على ولائهم لإلايجا محمد يسمون من تبعوا ملكوم إكس من مسجد نيويورك بالضالين ويتكهنون بأن يخونهم. وسمعت أن إلايجا محمد قال عنه: «إن المنافق سينزل به عقاب الله. إن ملكوم إكس يهدم نفسه بنفسه» وأنه لا يريد له الموت ولكنه يريده أن يعيش ويتعذب نتيجة خيانته. وكان غير المسلمين من سكان هارليم الذين كلمتهم يعتقدون أن انشقاقه أمر بديهي نظراً لما له من سلطة ونفوذ وأن حكم إلايجا المطلق سينتهي في نيويورك على الأقل.

وعاد ملكوم إكس فقال إنه كان في بوسطن وفلادلفيا وبدأ يقضي معي وقتاً طويلاً

خلال النهار في الغرفة ١٩٣٦ بفندق أمريكانا. وكان قد فقد هدوءه وبدأ يهب إلى الباب في انتظام فيفتحه ويطل على الممر ذات اليمين وذات اليسار ثم يغلق الباب. وكان قد فسر لي ذلك قائلاً: «إذا كنت ما أزال على قيد الحياة عندما يظهر هذا الكتاب سيكون ذلك معجزة. لا أقولها حسرة ولكنني أقولها كما أقول إن هذا غطاء سرير» وأمسك بغطاء السرير الذهبي اللون. وكلمني لأول مرة عما حدث بتفصيل فقال: «إنهم، إطلاقاً، لم يبعدوني بسبب تعليقي على مقتل كينيدي. إنهم لم يكونوا يقولون شيئاً عندما كنت أصرح بما هو أدهى وإنما فعلوا ذلك بسبب الغيرة وكذا لأني اعترضت على مجون الرجل الذي يزعم أنه مثال للإستقامة» وقال إنه رفع عدد المسلمين في أمة الإسلام من ٤٠٠ إلى ٤٠٠٠ وزاد مؤكداً: «لا أعتقد أن عدد الأعضاء عندما التحقت بالمنظمة كان يتعدى ٤٠٠ وكانوا في الغالب متقدمين في السن، لا يعرفون حتى كيف ينطق اسم السيد محمد الذي كان يبقى في المؤخرة معظم الوقت» وأفلت منه الزمام فاستولى عليه الغضب. وذات يوم خط ما يلي: «ليس هناك ما هو أدعى للخوف من اجتماع القدرة والجهل. غوته».

واستدرجني إلى الكلام عن كاسيوس كلاي يوماً وعندما وجدني لا أجيبه إلا برواية الجانب الطريف من الإستجواب سألني عما قاله عنه فبحثت عن البطاقة المرقومة التي كنت قد طبعت عليها السؤال مقدماً والتي كتبت عليها الجواب بيدي ومددتها له فنظر إليها ثم نظر عبر النافذة ثم وقف وبدأ يذرع الغرفة وعندما يتكلم كان صوته مشبعاً بالألم. وقال: «كنت أحس كأنه أخي الشقيق» وتوقف ثم أكمل: «على أني لن أكون ضده الآن. إنه شاب ممتاز وذكي ولكنه سمح لهم أن يستعملوه ويضللوه».

ومرة أخرى رأيته في تلك الغربة على حافة البكاء وسمعته يستعمل لأول مرة لفظ الزنوج بمعناه التحقيري. كان يتكلم على كل ما عاناه أول ما جاء إلى نيويورك في سبيل إقامة صرح أمة الإسلام فيها ثم قال بصوت أجش: «كانت تلك المنظمة أفضل ما امتلكه السود في حياتهم وها هم الزنوج يدكُّونها».

وأطلعني بعد أيام على جملة كتبها في إحدى مذكراته قال فيها «يجب أن نتعلم من الأطفال عدم الخجل من الفشل وأن نقوم ونعيد الكرة. إن معظم الكبار يرزحون تحت الخوف والحذر ويركنون إلى الأمان ولذلك تجدهم مجفلين ومتصلبين وخائفين ولذلك يفشل أكثرهم».

وكان على الدوام وهو عندي قرب المهتف تارة يرد وتارة يطلب، وكان يحاول وهو يتكلم عبره تغليف كلامه فبدأت أعمد إلى دخول الحمام وإغلاق بابه علي حتى يتوقف همسه. فيما بعد بدأ يقول لي إنهم بعض أتباع إلايجا محمد. وذات يوم قال على إثر إحدى تلك المكالمات: «إنني رجل ميت. لقد نصحني أشخاص مسؤولون بأن أكون حذراً في كل حركة أقوم بها» وفكر هنيهة ثم قال: «لست خائفاً على نفسي طالما لم تمس أسرتي». وأظن أنه سمع بنية أمة الإسلام إقامة دعوى ضده لإخراجه من البيت الذي كان يسكن فيه.

كنت قد بدأت أخشى أن تدفع به مرارته الطارئة إلى العودة إلى كل ما رواه لي من فصول هذا الكتاب لتحويرها بشكل من الأشكال. ويوم غادرت نيويورك عائداً إلى الشمال حدثته بمخاوفي تلك فقال: «لقد فكرت في ذلك. هناك أمور غضضت الطرف عنها، كنت حتى في ذلك الوقت أراها وأسمعها ولكنني سأبقي كل شيء كما هو».

وفي ٢٦ مارس كتب لي رسالة يقول فيها: «يحتمل أن أقوم بسفر قصير أزور فيه بلاداً مهمة في إفريقيا وأزور مكة والمدينة وذلك ابتداء من حوالي ١٣ أبريل. لا تخبر أحداً بذلك».

وبعث خلال سفره ذاك رسائل وبطاقات بريدية إلى معظم من يعرفهم معرفة جيدة وقعها بالحاج مالك الشباز. وفي أواسط مايو طلبتني الأخت بيتي هاتفياً وقالت لي وهي مستبشرة إن ملكوم إكس في طريق العودة فركبت الطائرة ورجعت إلى نيويورك وفي ٢١ مايو رن جرس المهتف في حجرتي بالفندق ورفعت السماعة فوجدت الأخت بيتي تقول: «دقيقة من فضلك» ثم قال الصوت العميق: «كيف حالك؟» فقلت: «الحاج مالك الشباز! كيف حالك أنت؟» فقال: «متعب قليلاً» وأخبرني أنه وصل إلى نيويورك على متن إحدى طائرات خطوط بان أمريكان في الرابعة والنصف وأنه سيعقد ندوة صحافية في الساعة السابعة بفندق تيريزا وقال: «انتظرني في تمام السادسة والنصف عند ملتقى النهج ١٣٥ وشارع لينوكس في اتجاه المركز. حسناً؟».

وعندما توقفت السيارة الأولدزموبيل العتيقة ودخلتها وجدت الحاج ملكوم يتبسم ابتسامة عريضة ويرتدي بدلة قطنية وشعره الأحمر في حاجة إلى مقص الحلاق ووجدته قد أطلق لحيته. وكانت معه الأخت بيتي التي لم أكن قد رأيتها من قبل والتي ظللت أكلمها هاتفياً مرات في الأسبوع مدة ما يزيد على السنة. وتبادلنا الإبتسام. كانت تلبس فستاناً فضفاضاً من النوع الذي تلبسه الحوامل إذ كانت تنتظر طفلها الرابع.

ووجدنا في مقر الندوة حوالى خمسين مصوراً وصحافياً يحملون آلات التصوير والكاميرات ويتراكضون بحثاً عن المواقع الأنسب في المقدمة والقاعة غاصة بالحاضرين من أنصار ملكوم إكس من الزنوج وأصدقائه والفضوليين. ودخل يتأبط ذراع الأخت بيتي بحنان وهي تبتسم في اعتزاز فانطلقت الأضواء.

ولمحت ممثل التايمز هاندلر فقدمت له نفسي فسلم علي بحرارة واحتللت وإياه مائدة صغيرة بمقعدين وقد وقف الصحافيون في نصف دائرة أمام المنصة، ثم انطلقت الأسئلة وبدأ ملكوم إكس يجيب ببراعة بدا معها وكأن خبرته الخطابية التي اكتسبها خلال الإثنتي عشرة سنة الماضية ما كانت إلا لتعده لدوره الجديد.

«هل نفهم أنك لم تعد تعتقد أن البيض أشرار كلهم؟» فقال: «هذا صحيح أيها السيد. لقد فتحت زيارتي لمكة عيني وجعلتني أقلع عن الإعتقاد في العنصرية وصَحَّحَتْ تفكيري فأصبحتُ أؤمن بأن الرجل الأبيض إنسان» ثم توقف توقفاً له دلالته وأكمل قائلاً: «بشرط أن ينعكس في سلوكه ما يثبت أنه إنسان» وركزوا على صورته العنصرية فقال: «لست عنصرياً. أنا لا أدين البيض لأنهم بيض ولكن لأفعالهم. أنا أدين ما فعله البيض ككل لبني قومنا ككل».

كانت الإبتسامة المتوددة الصافية لا تفارق شفتيه وكان يدق بيده على لحيته الحمراء فسألوه عنها، سألوه إن كان ينوي الإحتفاظ بها فقال إنه لم يقرر بعد وأنه سينتظر ليرى إن كان سيتعود عليها. وسألوه عما إذا كان يعتزم الإنضمام إلى أبرز زعماء حركة الحقوق المدنية الذين كان ينتقدهم بشدة فأجابهم بطريقة غير مباشرة قائلاً: «سأشرح لك ذلك كما يلي أيها السيد. إذا كانت هناك جماعة من الناس مسافرة إلى مكان على متن سيارة وكانت تسير في طريق خطأ وتعتقد أنها تسير في الطريق الصحيح، وكنت أنت الوحيد الذي يعرف أنها تسير في الطريق الخطأ فإن عليك أن تبقى معها حتى تكتشف خطأها وعندئذ دلها على الطريق الصحيح وستتبعك». كان في أحسن حال وهو يزن الأسئلة ويرد عليها رداً مباشراً أو يراوغ.

وكان ممثل التايمز يسجل بجانبي ويهمهم «لا أصدق! لا أصدق!» وكنت أيضاً لا أصدق وكنت قد قلت لنفسي لبعض الوقت: لو أن حصاة ألقيت من النافذة الموجودة وراء ملكوم إكس مباشرة من هذه القاعة الواقعة في الطابق الثامن لسقطت على الناصية التي كان منذ سنوات يبيع فيها المخدرات.

ورجعت إلى الشمال لإتمام الكتاب فبدأت تصلني منه بانتظام رسائل قال في إحداها: «أرجو أن يكون الكتاب يتقدم بسرعة، ذلك أن الأحداث تطرأ على حياتي بسرعة البرق بحيث أن الكثير مما كتب قد يصبح متجاوزاً من شهر لآخر. لا شيء يدوم في الحياة ولا حتى الحياة (ابتسم) وعليه، أنصحك بالإسراع ما أمكن».

وجاءتني رسالة أخرى بالبريد الخاص تدل على أنه مغتاظ مني قال فيها: «إن الناشر قد بعث لي رسالة يقول فيها إنه دفع له حوالة بمبلغ ٢٥٠٠ دولار بعد التوقيع على العقد وقال: «وهكذا سينتظر مني أن أدفع عنها ضريبة المداخيل الخاصة. ألم أقل لك مراراً وتكراراً إني أريد أن يعود ريع كل هذه الصفقة إلى المسجد مباشرة؟ على أني إلى يومنا هذا لم أر تلك الحوالة».

وحللت المشكلة ثم بعثت له بمسودة بعض الفصول ليقرأها فلم يلبث لدهشتي، أن أعادها لي وعليها كتابات بالحبر الأحمر في الأماكن التي وصف فيها ما كان يغدقه عليه إلايجا محمد من عطف أبوي. وكلمته هاتفياً فذكرته بقراره السابق وقلت له إن ذلك من شأنه أن يعد القارىء لما سيحدث وأننا بإلغائنا له نجرد الكتاب من التصاعد والتشويق الدرامي فقال بفظاظة: «كتاب من هو؟» فقلت: «كتابك طبعاً» وشرحت له أن ما قلته لا يعدو أن يكون ملاحظة أقولها له بوصفي كاتباً فقال إنه سيفكر في الموضوع. واستولى علي الغم خوفاً من أن يقرر إعادة كل شيء وتحويل الكتاب إلى نقد لإلايجا محمد ولكنه طلبني في آخر تلك الليلة وقال: «أنا آسف. أنت على حق. لقد كنت غاضباً. احتفظ بكل شيء كما كان». ومن يومها لم أسلمه أي فصل ليقرأه إلا وأنا معه. وكنت أنظر إليه من طرف خفي وهو يقرأ فأراه يقطب وجهه ويرتد إلى الوراء ولكنه لم يطلب مني أبداً أن أغير شيئاً مما سبق له أن قاله. المرة الوحيدة التي قال فيها عن شيء إنه كان يود لو أنه حدث بشكل مخالف كانت عندما وصل إلى فصل «لورا» فقال: «كانت فتاة ذكية وجيدة. حاولت أن تصنع مني شيئاً فدفعت بها إلى البغاء والمخدرات».

وأصبح لا يجد الوقت لزيارتي وعندما كان يفعل كانت الغرفة تتحول إلى ما يشبه محطة الشرطة المركزية. كانت المكالمات تأتيه تباعاً وعندما كان يجد فجوة كان يخرج مذكرته المليئة بالأرقام الهاتفية ويطلب شخصاً ما. وكان قد أصبح كثير الإتصال بشخصيات شرق أوسطية وإفريقية كانت تزور نيويورك وكانت تأتي لزيارته في غرفتي فكنت أجلس بجانب النافذة وأستغرق في القراءة حتى ينتهي من كلامه معها خارج

الباب بصوت منخفض. وكان يكثر من الإعتذار عندما يحدث ذلك فكنت أقول له إنه لا يضايقني، ثم بدأت أخرج إلى الممر أو أدخل المصعد وأنزل إلى بهو الفندق وأبقى أرصد المصاعد حتى أرى الضيف خارجاً. أذكر يوماً جاءته فيه مكالمات من القنوات التلفزيونية الرئيسية على التوالي: سي بي إس، وآي بي سي، وإن بي سي ومن كل جريدة في نيويورك ومن الدايلي إكسبريس اللندنية ومن العديد من الأشخاص حتى اضطررنا إلى إيقاف عملنا، ثم جاء بيل بيوتل بفرقة تلفزيونية اكتظت بها الغرفة. وبينما كانت تثبت أضواءها على الركائز جاءت مكالمة أخرى من محطة دايتون، أوهايو التلفزيونية تطلب استجوابه هاتفياً فطلب مني أن أقول للمتكلم أن يطلبه في اليوم التالي في بيت أخته إيلا ببوسطن ثم جاءت مكالمة أخرى من وزارة الإعلام الغانية فكتبت له المعلومة على ورقة مددتها له والمعلق بيوتل يقول: «لن آخذ من وقتك الكثير. سوف لن أطرح عليك إلا بعض الأسئلة الغبية» فأجابه ملكوم وهو يقرأ الورقة قائلاً: «السؤال الغبي هو الذي لا يطرح» ثم قال لي: «قل لهم من فضلك إني سأطلبهم». وبدأت الكاميرات تدور وبدأ ملكوم إكس وبيوتل يتكلمان فرن جرس المهتف من جديد ورفعت السماعة فإذا هو مارك كرافورد الصحافي بمجلة لايف فأخبرته بما يجري هامساً ولكن ذلك لم يثبط عزيمته فقال: «هل لك أن تضع السماعة قريباً منهما بحيث أسمع الإستجواب؟» فرضخت لأمره متنفساً الصعداء بعدما أمكن بذلك للإستجواب أن يتم أخيراً من دون إزعاج. كان ملكوم إكس قد انتهى من مراجعة نسخة الخطوط التي كان قد قرأها بتمعن وهو يهز رأسه من حين لآخر ويعلق على ما يقرأه. قال مرة: «أتعرف لماذا كان لي أثر ما؟ لأنني أدرس نقط ضعف هذه البلاد ولأنني كلما سمعت الرجل الأبيض يعوي عرفت أنني قد وضعت يدي على الوتر الحساس».

ومرة وضع المخطوط الذي كان يقرأه على الفراش وقام من مقعده وبدأ يذرع الغرفة ويدق بيده على ذقنه ثم التفت إلي وقال: «أتعرف؟ في ذلك المكان الذي قلت لك فيه إنني وضعت فوهة المسدس في صدغي وبقيت أضغط على الزند حتى أرعبتهم، عندما كنت بصدد إنشاء عصابة السطو على العقارات؟» وتوقف ثم قال: «لا أعرف إن كان علي أن أقول لك هذا ولكنني أريد أن أقول الحقيقة. كنت قد أبقيت الرصاصة في كفي» وضحكنا وقلت له: «طيب! هات تلك الصفحة إذن» وتفكر قليلاً ثم قال: «أتركها كما هي فقد يعتقد الناس أن هذا هو ما أفعله اليوم، أني أموه».

ومرة أخرى وهو يقرأ عن الفترة التي اكتشف فيها مكتبة السجن ارتد رأسه إلى

الخلف بغتة وقال: «رب! لن أنسى خنزير الأرض ذاك أبداً!». وفي اليوم التالي أذهلني عندما جاء وقال إنه زار متحف التاريخ الطبيعي واطلع على معلومات عن خنزير الأرض وقال إن الكلمة التي تدل عليه الإنجليزية مثال جيد على جذور الكلمات التي حدثني عنها وقال: «عندما تدرس فقه اللغة تعرف القوانين التي تتحكم في فقدان الكلمات لحروفها الساكنة واحتفاظها مع ذلك بهويتها وإن كان الأمر يختلف من لغة لأخرى». وكان ما أذهلني أن برنامج يومه ذاك كان مكتظاً إذ كان عليه أن يظهر في الإذاعة والتلفزيون ويلقي خطاباً وأنه وجد مع ذلك الوقت للذهاب إلى المتحف والبحث عن معلومات عن خنزير الأرض.

وعلى إثر ذلك عقد ندوة صحافية قال فيها: «إن منظمة الوحدة الآفرو أمريكية التي أنشأتها منظمة غير دينية وغير طائفية، هدفها توحيد الآفرو أمريكيين في إطار برنامج بناء يرمي إلى حصولهم على حقوقهم الإنسانية». وقد اتضح فيما بعد أنها ذات صبغة وطنية سوداء واتضح في استجواباته فيما بعد أنها سوف تسعى إلى تحويل السكان السود من اللاعنف إلى الدفاع عن أنفسهم ضد السيادة البيضاء في كل أمريكا. وفيما يتعلق بالجانب السياسي كان كلامه في تلك الندوة مبهماً إذ قال: «سواء كان ما يستعمله الإنسان رصاصاً أو بطاقات اقتراع فإن عليه أن يحسن الرماية وألا يستهدف الدمية ولكن من يحركها». وسألوه إن كان هناك مجال محدد ينوي القيام بعمله في إطاره فقال: «سأنضم إلى أية جهة يوجد فيها صراع أسود إذا طلب مني ذلك». وعن إمكانية تحالفه مع المنظمات الزنجية الأخرى قال إنه سيفكر في تشكيل جبهة متحدة مع بعض الزعماء الزنوج الذين يختارهم، واعترف تحت إلحاح الأسئلة «بأن المنظمة الوطنية لتقدم الملونين تحقق بعض النتائج الجيدة». ورداً على سؤال حول إمكانية انضمام البيض إلى منظمته قال: «لو كان جون براون حياً لسمحت له بذلك». وأجاب على من انتقدوا قوله إنه سيرسل بالفدائيين إلا ولاية مسيسيبي قائلاً: «أنا جاد في ذلك. والمسيسيبي عندي هو أي مكان يقع جنوب كندا». وقالت له مرة إيفلين كانينغهام الصحافية بالبتسبورغ كوريار ممازحة: «هل لك أن تخص عمودي بقولة مدهشة؟» فقال: «على من يريد أن يتبعني ويتبع حركتي أن يكون مستعداً لدخول السجون والمستشفيات والإنتقال إلى المقابر قبل أن يستطيع أن يقول إنه حر حقاً». ونشرت إيفلين كانينغهام ذلك وعلقت عليه بقولها: «ابتسم ثم ضحك ضحكة مكتومة ولكنه كان جاداً في كلامه».

وازداد أفراد أسرته بمولوده الجديد فكان بنتاً رابعة سمتها الأخت بيتي جميلة لومومبا فأهدته نادلة تسمى هيلين لانيير كانت تعمل في نادي توينتي تو الذي كان أصبح ملتقاه مع الناس، أهدته كل ما يحتاجه الوليد من كسوة وأقمطة فأثر فيه ذلك تأثيراً كبيراً وقال: «إني لا أكاد أعرف تلك الفتاة!».

وتضايق بوضوح عندما ظهرت نتيجة إستطلاع أجرته النيويورك تايمز بين زنوج نيويورك لمعرفة من هو الزعيم الزنجي الذي يعتقدون أنه قام بأحسن عمل من أجلهم إذ قال ثلاثة أرباع المشاركين إنه مارتن لوثر كينغ وقال خمسهم إنه رُويْ ويلكينز من المنظمة الوطنية لتقدم الملونين وقال ستة في المائة فقط من المشاركين إنه ملكوم إكس فقال لي: «رب! هل تعرف أن بعض أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ لم يعترف بهم إلا بعدما واراهم التراب؟».

وذات صباح، في أواسط صيف ١٩٦٤ طلبني هاتفياً وقال إنه سيسافر بعد يومين أو ثلاثة لقضاء بضعة أسابيع في الخارج، ثم كتب لي من القاهرة والصيف الطويل الحار الذي تكهن به يصطخب بالأحداث والإضطرابات الزنجية التي شملت ضواحي فلادلفيا وروشستر وبروكلين وهارليم ومدناً أخرى. عند ذلك أقر اجتماع للمثقفين الزنوج حقيقة نقلتها النيويورك تايمز مفادها أن الدكتور مارتن لوثر كينغ يضمن ولاء الطبقة الزنجية المتوسطة، وأن ولاء الطبقة الزنجية الدنيا لا يضمنه إلا ملكوم إكس، وزادت الجريدة قائلة: «إن الزنوج يحترمون هذين الرجلين لأنهم يثقون في نزاهتهما ويعرفون أنهما لن يخوناهم أبداً. إن ملكوم إكس غير قابل للفساد والزنوج يعرفون ذلك ويحترمونه على أساسه. وهم يعرفون كذلك أنه ينتمي إلى طبقتهم الدنيا ويعتبرونه منهم وإليهم. إن ملكوم إكس سيقوم بدور عظيم بعدما انتقل الصراع العنصري إلى مدن الشمال... وإذا كان الدكتور كينغ يظن أنه ضحى بعشر سنوات من الزعامة المتألّقة فسوف يكون عليه أن يغير رأيه لأنه لم يعد يستطيع أن يتحرك الآن إلا في اتجاه واحد وهو الإتجاه نحو ملكوم إكس». وقصصت تلك المقالة وبعثت بها إلى ملكوم إكس في القاهرة.

كانت واشنطن ونيويورك أو بالأحرى الوكالات القوية بها البلدية والخاصة والحكومية إلى جانب الأفراد تهتم بما يقوله ملكوم إكس في الخارج وتخمن ما سوف يقوله ويفعله عندما يعود إلى أمريكا.

في ذلك الوقت جاءتني مكالمة من صديق حميم وأنا في الشمال أبلغني فيها أنه قد طلب منه أن يطلب مني المجيء إلى نيويورك لمقابلة شخصية حكومية من مستوى عالٍ جداً تهتم بملكوم إكس. وركبت الطائرة وذهبت إلى نيويورك فرافقني صديقي إلى مكاتب تلك المؤسسة المعروفة بدعمها المادي لحركة الحقوق المدنية، فاستقبلني رئيسها ثم قدمني إلى بورك مارشال مدير قسم الحقوق المدنية في وزارة العدل الذي سألني عن أحوال ملكوم إكس المالية وبالخصوص عن مصدر الأموال التي ينفقها على أسفاره المتعددة منذ خروجه من أمة الإسلام، فقلت له إن ما أعرفه أن الناشر قد دفع له عدة أقساط مما يؤول له من الكتاب وأنه يحصل على تعويضات عن الخطب التي يلقيها في الجامعات وأن منظمته تلقت مساعدات مالية وأنه قال لي فيما يخص سفره الأخير أنه استعار من أخته إيلا وأن الساترداي إفنينغ بوست اشترت حق نشر النسخة المركزة من الكتاب بمبلغ ضخم ستدفعه قريباً. واستمع إلي بانتباه شديد وهدوء ثم طرح علي أسئلة أخرى متعلقة بجوانب أخرى من حياة ملكوم إكس وشكرني. وفي تلك الليلة كتبت إلى ملكوم إكس أخبره بما جرى ولكنه لم يشر إليه بعدما عاد أبداً.

وأرسلت الساترداي إفنينغ بوست المصور جون لونوا إلى القاهرة للبحث عن ملكوم إكس وتصويره بالألوان وعندما ظهر عددها بتاريخ ١٢ سبتمبر أرسلت له نسخة منه بالبريد الجوي فجاءتني منه بعد أيام رسالة قصيرة ولاذعة تعكس غضبه عن الكيفية التي تناولت بها المجلة حياته الخاصة. وكانت قد استهلت المقال بقولها: «لو لم يكن ملكوم إكس زنجياً لكانت سيرته عبارة عن قصة سارق عقارات ومروج ومستهلك مخدرات ونزيل سجون إلى جانب قصة جنون عائلي وهو ما يكفي لإلجاء الإنسان إلى توهم النبوة والدعوة إلى دين مقلوب يقوم على الكراهية الأخوية». وبعثت له رسالة قلت له فيها إنه لا يمكنه أن يلومني على ما كتبته المجلة في نطاق قناعتها الخاصة فرد علي معتذراً وقال: «إن علينا أن نكون أكثر حذراً في المستقبل».

وعاد من إفريقيا عوداً أكثر يمناً من عوده من الحج، فاكتظت القاعة في البناية الدولية من مطار كينيدي بالعديد من الزنوج من أتباعه ومن الحامدين له بالسلامة. ودخلت البناية فوجدت في الطبقة الثانية بيضاً يصورون الزنوج الذين يفدون وزنوجاً في ثياب بسيطة يغدون ويروحون وزنوجاً آخرين يرفعون أمام الزجاج الفاصل بين القاعة ومفتشية الجمارك لافتة عريضة مكتوب عليها «مرحباً يا ملكوم» ثم بدا ملكوم إكس في أحد الصفوف وسمع الهتاف فرفع رأسه وابتسم في سعادة.

وأراد ملكوم إكس بعد ذلك أن يشحنني على عجل بتفاصيل عن سفره كان يريدها أن تظهر في الكتاب. وقال إنه يريد ألا يعطيني إلا رؤوس أقلام لأنه يعتقد أن ما في مذكرته كفيل بملء كتاب آخر. وبدأنا نجتمع في غرفتي بالفندق مدة طويلة فيقرأ علي ما اختاره من مذكرته فأسجله. وقال لي: «إن ما رميت إليه هو تدويل مشكلتنا، أن أحمل الأفارقة على إدراك رابطة الرحم التي تربطنا بهم، ونجحت في مسعاي ولذلك أحبوني كما أحبني الشرقيون على أساس ما يربطنا بهم من رابطة دينية».

ولم يعد مع الأيام يجد الوقت لزيارتي فبدأ يطلبني ويعتذر. وكان قد أصبح مطوقاً بمشاكل من كل نوع كلمني عن بعضها وسمعت بعضها الآخر من الناس. كان هناك تذمر داخل منظمته لأن غيباته الطويلة كانت قد أثرت على معنويات أتباعه حتى أقربهم إليه، وكان هناك شعور سائد بأن حماسه لا يكفي لإبقاء شعلة حماسهم وقد سمعت أحدهم يقول إن من المحتمل أن يظهر شعور بالخيبة في المنظمة.

كان قد بدأ يقال عنه في هارليم، في البارات والمطاعم والمنعرجات ومداخل البنايات كلام سمج لم يكن ليقال من قبل. وكانت الناس تأخذ عليه بالخصوص أنه يتكلم فقط في الوقت الذي يعمل فيه زعماء حركة الحقوق المدنية. كان يقال: «أنظر إلى مؤتمر المساواة العرقية ومنظمة الحقوق المدنية بالولايات المتحدة من أتباع الدكتور كينغ. لقد خرجوا إلى الشارع وبدأوا يتلقون الضربات على رؤوسهم وهو لا يعرف إلا الكلام». وكان المأخذ الثاني أنه كان هو نفسه قد أصبح في بلبلة لا يصح معها الإستمرار في اتباعه بجدية. كان يقال: «إنه لم يعد يعرف ما يؤمن به فهو لا يكاد يقول شيئاً حتى ينتقل إلى غيره». وكان لذلك تأثير على صورته المتوقدة وعلى قدرته على تحريك إهتمام الجمهور المحلي الذي كانت منظمته الصغيرة والفتية في حاجة إليه.

وكان الحكم قد صدر ضده بإفراغ بيت إلمهورست وإرجاعه إلى صاحبه الشرعي، أمة إسلام الإيجا محمد. وكانت له مشاكل أخرى من بينها المشاكل المالية، فكان عليه تسديد مصاريف متعددة والإنفاق على زوجته وبناته الأربع وأداء أجر موظف واحد على الأقل دائم في المنظمة. وكنت قد سلمته بعد عودته من إفريقيا حوالة بمبلغ كبير من وكيلنا لم يلبث أن قال عنها وهو يضحك ضحكة متوترة: «لقد تبخرت لا أدري في أي جهة».

ودخل في دوامة من الأنشطة فوافى عشرات الجامعات كتابياً وهاتفياً بقبوله إلقاء

محاضرات فيها للتعريف بفلسفته والحصول على تعويضاتها التي تتراوح بين ١٥٠ و٣٠٠ دولار التي تدفع للمحاضر فوق نفقات السفر والإقامة. وعندما كان يعود إلى نيويورك كان يمضي وقته في مكتبه شبه الفارغ الذي استأجره في فندق تيريزا، محاولاً أن يحل بعض مشاكل منظمته المعقدة. قال مرة متملصاً من سؤال أحد الصحافيين: «إنني لا أعرض حجمنا بالأرقام. إن أقوى ما في الشجرة الجذور إذ لو تعرت الجذور لماتت الشجرة. ونحن لدينا أعضاء عديدون ومن كل نوع ولكنهم غير ظاهرين، وقد عمدت على عكس غيري إلى الليونة للوصول إلى كل أنواع الزنوج في البلاد».

كان حتى في أوقات الطعام في مكانه المفضل بنادي توينتي تو أو في أي مكان آخر بهارليم لا يأكل طعامه بسبب من كانوا يتوافدون عليه لطلب موعد معه لمناقشة مواضيع من كل نوع من المشاكل الخاصة حتى آراءه في القضايا الدولية. وكان كأنما لا يعرف كيف يرد مثل تلك الطلبات وكان مساعدوه الذين كانوا يتطوعون للعمل معه ينتظرون طويلاً ليكلموه في أمور تتعلق بالمنظمة أو به. وكان غالباً ما يظهر عليه، حتى وقتذاك، تبرم غريب من أسئلتهم ومقترحاتهم فكانوا يغضبون. ومرة في الأسبوع، في ليالي الأحد عادة كان يخطب في الزنوج الذين يأتي بهم الإعلان المنتشر عن طريق السماع والأوراق المطبوعة بالستانسيل. وكان يحجز لذلك قاعة أوديبون الواقعة في غرب الشارع ١١٦ بين برودواي وشارع سانت نيكولاس قرب مركز لومومبا الطبي التابع للكنيسة المشيخية.

وهناك كان ينطق فجأة بفيض من التهجمات على إلايجا محمد ويتهمه أكثر من ذي قبل بالزيف الديني والفجور. ذلك أنه كان مغتاظاً من ترحيل زوجته وبناته الأربع الصغيرات من ذلك البيت المريح في إلمهورست الذي أقمن فيه مدة طويلة، لا سيما وأن الأخت بيتي كانت حبلى مرة أخرى. وكان قد قال لي عندما صدر الحكم: «المسكن هو كل ما وفرته لبيتي منذ تزوجتها وها هم يريدون أخذه. إني لم أنفك أعرضها للتحولات وأحملها ما لا يحتمل. رب، يجب أن أحب هذه المرأة!».

وكانت التهديدات بقتله تصل بالمهتف إلى مركز الشرطة والجرائد ومكتب منظمته وإلى بيته في إلمهورست. وعندما دخل إلى المحكمة للطعن في الحكم الصادر ضده بالإفراغ كان محاطاً بثمانية أفراد من منظمته وعشرين شرطياً في اللباس الرسمي واثني عشر شرطياً سرياً. وصدر الحكم بإقرار الحكم السابق فذهب إلى بيته في لونغ آيلاند، وعندما

طلبه أحد أعوانه رد عليه صوت مسجل يقول إن ذلك الرقم ألـ ١ ـ ٦٣٢٠ قد قطع فانطلقت سيارة مشحونة بأعوانه إلى لونغ آيلاند حيث وجدوه وأسرته في أمان. واستفسر شركة المهتف فقيل له إن امرأة تدعى «السيدة سمول» اتصلت بالشركة وطلبت قطع الخط لأن أصحابه سيكونون في عطلة. وتلا ذلك اشتباك بين أعوانه وأتباع إلايجا محمد أمام المطعم الإسلامي الواقع في ملتقى الشارع ١١٦ وشارع لينوكس وزاد في الطين بلة مجيء الشرطة وقيامها بتفتيشٍ أَسْفَرَ عن وجود مسدسين في سيارتين تابعتين لمنظمة الآفرو أمريكيين المتحدين وإلقاء القبض على أعضائها الستة الموجودين في المكان عينه.

وحالت تلك الأحداث دون ذهابه إلى بوسطن لإلقاء خطاب كان قد التزم به، فأرسل أحد أعوانه ليلقيه بالنيابة عنه، وعندما كان هذا الأخير راجعاً عاقت سيارته في طريق مطار بوسطن سيارة أخرى في نفق شرق بوسطن ونزل منها رجال مسلحون ولكن رجال ملكوم إكس أخرجوا لهم بندقية فتفرقوا.

وكان ملكوم إكس يتهم المسلمين السود باستمرار بأنهم مصدر هذه الهجومات والتهديدات ويقول: «ليس هناك جماعة في الولايات المتحدة تستطيع تنفيذ هذه التهديدات إلا المسلمون السود. أنا أعرفهم لأنني أنا الذي علمتهم». وسئل عن السبب الذي يدفعه إلى شن هذ الحملات الكلامية ضد إلايجا محمد والمسلمين السود في الوقت الذي كان يبدو فيه أن الأمور قد هدأت فقال: «لم أكن لأكشف عما أكشف عنه لو أنهم تركوني وشأني». وسمح لأحد المصورين بأخذ صورة له في بيته وهو يحمل بندقية أوتوماتيكية ذات مشط مزدوج مشحون بالرصاص قال إنه يبقيها معدة لمجابهة أية محاولة لإغتياله وقال: «لقد علمت زوجتي كيفية استعمالها وأعطيتها الأمر بضرب أي شخص كيفما كان أبيض أو أسود أو أصفر يحاول اقتحام البيت».

وذهبت في دجنبر إلى نيويورك لأتسلم منه الإضافات النهائية التي تشمل التطورات الأخيرة التي كان يريد أن يضمنها المخطوط، فبدا لي أن ثقته المعهودة في نفسه قد هجرته، وطفق يقول إن الصحافة لا تأخذ أقواله حول تهديده بالقتل مأخذ الجد وقال: «إنهم يتصرفون كما لو كنت أخرف!». وأشار مجدداً إلى افتتاحية الساترداي إفنينغ بوست فقال: «لا يمكن للمرء أن يثق في الناشرين مهما قالوا». وأرسل لي وكيلنا إلى الفندق عقدة حول حقوق نشر الكتاب في الخارج لنوقعها أنا وهو فوقعتها ثم مددت له القلم فنظر إليها مرتاباً وقال: «من الأفضل أن أعرف رأي

محامي أولاً» ووضعها في جيب سترته الداخلي. وبعد ساعة ونحن في سيارته في هارليم توقف بغتة أمام بناية جمعية الشباب المسيحي الواقعة في الشارع ١٣٥ وأخرج العقدة ووقعها ورمى لي بها قائلاً: «سأثق فيك أنت» وواصل السياقة.

كانت أعياد رأس السنة قد اقتربت فاشتريت بدافع طارىء دميتين سمراوين لابنتيه الكبريين من ذلك النوع من الدمى التي تمشي عندما يمسك شخص بيدها اليسرى وعندما جاء إلى غرفتي في فندق ويلينغتون قلت له: «عندي هدية لعتيلة وقُبَيْلَة بمناسبة رأس السنة وجئته بالدميتين تمشيان فظهرت على وجهه الدهشة ثم غمرته ابتسامة عريضة وقال: «يا للمفاجأة! إنها لمفاجأة حقاً!» وانحنى على الدميتين يقلبهما ووجهه يعكس تأثره الشديد وقال بعد برهة: «أتعرف؟ إني لست معتزاً بما سأقوله إني لا أعتقد أنني اشتريت لبناتي هدية واحدة. كل ما لديهن من لعب إما اشترته لهن بيتي أو أهداه لهن شخص آخر أما أنا فلم أشتر لهن شيئاً أبداً. إنه شيء غير جيد، أعرف ذلك ولكنني كنت مشغولاً على الدوام».

وفي مستهل شهر يناير ركبت الطائرة من الشمال إلى مطار كينيدي وطلبته من هناك في بيته وقلت له إنني في انتظار الطائرة المتوجهة إلى مدينة كانساس لحضور مراسيم أداء أخي الأصغر جورج القسم إثر انتخابه عضواً في مجلس الشيوخ بكونغريس الولاية فقال: «قل لأخيك ألا ينسانا. قل له إن عليه وعلى أمثاله الزنوج المعتدلين الذين وصلوا أن يتذكروا دائماً أننا نحن المتطرفين من مهد لهم الطريق»، ثم سألني أن أتصل به عندما أعود ليرى إذا كان بإمكانه أن يخصص وقتاً لمقابلتي ففعلت. واستقبلني في مطار كينيدي وقال إن وقته مشحون للغاية وأن عليه أن يغادر بعد الظهر لإلقاء محاضرة طارئة فحجزت في الطائرة المتوجهة إلى الشمال ودخلنا بسيارته في أحد مواقف السيارات وبقينا نتكلم فيها حتى أزف موعد طائرتي. تكلم على الضغوط التي تأتيه من كل جهة وعما يشعر به من إحباط من جراء عدة أشياء من بينها أن أحداً لا يريد أن يرى فيه إلا صورته القديمة المطبوعة بـ«الكراهية» و«العنف» وقال إن ما يسمى بمنظمات الحقوق المدنية المعتدلة تتحاشاه بدعوى أنه مناضل أكثر من اللازم، وأن ما يدعى بالمناضلين يتحاشونه بدعوى أنه معتدل أكثر من اللازم. وقال مرة: «إنهم لا يريدون أن يدعوني أدخل منعرجاً جديداً. إني في كمين».

وتطرقنا إلى موضوع سعيد فتكلمنا على المولود المنتظر وضحكنا من البنات

الأربع على التوالي فقال: «سيكون ولداً هذه المرة» ثم ابتسم وقال: «أو المرة القادمة!». وعندما قلت إن موعد طائرتي قد حان قال إن عليه أن ينصرف أيضاً فقلت له: «سلم على الأخت بيتي» فقال إنه سيفعل وسلم علي فخرجت من السيارة الأولدزموبيل الزرقاء ووقفت أنظر إليه وهو يرجع بها إلى الخلف وصرخت وأنا ألوح قائلاً: «إلى اللقاء» فلوح لي وذهب ولم أكن لأعرف أنها المرة الأخيرة التي أراه فيها.

وظهر في ١٩ يناير في برنامج بيير برتون في التلفزة الكندية فقال رداً على سؤال حول الإندماج والزواج المختلط: «إني أؤمن بالإعتراف بالإنسان كإنسان لا كأبيض وأسود وأسمر وأحمر. وعندما يتعامل الناس داخل الأسرة على أساس إنساني لا يبقى هناك مجال للتساؤل عن الإندماج. والزواج المختلط لأن الأمر يصبح متعلقاً بإنسان يتزوج إنسانة ويعيش حولها ومعها. ومع ذلك فإن مسؤولية الوضع الراهن والدفاع عن الموقف المؤدي إليه لا يقعان على عاتق السود لأن البيض ككل هم الذين عارضوا الإندماج والزواج المختلط وعارضوا كل خطوة من شأنها أن تؤدي إلى الوحدة. وعليه فإنني بوصفي أسود وبالأخص بوصفي أمريكياً أسود لا أعتقد أن علي أن أدافع عن مواقفي السالفة لأنها لا تعدو أن تكون رد فعل على المجتمع، ولذلك فهي من صنعه، وأعتقد أن التهجم يجب أن يوجه إلى المجتمع لا إلى رد الفعل الذي ينمو لدى أشخاص هم ضحايا ذلك المجتمع السلبي».

وهكذا فإن من الإنصاف أنه راجع موقفه من الزواج المختلط إلى درجة أنه أصبح يعتبره مجرد مسألة شخصية.

وفي ٢٨ يناير استقل طائرة تابعة لشركة تي دابل يو آي رقم ٩ من نيويورك إلى لوس آنجلس التي وصلها في حوالي الثالثة بعد الزوال، حيث رأت فرقة مخابرات صديقين مقربين له وهما إدوارد برادلي وآلن جمال يستقبلانه ويأخذانه في سيارة إلى فندق هيلتون ستاتلر حيث أعطيته الغرفة رقم ١١٢٩ على حد قول برادلي الذي قال أيضاً: «عندما دخلنا الردهة دخل في أثرنا ستة رجال عرفت أنهم من المسلمين السود. وصعد ملكوم إكس إلى غرفته وعندما نزل اصطدم بهم في الردهة فبهتوا وتجمد وجهه هو ولكنه لم يرتبك في مشيته وعرفنا أننا في خطر».

وذهب ملكوم إكس وصديقاه إلى مكان التحقت فيه بهم سكرتيرتا إلايجا محمد السابقتان اللتان قدمتا دعويين ضده تتهمانه فيهما بأبوته لأطفالهما من الزنى، وذهبوا

جميعهم إلى مكتب المحامية غلاديس روت التي ذكرت أن ملكوم إكس اتهم إلايجا محمد بسوء السلوك مع العديد من سكرتيراته. ويقول برادلي: «عندما أرجعناه إلى الفندق بعد العشاء وجدنا المسلمين السود يملأون المكان، بعضهم في السيارات وبعضهم يقف قرب الفندق بحيث أنهم كانوا يطوقون الفندق. ودرس ملكوم إكس الوضع ثم قفز من السيارة بعدما نصحني بالحذر والركض إلى الردهة وذهب إلى غرفته وبقي فيها طول مدة وجوده في لوس آنجلس».

وقال برادلي: «كانت السيارة التي أقلته إلى المطار متبوعة وكنت معه وبمجرد ما دخلنا الطريق السيار لمحنا سيارتين مشحونتين بالمسلمين السود تتعقبان سيارتنا، ثم بدأتا تركنان إلى جنب الطريق فأخذ ملكوم إكس عصاي وأخرجها من النافذة الخلفية كما لو كانت مدفعاً رشاشاً فغابت السيارتان. وزدنا في السرعة ثم عبرنا المسلك المنحدر في المطار وانطلقنا إلى مدخل المسافرين فوجدنا البوليس في انتظارنا فدخل ملكوم إكس تحت حراسته وتوجه إلى الطائرة عبر نفق تحت الأرض ورافقته حتى باب الطائرة».

وعندما وصل إلى شيكاغو في الثامنة مساء وجد الشرطة في انتظاره من جديد وذهب إلى فندق بريستول حيث شغلت الشرطة الغرفة المجاورة لغرفته لحراسته خلال الأيام الثلاثة التي قضاها هناك. وتلا ذلك إدلاؤه بشهادته في مكتب المدعي العام لولاية إيلينوي الذي كان يحقق في شأن أمة الإسلام، ثم ظهر في برنامج إيرف كوبشينيت فتكلم على محاولات اغتياله وقال إن في مكتبه رسالة بأسماء الأشخاص الذين وكل إليهم بقتله. وعندما رجع تحت حراسة الشرطة إلى الفندق وجد حوالي خمسة عشر من السود ذوي الوجوه المخيفة يحومون حوله فهمس للرقيب إدوارد ماكليلن: «كل هؤلاء مسلمون سود، اثنان منهم على الأقل من نيويورك. إني أعرفهما. يبدو أن إلايجا على علم بكل حركة أقوم بها». وقال لشرطي بعد ذلك بقليل في غرفته: «إنهم سيتمكنون مني. المسألة مسألة وقت. إني أعرف أكثر مما ينبغي عن المسلمين ولكن تهديداتهم لن تمنعني من عمل ما عقدت العزم عليه». وقضى تلك الليلة في الفندق ثم ذهب تحت حراسة الشرطة إلى المطار حيث استقل طائرة إلى مطار كينيدي في نيويورك.

وبعد ذلك مباشرة جاءه أمر المحكمة بإفراغ بيته في إلمهورست فطلبني هاتفياً في

الشمال. كان صوته متوتراً وقال إنه قد استأنف الحكم وإنه ذاهب غداً إلى ألباما وبعدها إلى إنجلترا وفرنسا لإلقاء محاضرات هناك، وإنه سيذهب بمجرد ما يعود إلى جاكسون، مسيسيبي لإلقاء خطاب في اجتماع حزب الحرية الديمقراطي المسيسيبي يوم ١٩ فبراير ثم قال شيئاً لم أسمعه منه من قبل. قال: «لقد تلفت أعصابي وتعب عقلي» وقال إنه يريد عندما يعود من المسيسيبي أن يقضي معي يومين أو ثلاثة في المدينة التي أقيم بها لقراءة المخطوط مرة أخرى، وزاد قائلاً: «ألم تقل إنها مدينة هادئة؟ يومان من الهدوء والسلام هو كل ما أريده» فقلت له إنه يعرف أنه سيحل على الرحب والسعة ولكن ليس عليه أن يحمل نفسه مشقة قراءة ذلك الكتاب الضخم مرة أخرى لا سيما وأنه لم تطرأ عليه منذ قرأه مؤخراً إلا تعديلات صياغية طفيفة فقال: «إني أريد أن أقرأه مرة أخرى لأنني لا أتوقع أن أقرأه في شكله النهائي» فاتفقنا على أن يزورني في اليوم التالي لعودته من المسيسيبي أي في نهاية الأسبوع الموافقة ليومي السبت والأحد ٢٠ و٢١ فبراير.

وكتبت مجلة جيت عن السفر الذي قام به إلى سيلمى، ألباما بدعوة من عضوين في لجنة التنسيق الطلابية المسالمة، ذلك السفر الذي صادف وجود الدكتور مارتن لوثر كينغ في أحد سجون سيلمى ورمى برفاقه في مؤتمر الزعامة المسيحية الجنوبية في الحيرة. وسارع آندرو يونغ مدير تلك الهيأة والقسيس جايمس بيفيل إلى مقابلته وحثه على عدم إثارة أية أحداث وتحذيره من احتمال إسفار حضوره عن أعمال عنف. وتقول السيدة فاني بيلامي كاتبة الجمعية الوطنية لتقدم الملونين التي رافقته إلى كنيسة زنجية ليخطب في أعضائها أنه «استمع إليهما مبتسماً» وأنه قال لها: «تذكري أن أحداً لا يلزمني بقول ما سأقوله» وأخبرها أنه ينوي أن يشرع بعد حوالي أسبوع في استقطاب السود لمنظمته في الجنوب. كان يجلس في الكنيسة بجانب السيدة مارتن لوثر كينغ فمال عليها كما قالت لمجلة جيت وهمس لها أنه يحاول أن يساعد وأنه يريد أن يتقدم ببديل قد يسهل على البيض قبول عروض مارتن وقالت: «لم أفهمه في البداية وكان يبدو حريصاً على أن يفهم مارتن أنه لا يتسبب له في أية مشاكل أو مصاعب وأنه لا يريد إلا تسهيل الأمر. . . وكرر ذلك فيما بعد ونحن نخرج من الكنيسة. كان يبدو صادقاً. . .».

وقيل إنه عندما خاطب جمهور تلك الكنيسة صرخ قائلاً: «أنا لا أدافع عن العنف ولكن إذا داس رجل على أصابع قدمي فإنني سأدوس على أصابع قدمه (. . .) يجب

أن يعتبر البيض أنفسهم محظوظين لكون مارتن لوثر كينغ هو الذي يجمع السود حوله لأن هناك قوات أخرى تنتظر أن يفشل لتتولاهم».

وعاد إلى نيويورك فسافر إلى فرنسا ليلقي محاضرة في مؤتمر الطلبة الأفارقة الذي كان سيعقد هناك ولكنه أخطر رسمياً بعد وصوله إلى المطار بأنه ممنوع من إلقاء محاضرته في ذلك المؤتمر وبأن عليه أن يعتبر نفسه ممنوعاً منعاً دائماً من دخول فرنسا بوصفه «شخصاً غير مرغوب فيه» وطلب منه أن يغادر التراب الفرنسي فغادره وهو يفور سخطاً وتوجه إلى لندن حيث أخذه صحافيون من هيأة الإذاعة البريطانية لتسجيل استجوابات معه في سميثويك وهي مدينة توجد بها كثرة من الملونين تقع قرب برمنغهام. وأثار ذلك بين العديد من سكانها الآخرين عاصفة من الإحتجاج على هيئة الإذاعة البريطانية التي اتهموها بتهييج المشاعر العنصرية في مدينتهم، في وقت كانت فيه مشحونة بالتوتر. وألقى خلال تلك الزيارة لبريطانيا كلمة في معهد لندن للإقتصاد.

ورجع إلى نيويورك يوم السبت ١٣ فبراير وفي اليوم التالي أيقظه من النوم في حوالي الثالثة إلا ربعاً صباحاً صوت إنفجار مريع. وأخبرتني الأخت بيتي فيما بعد أنه بدأ يعطي التعليمات بهيستيريا وينتشل الأشياء ويصرخ حتى أفزع البنات وأنه أخرج الأسرة في أمان من الباب الخلفي.

كان شخص قد رمى عبر نافذة الواجهة الأمامية للبيت بقنابل كوكتيل مولوتوف. واحتاج رجال الإطفاء إلى ساعة كاملة لإخماد النيران التي التهمت نصف البيت الذي لم يكن ملكوم إكس قد أمنه من الحريق.

وذهبت الأخت بيتي وهي حامل ببناتها الأربع إلى بيت أحد الأصدقاء المقربين. وفي ذلك الصباح ركب ملكوم إكس الطائرة إلى دترويت لإلقاء خطاب بها وهو يرتدي قميصاً صوفياً مفتوح الياقة تحت سترته ولم يلبث أن رجع إلى نيويورك. وفي صباح يوم الإثنين بينما كان غارقاً في البحث عن مسكن ينقل إليه أسرته سمع ما صرح به رجل دين المسجد السابع جايمس إكس للصحافة من أن ملكوم إكس هو الذي أشعل النار في بيته ليحقق مكسباً دعائياً فغضب غضباً شديداً.

وعندما خاطب خمس مائة شخص في قاعة أوديبون في ليلة الإثنين فقد السيطرة على أعصابه لأول مرة فقال صارخاً: «لقد وصلت إلى آخر الحبل! إني لا أهتم بما قد

يحدث لي إن كانوا لن يؤذوا أسرتي» ثم قال بكل وضوح: «لقد رمى المسلمون قنبلة في بيتي» ثم لمح إلى الإنتقام وقال: «إن المطارِد سيصبح مطارَداً!».

وطلبني يوم الثلاثاء ١٦ فبراير هاتفياً فقال لي باختصار إن رمي القنبلة في بيته قد قلب برنامجه رأساً على عقب وأنه لن يتمكن من زيارتي في نهاية الأسبوع كما كان مقرراً. وقال إنه اضطر أيضاً إلى إلغاء سفره إلى جاكسون، مسيسيبي الذي كان يحاول القيام به فيما بعد ثم قال إن عليه أن يسرع إلى أحد مواعيده وأقفل السماعة.

فيما بعد قرأت في جهة ما أنه قال لأحد أعوانه المقربين: «لقد صدر علي الحكم بالموت خلال الأيام الخمسة التالية ومعي أسماء المسلمين السود الخمسة الذين اختيروا لقتلي وسأذكرها في الإجتماع». وقال لأحد أصدقائه إنه يريد أن يطلب من قسم الشرطة رخصة لحمل مسدس وأضاف «ولكنني لا أعرف إن كانوا سيعطونها لي لأنني كنت في السجن». وفي يوم الخميس قال لأحد الصحافيين في استجواب نشر بعد موته: «إن لدي من الشجاعة ما يسمح لي بأن أقول لك إنني لا أعرف ما هي فلسفتي.ولكنني رجل مرن».

كان اللوح الأسود في مكتب منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين يخطر الأعضاء والزوار بأن ملكوم إكس سيلقي خطاباً يوم الخميس ١٨ فبراير في الساعة العاشرة والنصف ويحدد المكان. وكان عليه قبل ذلك أن يقوم بزيارة أحد السماسرة بحثاً عن بيت آخر. وفي يوم الجمعة التقى بموران باركس الصحافي والمصور بمجلة لايف الذي كان يعجب به ويقدره فكتب عنه في المجلة قائلاً: «بدا هادئاً ومتألقاً بلحيته الصغيرة وقبعته المصنوعة من الفرو. وكان يبدو عليه أنه قد تخلى عن الكثير من عدائه ومرارته ولكن الحماس والثقة في النفس كانا ما يزالان هناك». وكلمه مالكوم إكس عن زمن المسجد السابع فقال: «إنه مشهد رديء وزمن مشوب بالمرض والجنون وأنا سعيد لأنني تحررت منه، أنا الآن أعيش زمن الإستشهاد فإذا حدث ومت فإنني سأموت شهيد الأخوة، وهي الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ هذه البلاد. لقد وصلت إلى هذه القناعة بعد تجربة شاقة ولكنني وصلت إليها».

وسأله باركس إن كان ما يقال عن وجود أشخاص يطاردونه ليقتلوه حقاً فقال: «إنه حق كما أنني أقف معك اللحظة في هذا المكان. لقد حاولوا قتلي مرتين في الأسبوعين الفائتين». وسأله عن حماية الشرطة فضحك وقال: «لا أحد يستطيع أن

يحميك من المسلم إلا المسلم أو شخص تدرب على تكتيكات المسلمين. إني أعرف ذلك لأنني أوجدت الكثير منها».

وذكر حادثة الطالبة البيضاء التي جاءته إلى المطعم الإسلامي وسألته عما يمكنها أن تفعله فقال لها: «لا شيء» وذهبت باكية وقال: «لقد ندمت على ذلك. لقد رأيت في جهات متعددة من القارة الإفريقية طلاباً بيضاً يساعدون السود وهي حقيقة تدحض الكثير مما يمكن أن يقال في هذا الموضوع.. ولقد فعلت أشياء كثيرة وأنا في أمة الإسلام أندم عليها الآن. كنت كالحي الميت شأن غيري من باقي الأعضاء. كنت كالمنوم مغناطيسياً الذي يوضع في اتجاه ما ويقال له سر فيسير. وأظن أن للإنسان أن يجعل نفسه أضحوكة إذا كان مستعداً لدفع الثمن ولقد كان الثمن الذي دفعته أنا اثنتي عشرة سنة من عمري».

وفي صباح اليوم التالي أخذ الأخت بيتي إلى مكتب سمسار أراهما بيتاً أعجبهما يقع في حي بلونغ آيلاند أكثر سكانه يهود، ولكن كان عليهما دفع ثلاثة آلاف دولار مسبقاً. وفي طريق عودتهما إلى بيت أصدقائهما قدرا أن تصل تكاليف الرحيل إلى ألف دولار أخرى. وبقي ملكوم إكس وقتاً طويلاً مع الأخت بيتي يكلمها فقال لها إنه يعرف أنها تحت تأثير ضغط طال أمده وأنه يأسف لذلك. وعندما التقط قبعته ليخرج متوجهاً إلى منهاتن وقف في الممر وقال لها: «سنكون معاً. أريد أن تكون أسرتي معي. الأسر يجب ألا تتفرق. سوف لن أقوم بسفر طويل آخر إلا وأنت معي. سنجد من يبقى مع البنات. لن أتركك بعد اليوم مدة طويلة أبداً». وقالت لي فيما بعد: «ولم يكن أمامي إلا أن أبتسم».

وتصورت الأخت بيتي أنه توقف في الصيدلية القريبة لإستعمال المهتف العمومي. وكان بالفعل قد استعمله كما أكدت لها ذلك فيما بعد عندما قلت لها إنه اتصل بي في الثالثة والنصف ذلك اليوم، وعندما كلمني لم أعرف صوته من أول وهلة كما تعودت خلال حوالي سنتين. كان كصوت من أصيب بنزلة برد شديدة. وقال إنه قام في منتصف الليل مع بعض أصدقائه بمساعدة عمال إحدى شركات الترحيل على نقل ما سلم من متاع من الحريق قبل أن ترمي به الشرطة في الشارع تنفيذاً لحكم المحكمة وقال: «لقد كنت أزور مع بيتي بيتاً نريد أن نشتريه» وضحك في فتور ثم قال: «الناس هذه الأيام لا تريد أن تؤجر لأحد ولا سيما لي. إني لا أملك سوى ١٥٠

دولاراً» وقال إنه يحتاج إلى ٣٠٠٠ ليدفعها كتسبيق إضافة إلى ١٠٠٠ دولار لتغطية تكاليف الترحيل وسألني إن كنت أعتقد أن الناشر سيقبل أن يقدم له ٤٠٠٠ دولار من أرباح الكتاب فقلت له إنني سأسأل مكتب وكيلنا عندما يفتح في صباح يوم الإثنين ليقوم بدوره بسؤال الناشر وأنني سأكلمه مساء يوم الإثنين لأخبره بالنتيجة.

وقال إنه سيدفع ثمن البيت ولكنه اتفق مع الأخت بيتي على أن تنص الإتفاقية على كتابة البيت في اسم أخته إيلا تفادياً لأية مشاكل وقال إنه ما يزال مديناً لها بـ ١٥٠٠ دولار كان قد استعارها منها للقيام بإحدى سفراته إلى الخارج وأن حجة ملكية البيت ستكتب فيما بعد في اسم الأخت بيتي وربما في اسم ابنته الكبرى عتيلة.

وانتقل إلى الأخطار التي تهدد حياته فقال: «سأقول لك شيئاً يا أخي. إنني كلما فكرت في ذلك، أعني كل ما حدث مؤخراً زاد شكي في أن يكون من فعل المسلمين. إني أعرف ما يقدرون عليه، وما لا يقدرون عليه وهناك أشياء وقعت مؤخراً لا يقدرون عليها. ما حدث في فرنسا يزيدني اقتناعاً بأن علي أن أكف عن اتهام المسلمين» ثم قال بطريقة بدت لي غريبة ومفاجئة: «إني سعيد بكوني أول من أقام علاقات رسمية بين الآفرو أمريكيين وأشقائهم في إفريقيا» وودعني وأغلق السماعة.

وذهب بعد ذلك إلى منهاتن وقصد فندق هيلتون الواقع بين النهجين ٥٣ و٥٤ في مركز روكفلر وأدخل سيارته الأولدزموبيل الزرقاء إلى مرآبه ثم حجز غرفة في الطبقة الثانية عشرة قاده إليها أحد الخدم.

وعلى إثر ذلك دخل بهو الفندق الكبير والمزدحم زنوجاً بدأوا يسألون الخدم عن رقم غرفته. وحيث إنه كان ممنوعاً على خدم الفنادق إعطاء مثل تلك المعلومة، وباعتبار أن الأمر يتعلق بملكوم إكس الذي كان كل من يقرأ الصحف النيويوركية يعرف أنه مهدد بالقتل، فقد بادر الخدم إلى إخطار رئيس الأمن في الفندق ومن لحظتها والحراسة مشددة على الطبقة الثانية عشرة إلى أن غادر ملكوم إكس الفندق في اليوم التالي. ولم يترك الغرفة خلال تلك المدة إلا مرة واحدة فتناول عشاءه في الطابق الأرضي بقاعة أوديبون ذات الإنارة الخفيفة.

وفي التاسعة صباحاً من يوم الأحد فوجئت الأخت بيتي به يكلمها ويسألها إن كان بإمكانها إلباس الطفلات الأربع ثيابهن وإحضارهن إلى اجتماع الثانية بعد الزوال في قاعة بوربون بهارليم، فقالت إن ذلك في إمكانها طبعاً. كان قد قال لها يوم السبت

أنه لا يريدها أن تحضر ذلك الإجتماع، وعندما عاد وغير رأيه في تلك المكالمة قال لها موضحاً: «أتعرفين ماذا حدث منذ ساعة؟ أيقظني في الثامنة رجل طلبني في الهاتف وقال لي: استيقظ يا أخي ثم أقفل السماعة».

وبعد أربع ساعات غادر غرفته ونزل إلى البهو ودفع حسابه وأخرج سيارته وساقها متوجهاً شمالاً إلى قاعة بوربون وكان ذلك بعد زوال يوم الأحد ٢١ فبراير، يوم صحو ودافىء.

وتقع قاعة أوديبون بين برودواي وشارع سانت نيكولاس جنوب النهج ١٦٦ وهي بناية من طبقتين تؤجر عادة للحفلات الراقصة واحتفالات المنظمات وما شابه ذلك. وقد أخبرتني سيدة شابة جميلة، داكنة اللون ورشيقة القوام تشرف على الإستقبال وتعد من أنشط مساعدي ملكوم إكس، أنها وصلت إلى القاعة باكراً في حوالي الواحدة والنصف لإنجاز بعض الأشغال، فوجدت المقاعد الأربعمائة قد صفت بحيث ترك ممران عن اليمين واليسار ولم يترك أي ممر في الوسط. ولاحظت تلك الفتاة التي لم تشأ أن يذكر اسمها وجود أشخاص في الصفوف الأمامية، ولكنها لم تعر ذلك إهتماماً لأنه كان من عادة البعض أن يحضر باكراً ليجلس قريباً من المنصة ويتمتع بخطابة ملكوم إكس البليغة متعة كاملة. وكان على المنصفة خلف المنبر صف مستو من المقاعد البنية ووراءها ستار خلفي مرسوم عليه منظر ريفي مريح.

وكان على تلك السيدة ذلك اليوم أن تتخذ الترتيبات اللازمة وتؤكد على حضور خطيب آخر هو القسيس ميلتون غالا ميسون وهو مناضل أسود من الكنيسة المشيخية كان قد قاد مرتين في ١٩٦٤ حملة المقاطعة الزنجية داخل المدارس الرسمية احتجاجاً على الميز العنصري. وكانت تلك الفتاة قد اتخذت قبل ذلك ترتيبات مماثلة مع بعض الزنوج البارزين الذين كان منتظراً أن يلتمسوا من الحاضرين دعم ملكوم إكس في منظمته.

ولم تتخذ إجراءات التفتيش ذلك اليوم لأن ملكوم إكس كان قد أصبح لا يطيقها ويقول عنها: «إنها تحرج الناس» وتذكره بإلايجا محمد وكان قد قال مرة: «إذا لم آمن على نفسي بين قومي فأين آمن عليها؟». وكان قد أمر بعدم السماح للصحافة بالدخول سواء كانت بيضاء أو سوداء، لأنه كان غاضباً مما كان قد أسماه مؤخراً بالمعاملة الصحافية المنحرفة، ولأنه كان يعتقد بالخصوص أن الصحافة لم تأخذ أقواله حول

تعرضه للخطر مأخذ الجد ولكن ممثل وكالة اليونايتد بريس ستانلر سكوت وهو زنجي سمح له بالدخول فقال عن ذلك إن أحد مساعدي ملكوم إكس قال له: «يمكنك أن تدخل بصفتك زنجياً أو مواطناً إن شئت ولكن سيكون عليك أن تخلع شارتك الصحافية»؛ وكان الشأن كذلك بالنسبة ليوه سيمبسون الصحافي في جمعية الشباب المسيحي الذي كان مثل سكوت قد حضر باكراً وحصل على مقعد قريب من المنصة.

وقالت لي تلك السيدة الشابة إن ملكوم إكس كان ثقيل المشية على غير عادته عندما جاء قبل الثانية بقليل وتوجه إلى غرفة صغيرة تقع جنب المنصة كانت آهلة بأعوانه، وجلس إلى عرض كرسي وأدخل ساقيه الطويلتين تحته واستند بمرفق واحد إلى منضدة أمام مرآة مخلخلة يستعملها أعضاء الأجواق عندما تكون هناك حفلات راقصة.

كان يلبس بدلة داكنة وقميصاً أبيض وربطة عنق ضيقة وداكنة وقال لبعض أعوانه إنه لن يتكلم على همومه الخاصة وزاد قائلاً: «لا أريد أن يكون ذلك هو ما يأتي الناس لسماعه مني» ثم وقف وبدأ يذرع الغرفة ثم قال إنه سيعلن أنه تسرع عندما اتهم المسلمين السود بإحراق بيته وزاد موضحاً: «لأن هناك أشياء أكبر منهم وقعت. إني أعرف ما يقدرون عليه وما وقع لا يقدرون عليه».

كان تزايد الجمهور يسمع من تلك الغرفة من جلبة الكراسي وقال: «إني في حالة لا تسمح لي إطلاقاً بالخروج إليهم، ولكنني سأخفف هذا التوتر، سأقول للإنسان الأسود ألا يحارب نفسه، سأقول له إن انشغالنا بمصارعة بعضنا البعض جزء من مخطط الرجل الأبيض. إني لا أصارع أحداً وليس هذا ما جئت إلى هنا من أجله». كان لا ينفك ينظر إلى ساعته ترقباً للقسيس غالا ميسون وقال لمساعدته الشابة: «عندما تتفقين مع القسيسين أكدي عليهم قبل الموعد بثلاث أو أربع ساعات لأن من عادتهم أن يغيروا رأيهم». وقالت وهي تحكي لي ذلك: «فشعرت بالحرج. شعرت كأنني أخطأت». وكان موعد الخطبة قد وصل فالتفت إلى مساعد ملكوم إكس بنيامين إكس المعروف أيضاً بقدرته الخطابية وسألته: «هل يمكنك أن تخطب أيها الأخ؟» ثم سألت ملكوم: «هل يستطيع أن يخطب؟» فثار في وجهها وقال لها غاضباً: «إنك لا تعرفين أنه لا يحق لك توجيه مثل هذا السؤال إليّ وهو حاضر!» ثم سيطر على نفسه بسرعة وقال: «طيب». وسأل الأخ بنيامين عن المدة التي يجب أن تستغرقها خطبته فنظر

ملكوم إكس إلى ساعته من جديد وقال: «اجعلها نصف ساعة» فتوجه الأخ بنيامين إلى الباب المفضي إلى المنصة وسمعاه يعدد بخبرة ما هو مطلوب من السود هنا في هذه الولايات المتحدة».

وتقول السيدة الشابة: «ووصلت الثالثة ولم يحضر القسيس غالاميسون وباقي الشخصيات فبدا على ملكوم إكس الشعور بالخيبة وقال لي إنه يظن أن أحداً منهم لن يحضر فأسفت له إذ كان يبدو فعلاً أن أحداً لا يبالي ولكنني قلت له: «لا تقلق. لعل شيئاً أخرهم. سيأتون». (ذكر مصدر آخر أن غالاميسون تعذر عليه الحضور فعلاً وأنه أبلغ أعوان ملكوم إكس بذلك في الهاتف وأنهم أخبروا ملكوم إكس قبل أن يدخل إلى المنصة).

وانتهت نصف الساعة المقررة للأخ بنيامين فسمعه ملكوم إكس ومساعدته الشابة في الغرفة الجانبية وهو يقدم ملكوم إكس قائلاً: «والآن أقدم لكم بدون تطويل الرجل المستعد لأن يرمي بنفسه في خط النار والموت من أجلكم. أقدم لكم فارس السود المغوار فاستمعوا إليه وأنصتوا» فاهتزت القاعة بالتصفيق وتوجه ملكوم إكس إلى الباب المفضي إلى المنصة ولكنه توقف عنده والتفت إلى مساعدته وقال لها: «يجب أن تعذريني على رفع صوتي عليك. إني لم أعد أدري ما أفعله» فقالت له بسرعة: «لا عليك. إني أفهم» فقال بصوت كأنه آت من بعيد: «لا أعتقد أن أحداً يفهم» وذهب إلى المنصة وسط التصفيق وهو يبتسم فصادف بنيامين راجعاً وهز له رأسه.

كانت السيدة الشابة قد تناولت بعض الأوراق لإنجاز عمل ما عندما دخل عليها بنيامين إكس وهو يتصبب عرقاً فربتت على يده وقالت له: «لقد كنت جيداً!» وسمعا من خلال الباب المردود التصفيق يتناقص ثم سمعا صوت ملكوم وهو ينطق بالتحية الأليفة: «السلام عليكم أيها الأخوة والأخوات» وبعض الحاضرين يرد: «وعليكم السلام!» ثم نشب شجار في الصف التاسع. بدأ رجل يضرب رجلاً آخر ويقول غاضباً: «أخرج يدك من جيبي!» فتوجهت إليهما الأنظار وقال ملكوم بحزم: «اهدأ! اهدأ! لا تنفعل! دعونا نحل هذه المشكلة بهدوء أيهاالإخوة».

كان منصرفاً إلى الشجار فلم ير ولا شك الرجال الذين ضربوه بالرصاص. وتقول امرأة كانت تجلس في الصفوف الأمامية: «كان الهرج في الخلف قد لفت نظري ولكن لوهلة قصيرة فقط إذ استدرت لأنظر إلى ملكوم إكس في اللحظة التي كان ثلاثة

رجال يقفون فيها في الصف الأول ويسددون أسلحتهم النارية إليه ويشرعون في ضربه بالرصاص في وقت واحد فبدوا لي وكأنهم فرقة إعدام».

وقال عديد من الناس إنهم رأوا رجلين يركضان نحو المنصة وفي يد أحدهما بندقية وفي يد الآخر مسدسان. وقال ستانلي سكوت الصحافي في اليونايتد بريس: «ذهبت الطلقات وجرى الرجال والنساء والأطفال وانبطحوا على البلاط أو دخلوا تحت الموائد». وقال بيتر سيمبسون الصحافي بإذاعة الشاب المسيحي: «وسمعت صوتاً مكتوماً ورأيت ملكوم إكس وقد أصيب ويده ما تزال مرفوعة ثم سقط إلى الخلف على الكراسي المصفوفة وراءه. كان الكل يصرخ ورأيت خلفي وأنا أسقط بدوري على الأرض رجلاً يطلق النار من مسدس تحت معطفه وكان يفعل ذلك وكأنه في فيلم من أفلام رعاة البقر بحيث كان يركض القهقرى صوب الباب ويطلق النار».

وقالت لي السيدة الشابة: «كان يخيل إليك من كثرة الطلقات أن جيشاً قد هجم على القاعة ولكنني أذكرت ما وقع فلم أشأ أن أخرج حتى لا يبقى في ذهني إلا صورته التي عرفته عليها».

وضع ملكوم إكس يده على صدره عندما أصابته أولى الرصاصات الست عشرة ثم ارتفعت يده اليسرى. كانت أصبعها الوسطى مهشمة بالرصاص وكان الدم يتدفق من لحيته الصغيرة. وقبض على صدره وانكب جسده المتصلب الطويل إلى الوراء بغتة على كرسيين وارتطم رأسه على البلاط.

وفي تلك الدوامة من الصراخ والعويل والركض جرى البعض إلى المنصة ومن بينهم الأخت بيتي التي كانت تحضن بناتها المفزوعات، هرولت إلي وهي تقول: «زوجي! إنهم يقتلون زوجي!».

وصوره مجهول وهو منكب ومن حوله أشخاص ينحنون عليه ويمزقون قميصه المشبع بالدم ويفكون ربطة عنقه وإمرأة ثم رجل يحاولان إسعافه بالتنفس الصناعي. وقد قالت تلك المرأة التي ذكرت أنها ممرضة: «لا أعرف كيف صعدت إلى المنصة وارتميت على رجل حسبته ملكوم إكس. كنت مستعدة لبذل نفسي ليبقى. كنت مستعدة لتلقي الرصاصات بدلاً منه ثم رأيته وتوقفت الطلقات فحاولت أن أسعفه بالتنفس الصناعي». وجاءت الأخت بيتي فشقت طريقها وهي أيضاً ممرضة وتعرف إليها الناس فتراجعوا وخرت على ركبتيها وهي تنظر إلى آثار الرصاص في صدره العاري وتقول منتحبة: «قتلوه!».

وقال الشرطي طوماس هوي الذي كان مكلفاً بالوقوف خارج قاعة أوديبون: «سمعت الطلقات وانفجر المكان» فأسرع إلى الداخل ووجد ملكوم إكس ممدداً على بلاط المنصة ورجلاً يطارده أشخاص فأمسك به.

وقال لويس ميشو صاحب المكتبة الوطنية الأثرية الواقعة بين النهج ١٢٥ والشارع السابع في هارليم: «وصلت متأخراً إلى مكان الإجتماع الذي دعاني إليه ملكوم إكس فوجدت الناس تندفع منه إلى الخارج».

ومرت دورية شرطة مكونة من الرقيب آلفين آرونوف والشرطي لويس آنجيلوس في الوقت الذي دوت فيه الطلقات. وقال آرونوف: «كانت الحشود عندما وصلنا إلى هناك تتزاحم للخروج وتقول: «لقد ضرب ملكوم إكس بالرصاص» و«أمسكوه! أمسكوه! لا تدعوه يفلت!» فأمسك الشرطيان بزنجي كان يرفس ويحاول الهرب وأطلقا طلقة نارية في الهواء وزجا الزنجي في سيارة الشرطة وانطلقا به إلى مركز الشرطة قبل أن يلحق بهما الجمهور.

وكان شخص قد انطلق إلى مصحة فانديربيلت التابعة لمستشفى كولومبيا المشيخي ودخل من باب الطوارىء الواقع في النهج ١٦٧ وأخذ محملاً وعاد به إلى منصة قاعة أوديبون. ووضع ملكوم إكس في المحمل وذهب به رجال بسرعة إلى مدخل الطوارىء في المصحة، فأخذ له مصور مجهول صورة بشعة وهو على ذلك المحمل وفمه مفتوح وأسنانه بادية. وقال ناطق باسم المستشفى فيما بعد إن ملكوم إكس وصل إلى قاعة العمليات في الطبقة الثالثة من المستشفى في الثالثة والربع وأنه «كان ميتاً أو في حكم الميت».

وشقت فرقة من الجراحين صدره في محاولة لتدليك قلبه، ولكنها توقفت عن ذلك في الثالثة والنصف. وأمطر الصحافيون الذين هبطوا على إدارة المستشفى الناطق باسم ذلك المستشفى بالأسئلة ولكنه كان يكرر باقتضاب: «لا أعرف» ثم سار نحو المصعد وتوجه إلى قاعة العمليات المستعجلة وعندما عاد كان هناك أيضاً بعض أصدقاء ملكوم إكس والأخت بيتي فاستجمع قواه ثم أعلن: «إن السيد المعروف بملكوم إكس قد مات. مات من اثر الجروح المصابة بالرصاص ويبدو أنه كان ميتاً عندما جيء به إلى هنا. لقد أصابته رصاصات عدة في الصدر ورصاصة واحدة في الخد».

وتسلل الزنوج خارجين وهم يحاولون السيطرة على إنفعالهم، واحد منهم يدق بقبضته اليمنى على راحته اليسرى وأكثر النساء ينتحبن. وفي لحظات عم الخبر أرجاء هارليم وأرجاء العالم فبدأت الناس تتجمع خارج فندق تيريزا الذي يأوي مقر منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين وسمعت من هناك بواسطة أجهزة الترانزيستور أن الرجل الذي قبض عليه الشرطيان في مقر الحادث قد أعلن أن اسمه توماس هاغان (وألقت دورية أخرى القبض على شخص آخر اسمه تالمادج هاير) وأن الشرطة عثرت في جيب سرواله الأيمن على مشط تعمير رصاص من عيار ٤٥. ما يزال يحتوي على أربع خرطوشات عامرة.

بعد ذلك أعلن الأطباء في المستشفى الأثري اليهودي أن هاير أصيب بجروح في فخذه الأيسر وبرضوض في جبهته، وأن هناك آثار ضرب على جسده. وقال النقيب آرونوف: «لو لم ندركه لقتلوه» ثم نقل هاير إلى مستشفى بيڤلو.

وفي حوالي الخامسة بعد الزوال تم تفريق التجمهر بهدوء وحذر من أمام فندق تيريزا، ومن باب الإحتياط أمر النقيب لويد سيلي رئيس الدائرة الثامنة والعشرين، وهو أول زنجي في نيويورك يصل إلى تلك الرتبة، المسلمين السود بإغلاق مسجدهم السابع ومطعمهم في النهج الموالي لمكان الحادث.

واتصل الصحافيون بمطعم المسلمين السود فرد عليهم رجل قال لهم: «ليس هناك من يمكنه الإدلاء بأي تصريح» وطلبوا مكتب منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين فلم يرد عليهم أحد. وبعد ذلك بقليل ظهر النقيب سيلي يمشي بمفرده في النهج ١٢٥ وهو يهز هراوته في يده ويتوقف ليكلم من يلتقيهم.

وصدرت الأوامر في دائرة الشرطة الثامنة والعشرين في النهج ١٢٣ إلى رجال الشرطة الأربعين الذين انتهت فترتهم بأن يبقوا في أماكنهم، وعززت شرطة نيويورك الدائرة بحافلتين من رجال مدربين تدريباً عالياً على تكتيكات الدوريات ثم أدلى العديد من رجال الشرطة بتصريحات للصحافة. وقال النقيب هاري قيصر أحد أعضاء شرطة الدوريات النيويوركية إنه لم يتم تسجيل أي حادث غير عادي وإنه لا يترقب أن تحدث أية مشاكل. وقال وولتر آرم عميد الشرطة إن «المئات» من رجال الشرطة وحتى بعض أعضاء البوليس السري سيرسلون إلى منطقة هارليم لتعزيز الأمن فيها.

وتكهن هاري تايلور وهو مفتش مساعد أن المجرمين لم يخرجوا من القاعة مع

الجمهور وإنما نفذوا من مكان الحادث إلى النهج ١٦٥ مباشرة. وفي المساء أوقف رئيس المفتشين فيليب وولش عطلته والتحق بالفرقة المكلفة بالبحث عن القتلة وقال إنه يترقب أن تكون التحريات طويلة ودقيقة.

وصورت الشرطة والصحافة المنصة وعليها علامات بالطباشير الأبيض تحيط بخمسة ثقوب في المنبر كما كان هناك ثقوب في الستار الخلفي تشير إما إلى أثر رصاص طائش أو رصاص اخترق ملكوم إكس.

ورفضت الشرطة أن تقول أي شيء عن الإشاعة التي كانت تعم هارليم والتي تقول إنها حازت على شريط صوره أحد الحاضرين في القاعة وقت وقوع الجريمة. وكانت هناك إشاعة أخرى انتشرت بسرعة مفادها أن الأخت بيتي عندما انحنت على جثمان زوجها أخرجت من جيب سترته ورقة كان قد كتب عليها أسماء الأشخاص الذين بلغه أنهم عينوا لقتله.

وأكد وولتر آرم مفوض الشرطة أن مصلحة الشرطة بذلت جهوداً لحماية ملكوم إكس وعرضت عشرين مرة حمايتها عليه وعلى بعض أعوانه ولكنهم رفضوها وأنها عرضت عليه سبع عشرة مرة، آخرها يوم «الأحد الماضي»، أن تبعث رجال شرطة إلى اجتماعاته في قاعة أوديبون. وسئل عن إذن حمل المسدس الذي كان ملكوم إكس قد أعلن أنه ينوي طلبه فقال إنه حسب علمه لم يتقدم بذلك الطلب. وأثير عديد من المسائل. وإلى حد هذه الساعة التي أخط فيها هذه الكلمات لم يعلن عن هوية المتهم الذي قبض عليه شرطي الدورية والذي كان الجمهور يطارده.

على أن تصريح وولتر آرم مفوض الشرطة حول رفض ملكوم إكس حماية الشرطة يتناقض مع تصريحات أعوان ملكوم إكس القائلة بأنه اشتكى عدة مرات خلال الأسبوع السابق لاغتياله من كون الشرطة لا تنظر إلى طلب حمايته بجدية، رغم أن هذه الأخيرة قالت إن جزءاً من فرقة يتكون من عشرين شرطياً قد أرسل إلى اجتماع قاعة أوديبون الأخير، وأن بعض أعضاء البوليس السري حضروه إلا أن أحداً لم ير أياً منهم لا إبان ولا بعد الإغتيال، وحتى تالمادج هاير الذي أفلت من الجمهور وقُبض عليه إنما قبضت عليه دورية كانت تمر بالصدفة.

وجاءت مكالمات الصحافيين من أطراف البلاد إلى إلايجا محمد بمركز إدارته ببيته الكبير في شيكاغو فرفض أن يرد عليها ولكن ناطقاً باسمه قال: «إن محمد ليس

عنده اليوم تعليق ولكنه قد يكون لديه ما يقوله غداً». ولم يكن الصحافيون أكثر حظاً مع أخ ملكوم إكس الأكبر ويلفريد إكس رجل الدين المسلم الأسود بمسجد دترويت رقم واحد.

وقالت لهم امرأة في بيته إنه غير موجود وإنه لم يذهب إلى نيويورك وإنها لا تعتقد أنه ينوي الذهاب إليها. (وعندما أمكن الإتصال برجل الدين ويلفريد إكس فيما بعد قال إنه ينوي حضور مؤتمر المسلمين السود في شيكاغو المقرر عقده يوم الأحد التالي وقال فيما يخص أخاه: «لقد مات أخي وليس هناك ما يمكننا لإرجاعه إلى الحياة»).

ومع نزول الليل تجمع الزنوج نساء ورجالاً أمام مكتبة لويس ميشو في ساحة تقام فيها الظاهرات الوطنية السوداء بهارليم. وقام أعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين بفتح مركز المنظمة في فندق تيريزا وجلسوا في المكتب وامتنعوا عن الإدلاء لرجال الصحافة بأي تصريح.

وظهرت مجلة نيويورك دايلي نيوز وعلى غلافها صورة ملكوم إكس فوق المحمل وعليها بخط عريض «إغتيال ملكوم إكس» فعنوان فرعي «بالسلاح الناري في تجمع». وفي لونغ آيلاند كتبت عتيلة كبرى بنات ملكوم إكس البالغة من العمر ست سنوات بعدما أخذت إلى هناك من مكان الحادث رسالة إلى والدها تقول فيها: «أبي العزيز، أحبك كثيراً. آه، آه، ليتك لم تمت!»؟

كانت الجثة مسجلة تحت اسم «جون دو» لأنه لم يكن قد تم التعرف عليها رسمياً بعد ونقلت في ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد إلى مكتب نيويورك الواقع في ٥٢٠ بالشارع الأول. وأسفر التشريح عن أنه مات من أثر الرصاصات التي أصابته في قلبه وقال الطبيب المشرف على المستشفى الدكتور ميلتون هيلبورن إن ملكوم إكس مات بمجرد ما أصيب في قلبه، وصدره بثلاث عشرة رصاصة صادرة من بندقية وأن الجروح التي تسببت له فيها رصاصات من عيار ٣٨. و٤٥ في الفخذين والساقين تدل على أنها أصابته بعدما سقط.

وفي صباح يوم الإثنين قامت الأخت بيتي رسمياً بالتعرف على الجثة. وكان يرافقها بيرسي ساتن والسيدة إيلا كولينز أخت ملكوم إكس من أبيه وجوزيف هول مدير دار الوحدة الجنائزية بهارليم. وعندما غادرت الأخت بيتي مكتب الفحص الطبي في

حوالي الثانية عشرة زوالا لإتمام إجراءات الجنازة قالت للصحافة: «لم يصدقه أحد. لم يأخذوه مأخذ الجد. حتى عندما أحرق بيتنا قالوا إنه هو الذي أحرقه!».

وفي دار الوحدة الجنائزية الواقعة شرق الشارع الثامن بين النهجين ١٢٦ و ١٢٧ اختارت الأخت بيتي تابوتاً من البرونز مبطناً بقطيفة صفراء. وطلبت أن يؤجل الدفن إلى يوم الأحد أي إلى ما بعد خمسة أيام. وأعلن هال مدير دار الوحدة الجنائزية أن ملكوم إكس سيدفن في بدلة رسميه وأنه سيوضع وراء الزجاج من يوم الثلاثاء إلى يوم الجمعة ليلقي عليه الناس نظرة أخيرة وأن مراسيم الجنازة ستتم في إحدى كنائس هارليم.

وبعد ذلك وضع على كتاب الدار «الحاج مالك الشباز». وفي بروكلين قال الشيخ الحاج داوود أحمد الفيصل وهو مسلم سني من البعثة الإسلامية في أمريكا إن تأجيل الدفن منافٍ للعادة الإسلامية التي تنص على أن الشمس لا يجب أن تغيب مرتين على جثة المؤمن، وأن القرآن يشير إلى أن الدفن يجب أن يتم في حدود أربع وعشرين ساعة إن أمكن، وأن المسلمين يعتقدون أن الروح تخرج من الجثة عندما تبرد وتعود إليها عندما توضع تحت التراب.

وفي شيكاغو كانت الشرطة تراقب محطات الحافلات الرابطة بين المدن ومحطة القطار والمطار ومداخل الطرق السيارة. وقال إلايجا محمد في بيته الكبير المكون من ثلاث طبقات وهو تحت حراسة مكثفة: «إن ملكوم إكس مات بما كان يدعو إليه. إنه كان قد أصبح على ما يبدو يعبد السلاح ولذلك لم نكن لنتسامح معه. لقد كان يدعو للحرب ونحن ندعو للسلم. نحن لا يسمح لنا بالقتال إلا إذا هوجمنا، هذا ما يقوله القرآن والإنجيل، ولذلك فنحن لن نبدأ بالعدوان. ولا يحق لي أن أخاف لأن الله اختارني ولأن حياتي في يده فإن رمى بي في يد الأشرار فأنا راضٍ بحكمه. وكان بيته الكبير تحت حراسة شرطة شيكاغو وفتيان ثمرة الإسلام كما كان المزيد من هؤلاء وأولئك يقف أمام ثانوية الجامعة الإسلامية ومكاتب جريدة محمد يتكلم.

وقال محامي ملكوم إكس بيرسي ساتن العضو في المجلس التشريعي المحلي إن الشرطة قد توصلت بأسماء الأشخاص الذين كان ملكوم إكس قد قال إنهم ينوون قتله. وكان الصحافيون يتسجوبون الناس في كل أرجاء هارليم ويضعون المكروفونات أمام رجل الشارع والشهود يتركون دوائر الشرطة من أبوابها الجانبية. وقال مساعد رئيس

المفتشين جوزيف كويل المشرف على مفتشي شمال منهاتن: «... إنها مؤامرة محبوكة بدقة. إننا نقوم بالتحقيق مع الأشخاص الأربعمائة الذين كانوا في القاعة وقت الحادث». وقال إنه يعمل في هذه القضية خمسون من رجال الشرطة وأنه اتصل بشرطة المدن الأخرى.

كانت هارليم هاجعة عندما مزق سكونها في الثانية والربع صباحاً إنفجار هز المنطقة القريبة من مسجد نيويورك السابع الواقع في الطبقة الرابعة والأخيرة من بناية توجد بين النهج ١١٦ وشارع لينوكس. وحضر رجال الإطفاء بعدما أخطرهم الشرطيون الأربعة المكلفون بحراسة مدخل البناية. وما هي إلا دقائق حتى كانت ألسنة اللهب قد دكّت سطح البناية وارتفعت في الفضاء. وظل رجال الإطفاء يصبون المياه على البناية طيلة سبع ساعات. وعثر في السطح المجاور على علبة بنزين سعتها خمس غالونات وحقيبة بنية عليها بقع من البنزين وخرق مشبعة بالزيت. وغُيِّرَ لوهلة اتجاه خط المترو وثلاثة من خطوط الحافلات. وتهاوى أحد من جدران البناية من فعل اللهيب المهول فحطم سيارتي إطفاء وأصاب خمسة من رجال الإطفاء بجروح كانت بليغة بالنسبة لواحد منهم كما أصيب رجل كان يشتري جريدة في الرصيف الآخر. وعندما طلع النهار أُعلن أن النيران قد تمت السيطرة عليها. وكان مسجد المسلمين السود والكنيسة الواقعة تحته قد خربا كما خربت سبعة متاجر في الطابق الأرضي بما فيها المطعم الإسلامي. وقالت مصلحة الإطفاء إن الخسائر تقدر بخمسين ألف دولار. وقال جوزيف إكس الذي كان مساعد ملكوم إكس الأول في المسجد السابع إن الصلاة ستقام في مسجدين أحدهما في بروكلين والآخر في كوينز، لونغ آيلاند. وكان كلا المسجدين تحت الحراسة المستمرة.

وفي الطرف الآخر من البلاد، في سان فرانسيسكو عثر شرطيان بعد ظهر يوم الثلاثاء على حريق قبل أن يشب في مسجد المسلمين السود وتمكنا من إخماده بسرعة. وكان مجهول قد صب على الباب وبين يديه زيت الغاز وأضرم النار.

وحدد موعد مرور الجمهور أمام جثمان الحاج مالك الشباز في الثانية والنصف من بعد ظهر يوم الثلاثاء فجاء واصطف خلف حواجز نصبتها الشرطة في انتظار أن يسمح له بالدخول بينما انتشر رجال الشرطة في سياراتهم في كل مكان وانتصب الرماة في السطوح المحيطة بدار الجنازة ولكن التهديدات بوضع القنابل بدأت تصل هاتفياً

بعد الزوال مباشرة فأفرغت الدار مرتين لتفتيشها دون أن يعثر فيها على شيء. وجرى تفتيش مماثل في مكاتب النيويورك تايمز الواقعة في النهج ٤٣ بعدما اتصل بها رجل احتج على مقالها الإفتتاحي المخصص لمالكوم إكس وقال: «ستخرب آلياتكم في الساعة الرابعة».

وفتشت الشرطة كل الطرود وباقات الزهور التي كانت تصل إلى دار الجنازة بهارليم كما فتشت حقائب النساء الكبيرة. وفي الساعة السادسة والربع مساء وصلت الأخت بيتي بين أربعة أقرباء وأصدقاء تصاحبهم فرقة من رجال الشرطة ودخلوا الدار تحت وابل من أضواء المصورين فقال أحد الصحافيين البيض معلقاً: «إنها جاكلين كينيدي السوداء. امرأة ذات شأن. تعرف ما يجب عليها عمله في الوقت المناسب وتدبر أمرها بشكل رائع».

وخرج أعضاء الأسرة في السابعة وعشر دقائق ثم سمح للجمهور بالدخول بعد عشر دقائق. ومن ذلك الحين حتى العاشرة مساء مر أمام الجثمان ألفا شخص من بينهم بعض البيض. كان الجثمان في تابوت مفتوح وكان في بدلة رسمية داكنة وقميص أبيض وربطة عنق داكنة وكان فوقه صفيحة نحاسية مستطيلة مكتوب عليها: «الحاج مالك الشباز ١٩ مايو ١٩٢٥ ـ ٢١ فبراير ١٩٦٥».

وفي ذلك الوقت كان أتباع ملكوم إكس يبحثون في هارليم بقلق متزايد عن كنيسة تقبل إجراء مراسيم الجنازة يوم الأحد. وكانت كنائس عدة قد ردت طلبهم ومن بينها أكبر كنيسة في هارليم وهي الكنيسة المعمدانية الحبشية التي يرعاها القسيس عضو الكونغريس آدم كلايتون پاول. وذكرت الأمستردام نيوز أن من بين من رفضوا الطلب كنيسة وليامز ومعبد اللجوء إلى كنيسة سيدنا المسيح، ثم قبل ألفن شايلدس الأسقف بمعبد الإيمان، كنيسة الله في المسيح الواقعة بين النهج ١٤٧ وشارع أمستردام والتي كانت في السابق مسرحاً حُوِّلَ إلى كنيسة منذ خمس عشرة سنة فكانت تسع ألف شخص في القاعة وسبع مائة في القبو. وقال القسيس شايلدس الذي انتخب في ١٩٦٤ عمدة محلياً إنه فعل ذلك بدافع إنساني. وسئل عن ملكوم إكس فقال: «كان مناضلاً يعبر عن أفكاره. لم أكن أتفق مع فلسفته ولكن ذلك لم يؤثر على صداقتنا». وبمجرد ما عرف الخبر بدأت التهديدات بوضع قنابل تصل هاتفياً إلى كنيسة القسيس شايلدس وبيته.

ونقلت الصحافة تعليقات شخصيات زنجية على موت ملكوم إكس فقال العالم

النفساني المشهور الدكتور كينيث كلارك لمجلة جيت: «كنت أحمل لهذا الرجل احتراماً كبيراً. أعتقد أنه كان يحاول صادقاً أن يجد مكانة له في صراع الحقوق المدنية يكون فيها محترماً ومفهوماً، وكنت أتكهن له بالصعود فيها وإنه لشيء مأساوي أن يصفى في الوقت الذي كان قد بدأ يقترب فيه من هدفه».

وذكر مراسل النيويورك تايمز في لندن أن الأديب والكاتب المسرحي الأمريكي الأسود جايمس بالدوين ذكر في ندوة صحافية أنه يعتقد «أن موت ملكوم إكس سيؤدي إلى إنتكاس الحركة الزنجية». وأشار إلى الصحافيين البيض الحاضرين وقال: «أنتم الذين قتلتموه... إن الذين قتلوه تكونوا في بوتقة الغرب، بوتقة الجمهورية الأمريكية» وقال: «إن اغتصاب أوروبا لإفريقيا قد أعطى الإنطلاقة للمشاكل العنصرية وهو الذي كان بداية نهاية ملكوم إكس».

وقال لويس ميشو صاحب مكتبة في هارليم وأحد شخصياتها للأمستردام نيوز: «إن مثل هذه الأفعال هو الذي يخلق التلاحم بين الجماهير. لقد مات ملكوم إكس ميتة باتريس لومومبا في الكونغو... كان علينا أن نتحد لا أن نتقاتل».

وقال بليار راستين وهو من أهم الشخصيات المنظمة للمسيرة السوداء إلى واشنطن في ١٩٦٣: «إن موت ملكوم إكس قد غير نظرة الشباب الزنجي إلى نفسه». وقال جايمس فارمر زعيم مؤتمر المساواة العرقية إن «طرفاً ثالثاً» هو الذي قتل ملكوم إكس بهدف زيادة العنف والإغتيال والثأر». وسئل بعد أيام عن الإشاعة القائلة إن موت ملكوم إكس من تدبير صيني فقال: «لن أقول إن ذلك أمر مستبعد». وقال الدكتور إريك لينكولن صاحب كتاب «المسلمون السود في أمريكا» للصحافة في جامعة براون التي كان أستاذاً زائراً وباحثاً فيها: «إن السود في أمريكا ينظرون إلى موت ملكوم إكس كأشأم حدث حل بهم منذ نفي ماركوس غارفي في العشرينات، ولا أعتقد أن لأية جهة أجنبية يداً في المجزرة. إن الفاعل منا، من داخل النزاع الأسود. إن من قتل ملكوم إكس هو أحد المتنازعين على زعامة الجماهير السوداء التي تعد أقل المجموعات في أمريكا إمكانات وأكثرها عرضة للتلاشي». وقال روي ويلكينز أمين الجمعية الوطنية لتقدم الملونين: «إن موت ملكوم إكس يعطي من الدلالات ما كانت تعطيه خطبه ربما أكثر».

وعبر المحققون عن استيائهم من عدم تفتح أعوان ملكوم إكس معهم وعدم

مساعدتهم للتحقيق. ونشرت الصحافة بطلب من الشرطة رقماً هاتفياً خاصاً وطلبت ممن يتوافر لديهم معلومات سرية حول الجريمة ويريدون إبلاغها أن يتصلوا بالمحققين فيه. وكانت الشرطة تحجز روبن فرانسيس حارس ملكوم إكس الذي كان يعتقد أنه هو الذي أصاب تالمادج هاير المتهم بقتل ملكوم إكس والذي كان في سجن بيلفو حيث كانت ستجرى له عملية جراحية.

وبينما كانت الألوف تمر أمام جثمان ملكوم إكس كانت التهديدات بوضع القنابل تصل بالهاتف إلى دار الجنازة وإلى معبد الإيمان حيث كان منتظراً أن تشيع الجنازة يوم السبت. وفي ذلك الوقت هددت منظمة تعرف بفدرالية العمل السياسي الحر يتزعمها جيسي غراي صاحب فكرة الإضراب عن الإيجار، بمقاطعة كل متجر في هارليم لا يغلق أبوابه من مساء يوم الخميس إلى صباح يوم الإثنين حداداً على ملكوم إكس وبدأت توزع على المارة منشوراً ورد فيه: «إن من لا يغلق يعلن عن تعاطفه مع العدو ويلزمنا بإغلاق متجره إلى الأبد بمقاطعته وكل من يشتري من المتاجر المفتوحة في النهج ١٢٥ في الفترة المحددة للإغلاق يتعاطف مع العميل المجرم الذي سمح للجهاز الحاكم باستعماله لقتل الأخ ملكوم».

وفي تجمع دعت إليه منظمة العمل السياسي الحر أمام مكتبة ميشو قال جيسي غراي: «يجب أن يرشح زنجي نفسه لإنتخابات عمدة نيويورك في ١٩٦٥ باسم ملكوم إكس وأتكهن له بالحصول على ٠٠٠ ١٠٠ صوت». بعد ذلك اجتمع تجار وأعضاء الغرفة التجارية بهارليم وصوتوا على قرار يحث متاجر هارليم على عدم الإغلاق وعلى «مواصلة استقبال زبائنها» كما أصدروا توصية تطالب أصحاب المتاجر بعدم اقتطاع أجور من يرغبون من عمالهم في تشييع الجنازة يوم السبت.»

بعد ذلك بدأ زعماء هارليم ينتقدون منظمة العمل السياسي الحر الواحد تلو الآخر ويصفون مبادرتها باللامسؤولية. وبقيت متاجر هارليم في الأخير مفتوحة فأرسلت منظمة العمل السياسي الحر حوالي عشرين محرضاً بقوا واقفين لحين أمام بلومستيل أكبر متاجر هارليم تحت زعامة رجلين أبيضين يحملان علامات تقول: «يجب إغلاق كل المتاجر. كرموا ملكوم إكس». كان الجو قد أصبح بارداً جداً وحبال الماء المتجمد تتدلى من سقف بناية المسجد السابع الذي خربته النيران. وكتبت جريدة الأمستردام نيوز الواقعة على مقربة من دار الجنازة في افتتاحية لها تحت عنوان: «بين

الهدوء والإعصار» قالت فيها إن تشييع جنازة ملكوم إكس بهدوء من شأنه أن يخيب ظن نقاده الذين لا يتوقون لشيء أكثر مما يتوقون لرؤية السود يتشاغبون على جثته».

وكان خطر الشغب ماثلاً وتزايد عدد زعماء هارليم الذين صرحوا أن ذلك يعود بالأساس إلى صحافة المركز البيضاء التي تعمد إلى أسلوب الإثارة في تقديم ما يجري في وسط يتصف في واقع الأمر بالهدوء والكرامة. وأخيراً أصدرت جمعية رجال الدين المنتمين للمعتقدات المختلفة وثيقة اتهمت فيها الصحافة جاء فيها: «إن العناوين الصارخة التي تظهر في عدة صحف تجعل من يقرؤها يظن أن هارليم قد أصبحت معسكراً ينذر بالإنفجار، والحالة أن الأغلبية الساحقة من سكان هارليم لم تشترك في أعمال العنف التي ضخمتها الصحافة، وإن تحريف الحقائق لكفيل بخلق جو مواتٍ لبعض المنحرفين والمغامرين».

ونشرت الأمستردام نيوز مقالاً صدم الكثيرين في هارليم بعنوان: «مات ملكوم إكس معدما». وكان الكثيرون يعتقدون أنه عندما أصبح رجل دين مسلم أسود عاهد الله أن يبقى فقيراً فلم يقتن من حطام الدنيا شيئاً خلال الإثنتي عشرة سنة التي قضاها في أمة الإسلام. وقرأت في جهة ما أنه كان يتقاضى من أمة الإسلام أجراً ما يقارب ١٧٥ دولاراً في الأسبوع لتغطية نفقاته باستثناء نفقات أسفاره. وجاء في مقال الأمستردام نيوز قولها: لقد ترك بناته الأربع وزوجته الحامل بدون أي تأمين أو رصيد أو مورد.» ولعله قد ورد في ذلك المقال أيضاً أن الأجل وافاه قبل أن يكتب وصيته التي كان على موعد مع محاميه ليكتبها بعد خمسة أيام من وفاته. وخلال الأسبوع فتحت جماعتان، تشكلتا فوراً، اكتتابين تَحَوَّلا إلى حسابٍ جارٍ في بنك الحرية الوطني الواقع في ٢٧٥ بالشارع ١٢٥ بهارليم، وذلك لمساعدة الأخت بيتي على تربية بناتها.

وقالت السيدة إيلا ماري ماي كولينز أخت ملكوم إكس من أبيه في ندوة صحافية عقدتها في بوسطن إنها تختار زعماء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين لخلافة أخيها. وكانت تدير مدرسة سارة ليتل الإعدادية للفنون التي قالت عنها إنها تعلم الأطفال العربية والسواحلية والفرنسية والإسبانية. وكانت قد انفصلت عن مسلمي إلايجا محمد السود في ١٩٥٩ الذين كانت قد انضمت إليهم بعدما أسلمت على يد ملكوم إكس.

وبعيداً عن هارليم، في تلك الأمصار التي سافر إليها ملكوم إكس غطت الصحافة الإغتيال تغطية أزعجت مدير وكالة الإعلام الأمريكية إزعاجاً شديداً، وكان هو نفسه

زنجياً يسمى كارل رووان وقال إنه بمجرد ما سمع الخبر عرف أنه سيؤول تأويلات خاطئة في بعض البلاد التي يجهل الناس فيها حقيقة ما ملكوم إكس يمثله.» وقال: «إن وكالة الإعلام الأمريكية بذلت قصارى جهودها لتنوير الصحافة الإفريقية بواقع حال ملكوم إكس وأفكاره، وأنه ما يزال هناك ردود فعل إفريقية ناتجة عن الأخبار الخاطئة والتحريف. إن الأمر يتعلق بزنجي يدعو إلى الفصل والكراهية العرقية، قتله زنجي آخر ينتمي إلى منظمة أخرى تدعو أيضاً إلى الفصل والكراهية العرقية وكلاهما لا يمثل إلا أقلية ضئيلة من السود في أمريكا. كل هذه الضجة على نزيل سجون سابق وبائع مخدرات تحول إلى عنصري متعصب. والخلاصة أننا نحن الأمريكيين لا نعرف كل ما يجب علينا أن نعرفه حول ما يدور في رؤوس شعوب أخرى أو أن حاجة الناس إلى الإخبار أكبر مما نعتقد».

وكانت الدايلي تايمز الصادرة في لايغوس، نيجيريا قد كتبت ما يلي: «لم يكن ملكوم إكس خالياً من العيوب، شأنه شأن سائر البشر... ولكن أحداً لا يشك في أنه كرس حياته لتحرير إخوانه... لقد كافح ومات في سبيل ما كان يعتقد أنه الحق فالتحق بالشهداء». ووصفت جريدة التايمز الغانية الصادرة في آكرا ملكوم إكس بالمناضل وبأنه أكثر الزعماء الأمريكيين السود المناهضين للميز العنصري شعبية». وأضافت اسمه إلى قائمة شهداء الحرية في إفريقيا وأمريكا بدأتها بجون براون وختمتها بباتريس لومومبا. وكتبت يومية غرافيك الصادرة أيضاً في آكرا تقول: «إن التاريخ سيذكر اغتيال ملكوم إكس كأكبر صفعة تلقاها دعاة الإندماج السود منذ مقتل إدغار إيفرز الشنيع وجون كينيدي».

وقالت جريدة الحرية الباكستانية الصادرة في كراتشي إن ملكوم إكس كان «زعيماً زنجياً عظيماً». وقالت التايمز الباكستانية: «إن موته انتكاسة للحركة الزنجية المطالبة بالحرية». وقالت جريدة الصين اليومية الصادرة في بكين: «لقد قتل لأنه كان يصارع لتحرير ثلاثة وعشرين مليوناً من الزنوج الأمريكيين».

وذكر بعض الصحافيين أن عناوين الصحافة الجزائرية بدأت بقول إن الكوكلوكس كلان هو الذي قتله، وأن جريدة الجمهورية ذات الميول الشيوعية في افتتاحيتها: «الفاشية الأمريكية». وقال مراسل التايمز في الجزائر إن الجزائريين يرفعون ملكوم إكس إلى مرتبة الإستشهاد. وسارت مظاهرة إلى مقر القنصل الأمريكي في جورج تاون

بغوييانا البريطانية وهي تردد: «الأمبرياليون الأمريكيون». وقالت صحيفة صينية أخرى تصدر في بيكينغ تسمى جين مين جيه پاو: «إن هذا الموت يدل على أن التعامل مع التعسفيين الأمبرياليين يجب أن يقوم على مقابلة العنف بالعنف». وذكر مراسل النيويورك تايمز في موسكو أن جريدة البرافدا لم تصدر إلا مقالات موجزة في الموضوع وأنها لم تتناوله في افتتاحيتها، وقال مراسل الجريدة نفسها في بولونيا إنه لم يكن هناك أي رد فعل هناك تجدر الإشارة إليه لأن القليل من البولونيين يعرفون ملكوم إكس ويهتمون بالقضية العنصرية». وقيل إن الصحافة الصادرة في القاهرة وبيروت ونيودلهي وسايغون لم تورد الخبر إلا بشكل روتيني بينما لم تهتم به الصحافة في باريس وأوروبا الشرقية إلا لمدة يوم واحد.

وتناولت الصحافة الألمانية الحادث كما لو كان قد دار وفقاً لتقاليد مجرمي شيكاغو. وقالت جريدة النيويورك تايمز: «لقد تكلمت صحافة لندن على الحادث بلهجة أشد ولمدة أطول من صحافة باقي البلاد مركزة باستمرار على تطورات التحقيق. ونشرت كل من التايمز والدايلي تلغراف اللندنيتين مقالات رئيسية في الموضوع ولكنهما لم تتعرضا لملكوم إكس كشخصية هامة». وذكر مراسل نيويورك تايمز في لندن أيضاً أن جماعة تسمي نفسها مجلس المنظمات الإفريقية انتقدت الولايات المتحدة بعنف وأنها تتكون من الطلاب الأفارقة وأعضاء الجالية الإفريقية في لندن. ووصفت ملكوم إكس في بيان صحافي أصدرته بأنه زعيم في الصراع ضد الأمبريالية الأمريكية والتعسف والعنصرية، وقالت إن الذين قتلوا لومومبا هم الذين قتلوا ملكوم إكس ببرودة دم.

وكانت عناوين الصحف النيويوركية يوم الجمعة تتكلم على إلقاء القبض على متهم آخر، ربع القامة، مستدير الوجه، خبير سابق في الكاراتيه في السادسة والعشرين من عمره يدعى نورمن إكس ٣ باتلر يزعم أنه مسلم أسود. وبعد أسبوع ألقي القبض على شخص يدعى توماس إكس ١٥ جونسون زعم بدوره أنه مسلم أسود. وكان كل منهما قد اتهم بإطلاق النار على بنيامين براون في يناير ١٩٦٥ وهو حارس سجن معروف بتهجمه على المسلمين السود وبذلك أصبح عدد المتهمين بقتل ملكوم إكس في عاشر مارس ثلاثة أشخاص.

ومع إعلان إلقاء القبض على باتلر الذي أدعى أنه ينتمي إلى منظمة الإيجا محمد

ارتفع التوتر بين أعضاء الجماعتين (جماعة إلايجا محمد وجماعة ملكوم إكس). وحل موعد مؤتمر المسلمين السود الوطني الذي كان مقرراً أن يبدأ يوم الجمعة في شيكاغو ويستمر ثلاثة أيام. وفي صباح يوم الجمعة قضى العشرات من رجال الشرطة أربعين دقيقة في تفتيش طائرة تابعة لخطوط كابيتال كان المسجد السابع قد حجزها لنقل المسلمين إلى شيكاغو وإرجاعهم إلى نيويورك مقابل ٥١٧٥،٥٤ دولاراً يدفعها على أقساط.

ووصل إلى شيكاغو حوالي ٣٠٠٠ مسلم أسود من مساجد المدن الكبرى لحضور مؤتمرهم السنوي الذي يعتبر عندهم بمثابة عيد ميلاد المسيح. كانت وفود المساجد تصل على التوالي إلى الميدان الرياضي الكبير الواقع جنوب مركز شيكاغو التجاري وتتجمع أمامه. وكان الإخوان في مختلف الأعمار يرتدون بدلات أنيقة وداكنة وقمصاناً بيضاء والأخوات في عباءات حريرية فضفاضة وعلى رؤوسهن المناديل. وكانوا ينتظرون دورهم في الصف ليفتشوا تفتيشاً مشدداً قبل الدخول، وقالت الشرطة إن ذلك التفتيش لم تشهد له شيكاغو مثيلاً وأنه من النوع الذي لا يكون إلا عند زيارات رؤساء الدول. وكان التفتيش أشد ما يكون على الزنوج غير المسلمين الذين حضروا كمتفرجين وعلى أعضاء الصحافة البيض والسود. هناك قال حارس مسلم أسود لصحافي أبيض: «اخلع قبعتك! برهن عن شيء من الإحترام!» وكان الذين مروا من التفتيش يتبعون أحد أعضاء ثمرة الإسلام ليدلهم على مقاعدهم في القاعة المعرضة لمجرى الهواء والتي تسع ٧٥٠٠ شخص والتي لم يمتلىء إلا نصفها ذلك اليوم، فرد المسلمون ذلك إلى الرجل الأبيض الذي يفرق بين السود، ولكن الملاحظين الذين ذكروا بأن تلك القاعة كانت ممتلئة عن آخرها في العام الماضي ردوه إلى تخوف الزنوج غير المسلمين من التهديدات بوضع القنابل. وجلس الجمهور يوشوش تحت اللافتتين اللتين كتب عليهما: «مرحباً بإلايجا محمد. حضورك يسعدنا» و«يجب أن نحصل على شيء من تلك الأرض» إشارة إلى طلب إلايجا محمد منح الثلاثة وعشرين مليون زنجي ولاية أو أكثر كتعويض جزئي عما بذلوه أيام العبودية من دم وعرق لبناء هذه الأمة الثرية حيث إنها ما زالت تبرهن عن أنها لا تنوي قبول الزنوج كأشخاص متساوين. وكانت أمام المنصة الواسعة والعالية صورتان مكبرتان لإلايجا محمد في الحجم الطبيعي تقريباً. وكان حرس ثمرة الإسلام يقفون بين المنصة والجمهور ويتفرسون في الوجوه ويطلبون من الناس بين الفينة والأخرى في حزم أوراق تعريفهم

ويسألون: «من أي مسجد أيها الأخ؟» وكان المزيد من حراس ثمرة الإسلام يفتشون الشرفة الشاغرة والكواليس والطابق السفلي وخشب السقف والسطح.

كان شبح ملكوم إكس يحوم حول القاعة. وبدأ المؤتمر في جو درامي بالنسبة للمسلمين عندما صعد إلى المنصة ولاس ديلاني محمد ابن إلايجا محمد الذي كان قد ساند ملكوم إكس، ووقف أمام الجمهور طالباً العفو عن خطئه ثم تناول الكلام أخوا ملكوم إكس، رجلا الدين ويلفريد وفيلبرت ودعيا للوحدة مع إلايجا محمد. وقال ويلفريد إكس رجل دين مسجد دترويت: «سوف نكون جهلة إذا أشكلت علينا الأمور ودخلنا في الجدال والنزاع مع بعضنا البعض ونسينا العدو الحقيقي». وقال فيلبرت إكس رجل دين مسجد لانسينغ: «لقد كان ملكوم دمي ولحمي، كان قريباً مني... وصدمني ما آل إليه إذ أنه ليس هناك من يريد أن يرى أخاه يدمر ولكنني كنت أعرف أنه يسير بتهور في طريق خطير وقد حاولت رده إلى جادة الطريق وحاولت أن أبقيه على قيد الحياة عندما كان حياً أما وقد مات فلم يعد هناك ما يمكنني عمله. وأشار إلى إلايجا محمد وقال: «سأتبع هذا الرجل حيثما قادني ثم قدمه للجمهور ليلقي كلمته.

وبدأ إلايجا محمد يتكلم فلم يظهر منه إلا وجهه فوق الجدار البشري الذي يشكله حراس ثمرة الإسلام ذوو الوجوه الصارمة والذين كان من بينهم كاسيوس كلاي. وكان إلايجا محمد يلبس طربوشاً أخضر تلمع فيه أهلة ونجوم وأقمار وشموس مطرزة بخيوط ذهبية وقال في خطابه: «لقد وقف ملكوم إكس مدة طويلة في هذا المكان الذي أقف الآن فيه وكان وقتها آمناً ومحبوباً وكان الله نفسه يحفظه... لقد ترك ملكوم إكس مشاغله مدة تربو على الشهر وذهب إلى كل مكان، إلى آسيا وأوروبا وإفريقيا وحتى إلى مكة محاولاً أن يخلق لي الأعداء ثم عاد ليقول إن علينا ألا نكره العدو... وجاء إلى هنا منذ بضعة أسابيع يفور كراهية ويقذفني بكل ما يشين... إنا لم نفكر في قتله ولم نقتله. إنهم يعرفون أنني لم أؤذه. يعرفون أنني كنت أحبه. إن أفكاره الحمقاء هي التي قتلته...»

كان يبدو منهوكاً جسدياً وعاطفياً وانتابه السعال فقال له الجمهور: «هون عليك! خذ وقتك!». ثم قال: «لم يكن له أن ينبذني. لقد كان نجماً ضل طريقه!... إنهم يعرفون أنني لم أؤذ ملكوم ولكنه حاول أن يشن علي الحرب.» ثم قال إن جنازته كانت ستكون أعظم جنازة لو أنه بقي في صفوف المسلمين السود ومات ميتة طبيعية.

وزاد قائلاً: «ولكننا عوض ذلك نقف الآن على قبر منافق!... من هم هؤلاء الذين يتزعمهم؟ ويعلمهم؟ إنه لا يملك أية حقيقة! لم نفكر في قتله! ولكن أفكاره الحمقاء هي التي قضت عليه. إنني لن أسمح لزارعي الشقاق بإفساد الأشياء الجميلة التي أرسلها الله لي ولكم. واستجمع طاقته الواهنة وظل يخطب مدة تقارب الساعة والنصف تحدى فيها من يفكرون في قتله قائلاً: «إن من يسعى إلى إطفاء حياة إلايجا محمد يسعى إلى الهلاك! إن القرآن الكريم يأمرنا بعدم إثارة النزاع ولكنه يأمرنا أيضاً بالدفاع عن أنفسنا وسوف ندافع عنها!» ورجع إلى مقعده وجمهور المسلمين السود يقول برجاله ونساءه وأطفاله: «نعم، سيدي... ما أعذب هذا الكلام... المن كله لمحمد!».

في ذلك الوقت توقف صف المشيعين في دار جنازة الوحدة في هارليم بنيويورك ودخل الدار حوالي إثنا عشر شخصاً من بينهم رجل يلبس جلباباً أسود وعمامة بيضاء وتصل لحيته البيضاء إلى صدره ويحمل عصا ذات طرف متشعب، فهرع الصحافيون إليه ولكن أحد مرافقيه ردهم بإشارة من يده قائلاً: «في السكوت السلامة.» وكان ذلك الرجل هو الشيخ أحمد حسون وهو سوداني سني درَّس في مكة مدة خمس وثلاثين سنة والتقى فيها بملكوم إكس ثم لحق به في الولايات المتحدة ليكون مستشاره الديني ويدرس في مسجده. وشرع الشيخ حسون في تجهيز الجثة حسب التقاليد الإسلامية فخلع عنها الملابس الغربية التي كانت معروضة فيها وغسلها بزيت مبارك ثم لفها في القطع السبع التقليدية البيضاء التي تعرف بالكفن حتى لم يبق يظهر منها إلا الوجه بشاربه الأحمر ولحيته الحمراء الصغيرة، ثم وقف مرافقوه جنب التابوت وبدأوا يتلون آيات من القرآن ثم التفت إلى أحد ممثلي دار الجنازة وقال: «الجثمان الآن جاهز للدفن». وخرج هو وصحبه فاستمر دخول الجمهور. وعندما انتشر الخبر رجع من كانوا قد مروا أمام الجثمان ليروا الكفن الإسلامي.

وفي ذلك اليوم، يوم الجمعة جئت في ساعة متأخرة من الليل ووقفت في الصف البطيء وأنا أفكر في ملكوم إكس الذي عرفته عن قرب واشتغلت معه مدة تقارب السنتين. كان رجال الشرطة يظهرون بين الفينة والأخرى في لباسهم الأزرق وينظرون إلينا ونحن نزحف داخل الحاجز المصبوغ بالرمادي، وكان في الجهة المقابلة من الشارع رجال يطلون علينا من النافذة الجانبية لمحل حلاقة لون ستار من بينهم رجلا الدين المسيحيان إيدي جونز ووليام أشير، بينما كان بعض الصحافيين يتبادلون الحديث جنب الشرطة تمضية للوقت ثم وجدنا أنفسنا داخل الكنيسة الواسعة والهادئة

والباردة والتي تكتنفها إضاءة خفيفة. كان شرطيان داكنان وضخمان يقفان إلى جانبي التابوت الجميل وينظران معظم الوقت إلى الأمام، ولكنهما كانا يحركان شفتيهما كلما تباطأ أحد. في دقائق وصلت إلى التابوت ولمحت تحت غطائه الزجاجي الكفن الأبيض الدقيق الذي يلتف بالصدر ويرتفع كالقلنسوة حول الوجه الذي حاولت أن أركز عليه أطول مدة ممكنة، وأنا أقول في نفسي إنه هو ملكوم إكس والشرطي يقول لي: «تحرك» بصوت ناعم. بدا لي شمعيا وميتاً وبدأ الشرطي يشير إلي بيده في مستوى خصره أن تحرك فقلت لملكوم في نفسي: «وداعاً» وتحركت.

وعندما توقف الصف نهائياً تلك الليلة في الحادية عشرة، كان اثنان وعشرون شخصاً قد مروا أمام الجثمان. وبهدوء سارت عربة نقل الأموات بين منتصف الليل والفجر محاطة بإثنتي عشرة سيارة شرطة إلى معبد الإيمان في الشمال. وهناك سحب النعش إلى الداخل على عجلات ووضع فوق منصة أمام مذبح الكنيسة وعليه غطاء سميك من القطيفة الحمراء ورفع غطاؤه. وانسحبت العربة فبقيت الشرطة متحفزة داخل معبد الإيمان وخارجه والبرد شديد في الخارج.

وفي الساعة السادسة صباحاً بدأ الناس يتجمعون على جانبي شارع أمستردام وفي التاسعة أصبح الجمهور الواقف وراء الحواجز التي أقامتها الشرطة وفي نوافذ العمارات بالمناطق المجاورة يقدر بتسعة آلاف شخص، وكان البعض يقفون في سلالم الإنقاذ من الحريق ويرتعشون من البرد؟ وكانت الشرطة قد أغلقت الطرق المؤدية إلى ما بين النهجين ١٤٥ و١٤٩ فلم يعد يسمح بعبورها إلا لسيارات الشرطة والصحافة وشاحنات التلفزة والإذاعة التي كانت تنقل المراسيم مباشرة. كان رجال الصحافة يقدرون بالمئات وبعضهم في السطوح القريبة والصحافيون في حافة الطريق يحملون مكروفوناتهم وكراساتهم.

وقالت فتاة بيضاء في مقتبل العشرينات لمراسل نيويورك تايمز: «كان باهراً، كان رجلاً باهراً إلى حد مذهل، وهذا ما دفعني إلى حضور جنازته». وقالت له امرأة زنجية: «جئت لأقدم احتراماتي إلى أعظم رجل أسود عرفه هذا القرن. إنه أسود. لا تقل ملوناً.» ولاحظت امرأة أخرى خوذات في سيارة إحدى قنوات التلفزيون فضحكت وقالت لسائقها: «هل تستعدون للصيف القادم؟»

وعندما فتحت أبواب معبد الحرية في التاسعة وعشرين دقيقة دخله أعضاء منظمة

الآفرو أمريكيين المتحدين. وخلال الربع ساعة التالية بقوا يقودون المعزين البالغ عددهم ست مائة إلى مقاعدهم. وتجمع خمسون صحافياً ومصوراً ومصور تلفزيون عند جدار عليه رسوم دينية في نهاية مذبح الكنيسة وبعضهم يقف على الكراسي. كان تقني زنجي يضبط آلات التسجيل ويتحرك بين مذبح الكنيسة والنعش الذي كان يحرسه ثمانية من رجال الشرطة الزنوج وشرطيتان زنجيتان. وجلست الأخت بيتي في الصف الثاني بين شرطيين سريين زنجيين وهي غارقة في السواد. كان غطاء النعش المرفوع يخفي صندوق التبرعات النحاسية والشمعدان الكبير. وكان الشيخ الحاج داوود أحمد فيصل رئيس البعثة الإسلامية في أمريكا الموجود مقرها في بروكلين قد أفتى بأن إظهار أية عادات مسيحية في مراسيم الجنازة سيجعل الهالك كافراً. وكان قد قال إنه لا يوافق على عرض الجثمان على الجمهور وقال: «إن الموت مسألة خاصة بين المرء وربه».

وقبل أن يبدأ القداس جاء أعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين بإكليل من القرنفل الأبيض على أرضية من القرنفل الأحمر منسق على شكل النجمة والهلال الإسلاميين.

وبدأ الممثل أوسي دايفيس وزوجته الممثلة روبي دي يقدمان برقيات التعازي الواردة من أهم منظمات الحقوق المدنية ومن شخصيات بارزة مثل الدكتور مارتن لوثر كينغ ومن هيئات وحكومات أجنبية مثل جمعية الطلاب الأفارقة والباكستانيين وطلاب جزر الهند الغربية بمعهد لندن للإقتصاد ومن المؤتمر الإفريقي لجنوب إفريقيا ومن السفير النيجيري الذي كان وقتذاك في بلده ومن رئيس جمهورية غانا الدكتور قوامي نكروما الذي قال في برقيته: «إن موت ملكوم إكس لن يكون عبثاً.»

ووقف عمر عصمان ممثل المركز الإسلامي بسويسرا والولايات المتحدة وقال: «لقد عرفنا الأخ ملكوم كأخ وشقيق وخاصة بعدما حج في العام الماضي. إن أسمى ما يطمح إليه المسلم هو أن يموت على أرض المعركة وليس في فراشه». وتوقف لحين انتهاء تصفيق المعزين ثم قال: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً!» فاشتد التصفيق وارتفعت معه التعاليق: «صدقت! صدقت!» ثم علق على التصريح الذي أدلى به في واشنطن كارل رووان مدير مصالح الإعلام الأمريكية حول رد فعل الصحافة الأجنبية على موت مالكوم إكس فاهتزت القاعة بالصفير.

ووقف الممثل أوسي دايفيس من جديد وقرأ بصوته الجهوري تأبيناً جعل زنوج

هارليم يخصصون له أكبر حماس عرفه في حياته. قال: «جاءت هارليم في هذه اللحظة إلى هذا المكان لتودع أحد آمالها المشرقة بعدما خبا ورحل إلى الأبد.... سيسأل الكثيرون عما تكرمه هارليم في شاب عرف بالإهتياج وإثارة الجدل والجرأة وسنبتسم... سيقولون مالكوم كان يدعو للكراهية وكان متعصباً وعنصرياً وأنه لم يكن في مستطاعه إلا أن يسيء إلى القضية التي تكافحون من أجلها! وسنرد عليهم قائلين: «هل كلمتموه؟ هل لمستموه؟ هل ابتسم لكم؟ هل سمعتموه؟ هل أساء لكم؟ هل كانت له علاقة بالعنف والإضطراب العام؟ إذا كان جوابكم عن كل هذه الأسئلة لا، فأنتم لم تعرفوه، ومن ثمة لن تعرفوا سبب تكريمنا له. ملكوم كان رمز الرجولة، رجولتنا السوداء الحية! وهذا ما كان يمثله في أعين بني قومه فنحن عندما نكرمه نكرم أحسن ما فينا وندرك أنه كان وما يزال أميراً، أميرنا الأسود المتألق الذي لم يتردد في أن يموت من أجلنا لأنه كان يحبنا حباً كبيراً.»

وتناول أخرون الكلمة مدداً قصيرة، ثم وقف أفراد العائلة وأعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين والمسلمون في صف ليمروا أمام التابوت ويلقوا آخر نظرة على الجثمان وشرطيان سريان يرافقان الأخت بيتي التي انحنت على التابوت وقبلت غطاءه الزجاجي وهي تجهش. ولم يكن البكاء حتى ذلك الحين قد سمع في القاعة ولكن إجهاش الأخت بيتي أطلقه بين النساء.

وتلا الحاج هشام جابر الذي جاء من إليزابيث، نيوجرزي دعاء على أرواح أموات المسلمين استغرق ثلاث دقائق، وختمت به المراسيم التي دامت أكثر من ساعة وكان المسلمون بمجرد ما قال: «اللهم...» قد بسطوا أكفهم أمام وجوههم.

وانطلقت عربة نقل الموتى ووراءها ثلاث سيارات تابعة للعائلة وثمان سيارات تابعة للمعزين واثنتا عشرة سيارة شرطة وست سيارات صحافة يتلوها حوالي خمسين سيارة أخرى في موكب قطع ثمانية أميال خارج منهاتن ماراً بطريق نيويورك السيار لينعرج في منفذه السابع متوجهاً إلى مقبرة فيرنكليف بأردزلي، ولاية نيويورك. وكان على طوال مسافة الطريق زنوج يضعون أيديهم وقبعاتهم على قلوبهم تحية للجثمان وسيارات الشرطة ترابط في جسور مقاطعة نيويورك ورجال شرطة مقاطعة ويستشيستر يقفون على طول الطريق المؤدي إلى المقبرة.

وفي المقبرة أنزل النعش وتلا عليه الشيخ الحاج هشام جابر مزيداً من الدعوات

ثم أنزل في القبر ورأسه في اتجاه القبلة طبقاً للعادة الإسلامية وصلى عليه المسلمون، ثم انسحب أفراد العائلة أولاً ولكن أتباع ملكوم إكس لم يسمحوا لحفار القبور البيض الذين كانوا ينتظرون ويتابعون ما يجري من بعيد برد التراب في القبر. وبدأ سبعة من أعضاء منظمة الآفرو أمريكيين المتحدين يغرفون التراب بأيديهم ويرمونه على النعش، ثم جيئوا بمجارف فأخذوا ينقلون التراب ويملأون به القبر حتى صار كالأكمة الصغيرة. ونزل الظلام على جدث الحاج مالك الشباز الذي كان معروفاً بملكوم إكس وقبلها بملكوم ليتل والذي لقب بـ«الأحمر الكبير» وبـ«الشيطان» و«ابن البلد» وبألقاب أخرى، والذي دفن على الطريقة الإسلامية. وذكرت نيويورك تايمز أن القرآن يقول إن رفات الأموات يبقى في القبور حتى: «إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت». وأن الله سبحانه وتعالى يقول من عواقب ذلك اليوم: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم. إن هذا ما كنتم به تمترون» (. . .) «إلا عباد الله المخلصين أولائك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين إرضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون».

عندما وقّع ملكوم إكس على عقد هذا الكتاب حدق في وقال: «أريدك أن تكون كاتباً لا مترجماً». وقد حاولت أن أكتب حياته بتجرد. كان شعلة من نار وذلك ما زلت لا أستطيع أن أتصور أنه أصبح جثة فأشعر كأنه إنما مر إلى فصل موالي سيكتبه المؤرخون.

المحتويات

مقدمة ٥

الفصل الأول

الكابوس ٩

الفصل الثاني

طالع السعد ٢٤

الفصل الثالث

ابن البلد ٣٥

الفصل الرابع

لورا... ٤٨

الفصل الخامس

الهارليمي ٥٧

الفصل السادس

أحمر دترويت ٦٩

الفصل السابع

أعمال غير قانونية ٨٥

الفصل الثامن

الحصار ٩٨

الفصل التاسع

الوقوع ١٠٣

الفصل العاشر

الشيطان ١١٦

الفصل الحادي عشر

الإنقاذ ١٢٩

الفصل الثاني عشر
المنقذ ١٤٦
الفصل الثالث عشر
رجل الدين مالكوم ١٦١
الفصل الرابع عشر
المسلمون السود ١٨٠
الفصل الخامس عشر
إيكاروس ٢٠٣
الفصل السادس عشر
الطرد ٢٢٠
الفصل السابع عشر
مكة ٢٤٤
الفصل الثامن عشر
الحاج مالك الشباز ٢٦٣
الفصل التاسع عشر
العام ١٩٦٥ .... ٢٨١
الخاتمة ٢٩٦

Malcolm X

... وكـان الأمـريـكيـون
حـتى البـيـض منهم
يقولون لي: "إنه الكتاب الذي
شعرت بالإنبهار وأنا اقرأه"
"اقرأه!" "كتاب مذهل!".

من مقدمة المترجم

Designed & Printed By Idea Adv. 05 350363